

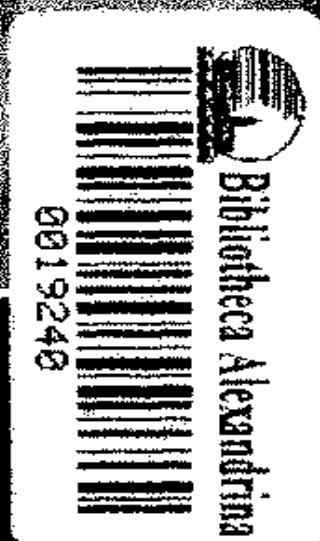
خوان مارسيه

سحرشدهاي

رواية



ترجمة : أحمد حسان



سحر شنخه‌اي

الكتاب : سحر شنفهاري

المؤلف : خوان مارسيه

المترجم : أحمد حسان

لوحنا الغلاف

ماتيس

خطوط

حامد العويضي

تصميم الغلاف والإشراف الفني

علي حامد

الطبعة الأولى :

يونيو ١٩٩٧

رقم الإيداع :

٩٧/٧٧٨٩

ISBN: 977-19-3654-9

خوان مارسيه

سحر شنگهاي

ترجمة : أحمد حسان

هذه ترجمة كاملة لرواية :

El embrujo de Shanghai

بقلم المؤلف :

Juan Marse

نشر دار :

Plaza & Janes

الطبعة الثالثة الصادرة عام ١٩٩٤

إلى ذكرى روزا دي كالافيل
وبرتا دي لاربوتش.
إلى كارمن دي سانتافي.
إلى خواكينا دي إرجينخويلا.

الحنين الحقيقي، الأشدَّ عمقًا،
لا يتعلّق بالماضي، بل بالمستقبل .
كثيراً ما ينتابني الحنين إلى المستقبل؛
أعني .. الحنين إلى أيام العيد تلك،
حين كان كلُّ شيء يشخّص إلى الأمام ..
وكان المستقبل لا يزال في موضعه .

« قمر الجنوب »

لويس جارتيا مونتيرو

الفصل الأول

١

أحلام الصبيا تتعفن في فم البالغين، قال الكاتبن بلادي وهو يسير أمامي بخطوته الواسعة الجسورة والمظهر الهش لرجل خفي: رأسٌ معصوية، ومعطف، وقفازات، وتظاهرة سوداء والتواء أسارير مُباغت ومُتَكَبِّر كان يبهرني. كان متوجهاً إلى كشك التبغ لشراء ثياب وفجأة توقف على الرصيف وتشمم الهواء بقلق من خلال الشاش الذي يلف أنفه وفمه بجور شبحي.

- واضح أن كل هذا العفن التعس - استمر في تشمّم وهمه الأثير مستمعيناً بهزات عصبية من رأسه، وتوقفت أنا أيضاً لأشم - موجود قبي الشارح. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك... لا أود إغضاب أحد، لكن يبدو أن هناك بيضاً يتحلل. ألا تشمّة؟

كان للكاتبين موهبة الإيحاء إليّ بصوته المعدني وانتابني إحساسٌ بخوار مفاجئ في معدتي وشعورٌ بالدوار.

هكذا تبدأ حكايتي، وكان بودّي أن يكون فيها مكان لأبي، أن يكون قريباً مني لينصحنني، حتى لا أحسّ أنني عديم الحيلة على هذا النحو إزاء شطحات الكاتبن بلادي وإزاء أحلامي ذاتها، لكن في هذه الفترة اعتُبر أبي

مفقودًا بشكل نهائي، وإن يعود إلى المنزل بعدها أبدًا. عاودت التفكير فيه، رأيت جسده مُمددًا في الخندق ونُدْفَ الجليد تسقط فوقه ببطء وتغطّيه، ثم فكرت في الكلمات المليّزة للعجوز المخبول وأنا أمضي ملتصقًا بأنثياله نحو كشك ميدان روبيرا، وبينما نمرّ أمام مدخل المبنى رقم ٨، بين الحانة والصيدلية، توقف الكابتن تمامًا للمرة الثانية والتقط أنفّه، الذي عادة ما يكون مُكمّمًا ومُموّهًا تحت الضمادة، العطن من جديد.

- ألا تعرف هذه الرائحة الفظيعة، يا فتى؟ - قال - ألم يعد أنفك الساذج الصغير الذي أفسده بخورُ كنيسة لاس أنيماس والعرقُ الحامض لعباءات الكهنة قانرًا على النقاط الرائحة...؟ - توقف ماديًا رقبته، وهو يشهق مثل حصان عصبي - بيض فاسد، براز قطط؟ لا شيء من هذا... هنا، في هذه البوابة. الآن أعرف ماهوا إنه غاز! يا للبؤس الذي حطّ علينا...!

داخل الردهة كانت تعشش بالتأكد رائحة بؤس شبه دائمة، فقد كانت ملائذًا ليليًا للمتسولين، لكن الكابتن عرف كيف يُميز في الحال بين عطنٍ وآخر كما أنه أكد أن رائحة الغاز لم تكن تنبعث من هناك، بل من الرصيف المحطّم الذي نطّؤه، من الشقوق التي ينمو فيها عشبٌ مُبعثرٌ وكريه.

تولّى هو نفسه تحذير الجيران. علّق على الأمر في الكشك، وفي الصيدلية، وفي محطة الترام، ورغم أن اندفاعات جنون شيخوخته كانت معروفة تمامًا، فإن كلّ من كان يمر منذ ذلك اليوم برصيف الجانب المرتفع من الميدان ويشم الهواء، كان يتبين الرائحة على الفور. انزعجت النساء وأبلغت إحدى الجارات شركة الغاز.

- لا شك أن هناك ماسورة مكسورة تسرب هذا الخراء - رقد الكابتن بلاكل في حانة الميدان - هذا خطر جداً، أيها السادة، والأجدر بنا جميعاً أن نتجنب بسلام المرور من هناك وأن يقبع كل واحد في منزله، إذا أمكن... وحافظوا تماماً من إشعال سجاثر بجوار الكشك، أقول هذا لكم، أيها الظلمان.

- والأهم - حذر صديقه السنيور سوكري الزبائن الدائمين من الشاربين، الذين أنصتوا يتنازعهم القلق والتهكم -، أن تحاذروا من النظرات الملقبة والأفكار المشتعلة والنذالة التي مازال البعض يخفونها. احذروا فيلثة أبي فروة العجوز أمام السينما، بموقدها ولسانها الألعواني، هي أيضاً خطر. شرارة أو كلمة قذرة، ثم، يوم، ويمضي الجميع إلى الجحيم.

- فلتحاذروا أنتم، أيها الملعونان، فأنتم تحرقان الصحف خلف الكشك - رد عامل ترام ساخر يشرب عصير العنب - ويوماً ما ستتطير كلنا في الهواء، مع محطة الترام والنافورة و...

- ولم جئنا إلى هذا العالم أن لم يكن لنتطير جميعاً أشلاء في الهواء، قل لي يا عامل الترام المتزمت العجوز بلباسك الكاكي؟ - صاح الكابتن ملوحاً بذراعيه الطويلتين كذراعي مروحة طاحونة وهو يحك قدميه في سجادة النشارة وبذر الزيتون. كانت ضمادة رأسه قد تراخت وبرزت بجانب أفته ثدف من القطن المنسول المصفى - تطير إلى ألف شل، يا رجل الرب، وسوف تشعر بأنك أفضل بكثير!

- ربماً أفعل يا سيدي، نعم - قال عامل الترام، وأردف ناظراً إلى - هيا، خذ يا فتى.

انقضت خمسة عشر يوماً وظلّت الرائحة في الميدان، ورغم شكاوي الجيران المتكررة إلى شركة الغاز القطالونية وإلى البلدية، لم يأت أحدٌ للإصلاح. ومن باب الحانة كان يمكن ملاحظة أن كل شيء ظلّ على حاله يوماً بعد يوم؛ كان المارة المنزعجون ينزلون من الرصيف متجنّبين المرور أمام البوابة، بينما كان سُكّان المبنى، المكوّن من ثلاثة طوابق بشرفات ملتفة مليئة بنباتات الجيرانيوم، يخرجون ويدخلون متسلّلين مثل فئران مذعورة. واعتدنا، الأخوان تشاكون وأنا، أن نمرّ بشكل سافر من هذا الجزء من الرصيف يُشعل رؤوسنا الشعور بالخطر، بوشك وقوع كارثة.

كنتُ في ذلك الحين في وضع فريد، جديد بالنسبة لي، يجعلني أغرق على فترات في السأم وأحلام اليقظة؛ كنت قد تركت المدرسة وليس لديّ عملٌ بعد. أو بالأحرى، كان لديّ عملٌ مؤجّل، إذ بسبب براعة أيديتها في الرسم منذ الطفولة، بذلت أُمي جهوداً، بفضل نصيحة ووساطة صانع صديق لها، هو السنيور أوليارت، كي يُلحقوني كصبي للتدرّب وقضاء المشاورير في ورشة صانع غير بعيدة عن المنزل؛ وفي الورشة قالوا لأمي إنهم لا يحتاجون إلى صبي آخر للتدرّب لفترة عشرة أشهر أخرى على الأقل، حتى تنقضي إجازات الصيف القادم، لكنها رغم ذلك قرّرت أن مهمة الصانع هي ما يناشيني بالضبط وتعهّدت بإرسالني إلى الورشة في الموعد المتفق عليه. كان شفقي المفترض بالرسم وحبّي للقراءة حاسمين في اتخاذ ذلك القرار؛ فأُمي، مُسترشدة في المقام الأول بحسّها العملي - فلم تكن تستطيع دفع مصاريف دراستي وكان المنزل بحاجة إلى أجرٍ آخر - لكن مُسترشدة بحسّها أكثر، أرادت بهذه الطريقة توجيهي إلى مستقبل

توقعت أن يكون موسومًا بنوع من الحساسية الفنية، ولو بأكثر معانيها غموضًا وابتذالاً. إلا أنني، في ذلك الحين، لم أكن قادرًا على إيجاد رابطة بين صنعة الصياغة الفنية وبين همومي، والشيء الوحيد الذي كان يروقني، فضلاً عن القراءة والرسم، هو التسكع في الحي وفي حديقة جويل.

اعتدتُ الالتقاء في حانة الميدان على ناصية شارع برويدينثيا مع صبيّين من سنّي، هما الأخوان تشاكون، اللذان كنت أحسدهما سرّاً على وقاحتها وحرية حركتها. كانت مواردُ رزقهما متقلبة ومرتبكة، مثلما كانت جولتهما في أنحاء الحي؛ إذ أنهما لما كانا قد تحرّرا من المدرسة قبلي بكثير، فقد اشتغلا في أعمالٍ مؤقتة كموزعين وصبيّين لكلّ المهام في البارات والحانات، ويُشاهدان الآن وهما يذرعان الشوارع طوال النهار. ولم أعرف أبداً أين يسكنان بالضبط، أظنّ في كوخ بشارع فرتيسكو ألجيري، في أعلى الكارميلو. كانا أيام الأحد يبيعان قصصاً مصوّرة مستعملة وروايات ممزقة من تلك التي تباع في الأكشاك بسعر منخفض.

انقضى شهر نوفمبر وغطت أوراق الموز الصفراء الميدان الصغير الرمادي المنكفي على نفسه، حلّ البرد مبكراً وبدأ أن الشتاء سيكون قاسياً. كان الناس يعبرون مسرعين ومنحنين، لكن السنيور سوكري ظل دائماً كمن يسير أثناء النوم، يتحدث وحده ويتصرف كأنه يشكّ في وجوده ذاته أو كأنه يخشى أن يتحوّل فجأة إلى شبح. تعود القول أنه، في الأيام السيئة الطقس والتي تنشط فيها الرياح، يتوجب عليه أن يلقي بنفسه في الشارع بحثاً عن ذاته الشاردة. وبالفعل، كنا نراه مقتفياً آثار نفسه عبر شوارع حي جراثيا ووداه خلف ظهره ورأسه مُطرقاً، مفتشاً في الحانات

والصيدليات وبكاكين المأكولات المحفوظة، في المكتبات المنزوية والمتربة
للكتب المستعملة وفي معارض اللوحات المتواضعة، سائلاً الناس حتى
يهتدي إلى اسمه وبياناته. وقد حكى لنا أنا والأخوين تشاكون أنه يتجشم
جهداً جهيداً ليعود إلى ما كان عليه، وأن العون الذي يلقاه ضئيل، حتى أنه
يود أحياناً أن يترك الأمر برمته ويقنع بأن يكون لا أحد ويتشمس في هدوء
جالساً على أحد المقاعد الخشبية لميدان روبرا. لكن الأغلب أن نراه وهو
يفتش عن نفسه قلقاً ومسعوراً في أقل الأماكن توقفاً، يقولون أنه توقف ذات
يوم أمام معسكر الحرس المدني في تريبسيرا وسأل الحارس عن اسمه
وعنوانه - اسمه وعنوانه هو، وليس الحارس -، وأن هذا الأخير صاح منادياً
جاويش نوية الحراسة وثارت جلبة صاخبة.

- لئر، يا صغار، هل تتفضلون بأن تقولوا لي كيف أُنمى وأين أُسكن؟ -
كان السنيور سوكري قد توقف عند باب الحانة وصَرَخَ انتباهنا للحظة عن
مدخل المنزل رقم ٨ - لو سمحتم.

- حضرتك تُدعى السيد خوسيب ماريا دي سوكري وتسكن في شارع
سان سلبادور - أجبتُ بطريقة آلية.

وافق متفكراً، وبدأ واضح الرضى عن هذه المعلومات. لكنه قبل أن يَقْرَ
تماماً بهويته، عاود التشكك:

- وماذا تظنون، هل من الممكن، هل من المحتمل أن أكون قد وُلدت في
قطالونيا وأنني فنانٌ مُصوِّرٌ، أكسبُ القليل أو بالأحرى لا شيء، أنني صديقٌ
قديم لدالي، وليس في جيبي شلن...؟ همس ناظراً إلينا وفي عينيه وميضٌ
ساخر.

- نعم، يا سيدي. هذا ما يقال.

- في النهاية، ما حيلتنا - تنهد، وييده الحانية ربت على رأسي ورأس فينيتو تشاكون - أنتم صبية بالغو اللطف والاحترام إزاء هذا المستكشف الأحمق... شكرًا.

والكي يُطمئنه تمامًا وليس للسخرية منه، كما قد يظن الكثيرون، قدّم له فينيتو المزيد من المعلومات.

- ومن عادة حضرتك أن تأتي كل يوم للحدث برهة مع عمال القرام في المحطة، ثم تشتري الصحيفة من الكشك وتحرقها بعود ثقاب وأنت جالس على مقعد، أحيانًا بصحبة الكابتن. وبعدها تأتي إلى البار.
- حسنًا. فهمتُ. والآن، أ تستطيعون أن تقولوا لي لماذا جئتُ، لو تكرمتم؟

- جئتُ سيادتك - تدخل خوان تشاكون بصبر - لتناول كأس قهوة بالعرق، مثل كل العساري، ولتري إذا ما كان فوركات ذاك سيقرّز أخيرًا الخروج إلى الشارع.

- لا بد أن الأمر كذلك - أقرّ السنيور سوكري مستسلمًا، وتوجه إلى منصة البار مغفمًا - : نعم، لا بد أنه كذلك، ما حيلتنا.

على الجانب الآخر من الميدان، في الواجهة المائلة للاحمرار لسينما روبيرا، ظل جيسي جيمس^(١) طوال الأسبوع يسقط من كرسي حجرة الطعام في منزله، والرصاص يثقب ظهره غدرا، وفي اللافته الأخرى ذات الألوان الخشنة، كانت السيدة عذراء الأقمار السبعة تطلّ من فوق أغصان

(١) Jesse James

الأشجار العارية شاهرةً خنجراً ونظرةً خبيثةً تتفحص مرور عربات القرام وهي تنور عند منعطف تورينتي دي لاس فلورس. لكن لم يكن ما يشد انتباه بعض الجيران المتجمعين عند باب بار كومولادا هذا المساء هو السينما، ولا حتى تسرب الغاز الذي كان مثار كثير من التعليقات عند مدخل رقم ٨، وحتى الاحتمال المثير لوقوع انفجار لم يكن هو ما يمنعنا من تحويل أنظارنا عن هناك بل الفضول لرؤية رجل يخرج من ذلك المدخل. في البداية، كان اهتمامنا برؤية الرجل المجهول انعكاساً لفضول الكبار، فلم نره أبداً من قبل ولم نعرف شيئاً عنه؛ ثم أصررنا أنه يدعى ناندي فوركات، وأنه لاجئٌ عاد من فرنسا بعد زهاء عشر سنوات وأنه صديق كيم، والد سوسانا. مضت عليه بضعة أيام في منزله، مع أمه العجوز المريضة جداً وأخته العانس، ودارت التعليقات بأن الشرطة لا بد أنها تعرفه ومن المؤكد أنهم استجوبوه في مركز الشرطة، لكنهم، لسبب لم يستطع أحد تفسيره، أطلقوا سراحه.

أما نحن فما كان بمقدورنا في ذلك الحين حتى أن نحس أن هذه الشخصية بعيدة الاحتمال، مثلما الأمر مع كيم: أنها مُختَرعة، خيالية، وبلا عيوب، شخصية لا تكتسب حياة إلا في فم الكبار حين يناقشون، بالتلميحات في صوت خفيض، جرائمه ومآثره، وفق معيار كل واحد. اعتقدنا حقاً، أنه لن يبلغ أبداً مرتبة أن يصبح أسطورة مثلما كان كيم، الذي كان فوركات قد ناضل أو ما زال يناضل في جماعته. كان له أنصار وخصوم بدرجة متساوية، فظن البعض أنه رجل راق ومتعلم ناضل من أجل مثله العليا، فوضوي شريف نشأ في برشلونة، ابناً لصيادي سمك، دفع مصاريف حصوله على شهادة مُعلم بالعمل كجرسون، بينما قال آخرون أنه

ليس سوى مجرم، لص بنوك ربما خان رفاقه القدامى والآن، وقد عاد، سيرغب أكثر من واحد في تصفية الحسابات معه. وأنه لهذا السبب بالضبط يجد مشقة بالغة في الخروج من منزله. وحين شرعنا نتخلله، الأخوان تشاكون وأنا، فضّلنا رجل الفعل، ذلك الذي يخاطر بجلده والمسدس في يده ودائماً في صحبة كيم، ظهراً لظهر، يحمي كل منهما الآخر...

خلال أربعة أيام، لم يخرج ناندي فوركات إلى الشارع بل ولم يُطل من الشرفة. وأمام باب البيت ظلّت رائحة الغاز تطفو ليل نهار وأخذ يملكك المرة الآن شعور مزبوج بالإثارة عند المرور من هناك، فكان الغاز ورجل العصابات قد أقاما تحالفاً خطراً. وفي أصيل اليوم الخامس، اشترى الكابتن بلاي صحيفة (التضامن القومي) وأشعل فيها النار خلف الكشك، على مقربة شديدة من البوابة. انتاب الذعر امرأتين كانتا تمرّان من هناك فانطلقتا تجريان صائحتين، لكن لم يحدث أي إنفجار.

في اليوم التالي، حوالي الساعة الرابعة من عصر يوم ينذر بالمطر، ظهرت نون تونغ فرقة صيانة من شركة الغاز، رجلان وريس عمال، وبالمعاول والجواريف حفروا الرصيف وشقوا خندقاً أمام رقم ٨. أثار عملهم التوقعات في الميدان. كشفوا جزءاً من شبكة مواسير متهاكة مثل أمعاء صدئة، وأقاموا حاجزاً، ووضعوا ألواحاً بمثابة قنطرة من المدخل حتى حافة الرصيف لتسهيل مرور السكان. وهذا كل ما فعلوه. في الحقيقة بدا ذلك عملاً تافهاً؛ فقد كشفوا ستة أو سبعة أمتار من الرصيف، لكن الحفرة التي حفروها لم تتعدّ مترين طويلاً وكانت قليلة العمق. ولم يحفروا بعدها. اقترب أحد العمال من البار ممسكاً بزجاجة مياه غازية فارغة،

وطلب ملاها بالنبيذ الأحمر، ودفع، وعاد إلى زميليه وجلس ثلاثتهم فوق أحجار الرصف المكومة على الرصيف وأمضوا بقية الأصيل يتجرعون الخمر ويتأملون نصف نائمين الحركة في محطة القرام وحول الكشك. ومن حين لآخر، كان الرئيس ييصق على التربة المسودة المكومة بجانب الرصيف ويلقي نظرة باردة على الحفرة. وحين حل الظلام أقاموا خيمة قماشية صغيرة وحفظوا فيها ألواتهم. ثم مضوا.

في اليوم السادس لوصول فوركات، أصبح خمول فرقة الصيانة أشد جلاءً. فلم يلمس أيهم معولاً ولا جاروقاً على الإطلاق. أخذوا يتربدون على البار واحداً فواحد، للتبول أو لملء الزجاجاة بالنبيذ، دون أن يتحدثوا مع أحد. وفي مناسبة أخرى، اقترب أصفرهم سنًا، وهو شخص داكن السمرة قوي البنية بقلنسوة ساقطة حتى حاجبيه، من مدخل السينما لينظر إلى الصور المعلقة في اللوحة؛ تأملها عابثًا، كأنه لا يفهم. وكان يشاهد أحيانًا ملتصقًا بالجوانب المعدنية للكشك، ويداه في جيوبه، متسليًا بفك رموز أغلفة القصص المصورة المعلقة بالمشابك.

دارت التعليقات في البار حول انتظار وصول فني من الشركة، لكن فينيتو تشاكون وأنا اعتقدنا شيئاً آخر مختلفاً تمامًا. انقضى السبت والأحد وعاد العمال مبكرين صباح الاثنين، ثم مضى يومان أخران وظلت الأمور كما هي، الحفرة مفتوحة والرجال الثلاثة يحرسونها مشبوكي الأيدي، لا ندري ماذا ينتظرون، عندها قال شخص في البار اللعنة، هذا غريب جداً ولا بد أن في الأمر سرًا، فردّ عليه زيون آخر أنه لا داعي للاستغراب: فهؤلاء العمال ليسوا من شركة الغاز القطالونية، بل من البلدية، وعلق ضاحكًا، ألم

تروا أبداً تكاسل عمال الأشغال العامة؟ سيكون غريباً أن نراهم يعملون. أما بالنسبة لنا، فكان ذلك لغزاً ليس له سوى تفسير واحد: أنهم ليسوا عمالاً في شركة الغاز ولا في البلدية، ولم يأتوا لإصلاح أي تسرب ولا كانوا ينتظرون وصول أي فني ولا شيء من هذا القبيل. إنهم يعرفون أن هذا اللاجئ قد عاد، ويعرفون أنه بالمنزل وأنه لا بد سيخرج يوماً ما من هذه البوابة. كل مسألة الحفرة هذه مسرحية، نريفة للبقاء هناك للمراقبة دون إثارة الشكوك. هذه الحفرة، في الحقيقة، قد تكون مقبرة فوركات.

٢

صباح الخميس ظل المطر يتساقط فترة طويلة حتى أصبح كوم التربة الناتج عن الحفرة إسفنجياً، وازداد دكنة ثم تصلب في النهاية. وعند الظهر كنّا نجوس حول الكشك لننظر عن قرب إلى الرجال الثلاثة الجالسين على حافة الرصيف؛ كانوا يتناوبون زجاجة النبيذ الأحمر ولا يتحدثون إلا قليلاً. كانت الجدة سورييس، العائدة من السوق والتي تسكن في رقم ٨، تستعد لدخول البوابة مروراً بالألواح المكسوة بالطين حين انزلقت وأوشكت على الوقوع. قفزت ثمرة يوسف من الحقيبة الممتلئة واستقرت في قاع الحفرة. اغتاضت العجوز.

- إلى متى سيستمر هذا القلق؟! أنا أكلكم، يا تنابلة؟ ألن تسبوا هذا الثقب اللعين أبداً؟

- حين يأمرؤنا بذلك، يا جدة - غمغم الرئيس - المؤكد أننا سنواصل

الحفر.

- وماذا تنتظرون إذن؟ كسالى، أكثر من كسالى! - واصلت العجوز السير فوق الألواح الزلقة ودلفت من البوابة - يا للقرف! كيف جعلوا كل شيء هكذا!

- هيه، يا سيدتي، كان هذا الخراء هنا حين وصلنا! - احتج أصغرهم سنًا - الجدة العجوز المزعجة!

ساعة الغداء أخرجوا علب الطعام المتبجعة والمطاوى والفوط. كان علي أن أصحب الكابتن بلاي إلى منزله، لكنه لم يشأ أن يتبعني ذلك اليوم. قال إن زوجته ستأتي لتأخذه، فيما بعد، فتركته في الحانة مع السنيور سوكري. مضيت مع الأخوين تشاكون وعند مرورتنا بجوار العمال، نادانا أطولهم، نو الرأس الحليق.

- هيه، يا فتيان - كانت تظهر في علبه طعامه كتلة متلاصقة من الأرز المسلوق - اعملوا معروفًا، ليمض أحدكم إلى البار لإحضار شعرة ملح. لا أدري ماذا تظن امرأتي اليوم، لكن لا يوجد من يستطيع أن ياكل هذا... امض، يا غلام، أنت.

انطلق خوان يجري صوب البار. وانتظرتاه أنا وأخوه دون أن نتحرك من مكاننا، ناظرين إلى الأجير الآخر والريس وهما ياكلان؛ الأول، حمصًا مطبوخًا بسمك البكلاء؛ والثاني، عدسًا بشحم الخنزير. كانا يعضغان بسرعة ويسأم متشابه، ونظر إلينا الريس مرة واحدة، لكن كأنه لم يرنا؛ كانت عيناه مائيتين وجفونه مريضة، ويبد متخشبة، دون أن ينظر إلى ما يفعل، تحسس زجاجة النبيذ التي قدمها له زميله. ومن الحفرة بلغت أنوفنا رائحة خفيفة لبراز قطط. عاد خوان جريًا بحفنة ملح في قطعة ورق

فشكره الأجير الحليق الرأس. عندئذ تجاسر فينيتو، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة، فسأله لماذا لا ينتهون من حفر الحفرة ولماذا لا يبحثون عن تسرب الغاز.

- من قال لك أن هناك تسرب غاز؟ - زام الرجل وهو ينثر الملح على الأرض.
- كل الناس يعرفون هذا - قال فينيتو.
- حقاً؟ واضح أنكم منتبهون جداً في هذا الميدان. كل ما وجدناه هو جمجمة.

- جمجمة؟

- هذا ما قلته - تبادل الرجل نو الرأس الحليق النظر مع زملائه وأردف - : جمجمة وبعض العظام. ولهذا توقفنا عن الحفر، مؤقتاً. يجب أن يأتي أحد ليرى ذلك، أستاذ جامعي... تحت هذا الميدان هناك جبانة مليئة بالموتى، يا فتى. مئات، آلاف الموتى. عظام عتيقة ذات قيمة كبيرة، عظام ذات أهمية كبرى، فهمت؟ ليقبل زملائي إذا كنت أكذب.
- لا يكذب، لا - قال أصفرهم.

- وأين الجمجمة؟ - سأل فينيتو - أنستطيع أن نراها؟
- بالطبع لا. إنهم يدرسونها.

لم تنطل علينا، بالطبع. ربما كانت دعابة، وانتظرنا القهقهة بين لحظة وأخرى، لكنهم واصلوا الأكل كأن شيئاً لم يكن، وهم يحكون بملاعقهم قاع علب الطعام ويعبون الخمر.

- ولهذا السبب - استطرد الأجير نو الرأس الحليق - تعتقدون أنكم تشمون الغاز. لا يوجد أي تسرب غاز. هذا العطن هو ما يفوح من عظام

الموتى حين يجتمع منهم الكثير. كذلك يبعثون في الهواء ضوءاً أخضر كأنه ضوء فوسفور، لقد رأيته أحياناً في الجبانات، في الليل... الرائحة تشبه الغاز كثيراً، هي غاز في الحقيقة، غاز الموتى. أقسم بأمي على هذا. لم نقل شيئاً. أكدت تلك الكذبة شكوكنا؛ لقد كانوا هناك لسبب آخر، لم يكن الإصلاح سوى خدعة. نظرت بقلق إلى الحفرة وإلى المدخل وعندها لاحظت عيني الرئيس المائيتين مغروستان في.. ماذا يقلقك، يا فتى؟ - غمغم بصوت مبحوح.

- أنا؟ لا شيء..

نظر إليّ في صمت بعينيه الحزینتین المتعبتین برهة طويلة، وقال أخيراً :-

- هل أنت خائف.

- أنا؟ مم.

لزم الصمت من جديد، وكأنه يزهد في جعل نفسه مفهوماً، ليس لي فقط، بل لنفسه هو أيضاً. أدركت ذلك في عيني وفي صوته :
- هيا، اذهب إلى منزلك. لا بد أن أمك في انتظارك لتأكل. وأنتما كذلك. إغربوا من هنا.

لم تؤلمني كلماته، بل عيناه المغرورتان. كف عن النظر إلينا وظل مستغرقاً وهز رأسه هزاً خفيفاً بمزيج من العجز والإشفاق على النفس، وغمغم بصوت لا يكاد يُسمع كلمتي خراء عاهر دون أن أتمكن من معرفة إلى من يوجههما ولا الإهانة السابقة أو المستقبلية التي يستحضرها أو يتوقعها. صعد قط أسود الكوم المجاور للحفرة ليتشم طيات التربة

الداكنة، وأحدثت عجالات ترام ينعطف أمام السينما صريراً على القضبان وفي رأسي. وما زلت أنكر عيني ذلك الرجل والشعور اللعين بالإهمال والارتباك الذي غزاني، مثلما يحدث حين يحييني بود شديد أحد المعارف الذي أكون قد نسيت اسمه وحبه لي.

لم نذهب إلى المنزل واتفقنا على أن أولئك الأشخاص، رغم أنهم يبدون مسالمين عن قرب، يخفون نواياهم، على أية حال، مهما كانت هذه النوايا. واتفقنا على الالتقاء في الميدان بعد الأكل لنواصل التجسس على حركاتهم.

عند العصر اشتدت الرياح، هبت في لفحات رطبة، كومت أوراق الشجر الصفراء إلى جانب الكشك ودفنتها في الحفرة، وأخذت أفكر في الرجال المنحنيين الصامتين الذين يفركون أيديهم إلى جوارى خلف زجاج الحانة، في كل حانات الحي والمدينة في هذه الساعة، رجال داكنون ومستوحشون يشربون واقفين ناظرين إلى الشارع أو أمام منصة البار أو مستندين على براميل الخمر وكأن الحياة قد حاصرتهم هناك، فوق بساط قذر من النشارة والبصاق. وبعد قليل جاء فينيتو وخوان وكنا ننظر إلى حمامة تخفق جناحيها ساكنة فوق نافورة الميدان، كأنها معلقة من خيط غير مرئي، حين ظهر بغتة ناندي فوركات أمام مدخل منزله، على حافة الحفرة، ملقياً فوق كتفيه معطفاً رمادياً، ولايساً نظارة داكنة وبين شفتيه سيجارة غير مشتعلة. لمع على صدره رباط عنق لافيت للنظر، له وميض برتقالي وبنفسجي، وكان رجلاً فارغاً، ثقل الكتفين وبارز الذقن. ظل لثوان ينظر إلى الكشك وإلى محطة الترام، ويعود ثقاب أشعل السيجارة، وهو لا يزال ساكناً، وفي هذه

اللحظة لم أفكر في أن اللهب يمكن أن يفجر الميدان برمته، بل فكرت في الرجال الثلاثة الذين كانوا جالسين على أحد مقاعد الميدان يتبادلون، من جديد، زجاجة النبيذ. رآه ريس العمال في الحال، لكنه لم يبد أدنى حركة ولا نبه زميله.

قبل أن يستعد للخروج بالخطو فوق الألواح، نظر فوركات إلى قاع الحفرة المفتوح أمامه، ورأى بالتاكيد خليط المواسير والكابلات الكهربائية الملتوية التي قرصتها الرطوبة، ورأى الأوراق الذابلة وثمره اليوسفي المتعفنة، ثم أحاط بنظرة بطيئة دائرية بالميدان الكالح الهادئ المفتوح أمامه، دون أن يتوقف ولو لثانية واحدة ليدقق في الرجال الثلاثة الجالسين على المقعد؛ كانت عيناه اللتان تحمييهما النظارة السوداء لا تحدقان إلا في نقطة في الفراغ، لا تدري ما هي، ربما في هزيمة حياته، في شيء يتعلق بقلبه الكئيب أكثر مما يتعلق بما يمكن أن يراه الآن حول الكشك ومحطة الترام تحت سماء رصاصية، ضوء الأصيل المفزوع ذاك والناس الذين يمرون كأشباح هاربة، والأطفال بكوفياتهم السمكية وركبهم المحمرة من البرد يتقافزون من دكان الزلابية^(١) إلى النافورة، وحمامتان أو ثلاث تنقر في البركة.

بقدر ما استغرقنا في مراقبته في سكونه المتخشب بعض الشيء، ويقدر ما دققنا في يديه الطويلتين الداكنتين وفمه المتوتر، لم نستطع التقاط بادرة واحدة تقيم تحالفاً بين الموت والمشهد، ولا أي إيماء تنم ولو بصورة

(١) Churrería : مكان بيع Churros : وهي نفس عجيبة الزلابية أو لقمة القاضي ومقلية بنفس الطريقة لكنها على هيئة أصابع أسطوانية، وتؤكل في الصباح فور قليها كإفطار خفيف مع القهوة - م.

عابرة عن وعيه المحاصر والمُدان. لقد بدا، حقًا، حذرًا ومتوترًا بعض الشيء، لكن ربما كان ذلك راجعًا إلى كثفيه البارزين الفهدين. وحين أصبح أخيرًا مستعدًا لعبور عتبة شيء لا ندريه، جذب نفسين من سيجارته لكنه، على غير توقع، طوحها في الحفرة، ودار على عقبيه ورأيناه، يختفي في عمق الردهة.

بعدها بيومين، ألقى العمال جواريف الطين في الحفرة وغطوها بنفس أحجار الرصف المتآكلة، وحملوا الأدوات والقضبان في شاحنة صغيرة ومضوا إلى غير رجعة. عندها انتبهنا إلى شيء فأتينا: فخلال كل الوقت الذي ظل فيه الرصيف محفورًا، كاشفًا المواسير الصدئة والكابلات المتقشرة، لم نحس فيما حوله بأي رائحة سامة بوجه خاص، اللهم إلا العطن الخفيف لبراز القطط الذي تتنفسه التربة المكشوفة. لكن فور ردم الحفرة وأحشائها المتعفنة، عادت رائحة الغاز تسمم الهواء أمام بوابة رقم ٨، وليس هناك فقط؛ فقد بدا أن الجو العفن ينتشر كل يوم أكثر فأكثر، وجاءت لحظة، ربما لأن العفونة قد التصقت بملابسك وجلدك، أصبح باستطاعتك عندها التقاط الرائحة اللعينة في شوارع بعيدة عن الميدان، بل وأبعد من ذلك، في أحياء نائية.

٣

سيمضي فوركات بدوره من المنزل ومن الحي كله، بعد البقاء بضعة أيام بجوار أمه المريضة، ولن نراه مرة أخرى إلا في الربيع التالي وفي ظروف أشد غرابة. كان رحيله محاطًا بالكتمان وغير متوقع مثلما كان وصوله، ودارت التعليقات أن لا شيء يبقيه هنا سوى نفن أمه العجوز عندما تحين الساعة.

بعدها بوقت قصير قال أحدهم أنه رأى يغسل الصحون خلف منصة حانة بحي برشلونيتا، تملكها أخته الأخرى المتزوجة، لكن هذا بدا غير محتمل، لأن خطابه بدأت تصل من فرنسا مرة أخرى، كما كشف ساعي البريد في البار، مما يفترض أنه عاد من جديد إلى تولوز.

وحوالي ذلك الوقت، عند بداية العام، كفّ الأخوان تشاكون عن التردد على الميدان وكانا يريان أحياناً منظرحين على الرصيف المقابل لمدرسة المعلم المقدس عند ناصية شارع الإسكوريال، يعرضان بضاعتهم من القصص المصورة والروايات المستعملة. وبعد ثلاثة شهور، رأيتهما، ذات سبت، يقفان أمام عتبة دكان لبيع الخضراوات المطبوخة في شارع بروبيدنتيا. كانت تحتل الرصيف براميل مليئة بزيتون فواح وكان الأخوان تشاكون ينظران إليها ويتشعمانها وأيديهما في جيوبهما. كانا أشد قذارة وبؤساً من قبل وأشد نحافة، كانا قد صارا كلاهما عيوناً وجرياً وبدا أنهما متحفزان أمام الفريسة. وفي الدكان، كانت نصف ستة من النساء تقفن في طابور للحصول على حمص وعدس مطبوخين. اقتربت من الأخوين تشاكون من الخلف راغباً في مفاجئتهما، لكنني ما أن وضعت يدي على كتف فينيتو حتى استدار نحوي ببطء شديد وقد استحالت عيناه بياضاً، وفجأة، اجتاحت ارتجافات شديدة، وأطلق صيحة وتهاوى على الرصيف، حيث أخذ يرقص ويخرج من فمه رغوة خضراء. هرع أخوه خوان يستد رأسه وهو يبكي ويطلب العون. توقف بعض المارة، وخرجت النساء من الدكان وأحاطت حلقة من الجيران بالأخوين، لكن أحداً لم يدر ماذا يفعل. من حنجرة فينيتو كانت تخرج حشرات مخيفة لم أكن قد سمعتها إلا في

السينما، ولم يتوقف فمه عن إفراز تلك الرغبة الخضراء المقرفة وأشفقت عليه النساء وتحسرن على الهجران الذي يعاني منه بعض الأطفال، وعلى جوع ويؤس أولئك المهاجرين^(١) الفقراء الذين يعيشون في أكواخ... ظلك برهة مشلولاً بفعل المفاجأة والخوف، ثم اجتاحني حزن هائل لرؤية صديقي يتلوى كأنما تملكه الشيطان، فألقيت بنفسي إلى الأرض لأسنده وأناديه حتى يخرج من تلك البئر السوداء: «سيرافين! فينيتو، ماذا بك!»، وكنت أحتضن ساقيه اللتين أصابهما الجنون حينما، دون أن يكف عن العواء وإفراز اللعاب، غمز لي بعينه، الوغد اللعين...

تمالكت وانتظرت لأرى إلى أي نهاية ينتهي ذلك الضجيج المرعب من الصرخات والحركات المسرحية، رغم أنني صرت أتخيلها. فبمساعدة خوان، الذي كان يضغط على رأسه بكلتا يديه كأنما يمنعها من الانفجار، أخذ فينيتو يهدأ وجرجر نفسه على مؤخرته فوق الرصيف وتمكن بجهد كبير وواضح من الاستناد بظهره على الجدار. علقت إحدى الجارات، بينما تنظف له اللعاب بمنديل، قائلة إن هذه النوبات العصبية ترجع إلى الضعف، إلى المعدة الخالية. فقال خوان: «لم نأكل منذ خمسة أيام، يا سيدتي». خرجت جدة تسكن في الجانب المقابل بعلبة لبن مركز أعطتها للبويين الجائعين. وحين تعالك فينيتو بإعياء، خرجت بائعة الخضروات المطبوخة من البكان حاملة قرطاساً مليئاً بالحمص الذي يتصاعد منه البخار، كان به كيلوجرامان على الأقل، أعطته لخوان وقالت، هيا، اذهبا إلى المنزل لتأكلا. طلب خوان مساعدتي وسندنا فينيتو فيما بيننا ومضينا من هناك بين التعليقات المتحسرة للجيران.

(١) Charnegos · تطلق في برشلونة على المهاجرين من أقاليم إسبانيا الأخرى - م.

فور أن استدرنا حول المنعطف، صلب فينيتو قوامه مبتسماً وخبطني على رأسي، وقال: «أنت عبيط». في هذه اللحظة كرهته وحسنته سرّاً؛ فخلال الأشهر الثلاثة التي لم نلتق فيها، كان هو قد تعلم حيلاً لقتل الجوع ببيع قصص مصورة مستعملة بصنع رغايي خضراء بغمه، ولم أكن بالمقابل قد تعلمت شيئاً سوى لعب البلياردو. وجالسين على أحد مقاعد ميدان دل ثورتى، التهم الأخوان تشاكون الحمص الساخن، الذي رفضته أنا، ويحد موسى مبرة صنعا ثقبين في علبه اللبن. وبينما يمتصان اللبن من العلب، شرحا لي الخدعة: فقبل أن يترك فينيتو نفسه ليسقط على الأرض، كان يمزج قرصاً من الألوان المائية الخضراء ويضع في فمه حفنة من ماء الصودا. أما الباقي فتكفل به الصفاقة التي تدفعه إلى هذا الأمر ومواهبه البازغة كمحتال. شعرت بأنني أحمق ومخدوع، وحانق لأنني تركت مشاعري تتأثر بمثل هذه الحيلة التي اختلقها مهاجران أ미ان ومقلان، وحين رأيتهما يضحكان مني وفهما مليء بالحمص واللبن المركز، مضيت دون حتى أن أقول الوداع.

كنت أجهل حينئذ أن تمويزات وخدعاً أخرى، أقل مسالمة وغير غذائية على الإطلاق، تنتظرني عند قنوم الربيع غير بعيد عن هناك، في شارع لاس كاميلياس بصحبة الكابتن بلاي.

٤

كانت أُمي تعمل في مطابخ مستشفى سانت باو ولم تكن تاكل بالمنزل. كانت تخرج قبل أن أنهض من نومي تاركة لي الطعام معداً، أرز مسلوق على النوام تقريباً أو فاصوليا بسمك البكلاء، وأحياناً بقايا مما كانت تجلبه

من المستشفى، وفي الليل تعود بالغة الإجهاد بحيث تأوى إلى فراشها في الحال. كنا نسكن في شقة ثالثة صغيرة جداً في أعلى شارع ثردينيا، على حافة ميدان سانليهي. وحين كنت أعود إلى المنزل بعدها، حيث كنت أتأخر بعض الليالي في لعب البلياردو في بارخوينتود^(١)، كنت أوارب باب حجرة نومها وأنظر إلى الداخل، دون أن أرى شيئاً لأن الظلام دامس، لكنني كنت أبقى هناك بجوار الباب منتظراً أن أسمع شيئاً: تنفسها، جسدها وهو يتحرك بين الملاءات، لمقطعة السرير أو سعلة، أي علامة كانت تدلني على أن أمي قد عادت إلى المنزل وأنها تستريح.

قبل أيام قليلة بالضبط من وصول ناننو فوركات ومن مسألة الحفرة عهد إلي بالمهمة الدقيقة السهر على الكابتن بلاي العنيد. كانت جارتنا النونيا كونشا، زوجة الكابتن، قد اقترحت على أمي أن باستطاعتي، ما دام لا يشغلني شيء أفضل، أن أكرس الصباح لمصاحبة العجوز الأحق في جولاته في الحي.

- ستذهب معه وتعتني بالأا يقع له شيء - أمرتني أمي -.. افتح عينيك لعربات الترام والسيارات، ولهذه العصاية من المتشردين الذين يسفرون منه في الشارع. ولا يذهبين بعيداً، لا تهبطا إلى أبعد من ترابيسيرا دي جراثيا. ولا تدعه يحرق الصحف، بحق الرب، فأني حماقة هذه!

كانت السنيورة كونشا تعطي الكابتن بعض النقود من أجل أكواب الخمر، لكنها حذرتني ألا أدعه يدخل كل الحانات، بل فقط تلك التي يعرفونه فيها، وألا يدخل في مشاكل ولا في مناقشات سكارى وقبل كل شيء ألا يتكلم في السياسة مع أناس غير معروفين، ألا يطلق إحدى حماقاته ويكون

(١) الشيبية. ٠ (م)

علينا أن نبحث عنه في قسم الشرطة... أجبت كليهما، السنيورة كونيشا وأمي، قائلاً حسناً، سأصنع ما أستطيع، لكنني فكرت: من ذا الذي يستطيع أن يفلق فم العجوز المعتوه، أو أن يمضي به إلى حيث لا يريد؟

في الأيام الأولى انتابني خوف شديد. فخلال زهاء ثلاث سنوات، لم يكن الكابتن قد مشى مائة متر متواصلة في خط مستقيم ولا خرج من منزله على الإطلاق، مختبئاً بعض الأحيان في غرفة حمام صغيرة غير مستخدمة يصل إليها عن طريق بواب ملابس لا ظهر له يخفي بابها. وحين قرر أخيراً الخروج إلى الشارع كان قد خسر ثلاثين كيلوجراماً من وزنه، وحرّباً وابنين، واحترام زوجته، ووفق كل الظواهر، جزءاً كبيراً من عقله الذي كان خفياً على النوام. لم يتعرف عليه أحد من الجيران في البداية، فقد بلغ من خوفه أن خرج متخفياً في هيئة تنكرية ملفتة «لأحد المشاة صدمته عربة ترام»، وفق ما كان يروى له أن يقدم نفسه في الحانات: مجهول في طور النقااة من مستشفى المستعمرات الأجنبية المجاور في شارع لاس كاميلياس خرج لبرهة ليحرك ساقيه ويشرب كأس خمر، يأنن من الطبيب والممرضة بالطبع؛ وكان يرى السكارى الصباحيين والمشاكسين الذين يستمعون إليه متحيرين ببجامة المخططة تحت المعطف الفضفاض، وصندله الخيش ورأسه الشامخة والمحمومة المعصوبة تماماً، بيضة ضخمة من الشاش وحزم القطن المنسولة تتوجها خصلة من الشعر الأبيض النافر. وقد تخطى عن النظارة السوداء بعد ذلك بقليل، حين أصبح معروفاً في الحي وبدأت أنا أصطحبه في جولاته. وقد أخبرني الكابتن أنه خلال حبسه الطويل حلم بأنه عند خروجه سيرى مبان مهدمة تحت مطر من الرماد، وأكواماً من

الآثاث والمتاع والتوابيت، الغنيمة بعد الهزيمة وسط إعصار هائل: بروق ورعود وأبواب ونوافذ تنفتح بعنف والعاصفة تخط قطرات الدم على ورق حوائط حجرات النوم البائسة التي يمكن رؤيتها من الشارع من خلال الثقوب في الواجهات... كان لديه انطباع بأنه عاد إلى مدينة مهجورة، متروكة للوباء أو للقصف المدفعي، هذا ما قاله لي في أول يوم من أعلى الجيتارو، وهو مزروع على باب حانة ونظرت ضائعة في جبهته وذاكرته مدمرة.

جعلني مزاجي الخجول، المتخوف والمصدق لكل شيء، أبتلع في البداية كل تفانين الكابتن، كل أشكال جنونه ومبالغاته، لكنني أخذت أتعلم شيئاً فشيئاً كيف أصارع تلك الشخصية الغريبة. والآن، وفي مقابل هذه الخدمات كدليل وملاك حارس، أو ربما لأن النونيا كونشا قد أشفقت على أمي لأنها مشغولة جداً، أصبحت أكل في منزل الكابتن ثلاثة أيام في الأسبوع. كانت النونيا كونشا امرأة سميكة ومتوقدة، شفتاها غليظتان ورموشها الطويلة مطلية بالكحل، أصغر من الكابتن بكثير وذات قلب طيب. وكان الأخوان تشاكون يسمونها البتيبو^(١) Betibu. كانت تسكن مع العجوز المخبول في شقة بالطابق الأول فوق شقتنا، لكنني ظلت لوقت طويل أعتقد أنها تسكن بمفردها ولم أكن أعرف من الكابتن بلاني سوى اسمه؛ فيما يبدو، كانت البتيبو أرملة ليس لها مورد رزق سوى أعمال التنظيف التي تقوم بها في بعض البيوت وأشغال التطريز الدقيقة، التي تلقى تقديراً كبيراً بين السيدات الورعات في كنيسة لاس أنيماس والسيدات الثريات في الحي.

(١) تعريف لإسم بيتي بوپ Betty Boop . وهي من شخصيات القصص المصورة. ممثلة وذات جاذبية جنسية - م.

كذلك كانت تحيك وترفو الجوارب. وبسبب صداقة قديمة وقراية بعيدة كنت أجهلها حينذاك، كانت أمي تكن لها إعزازًا شديدًا، وعند عودتها من زياراتها لقرية أجدادي في البينينيس، ببعض البطاطس والزيت وغير ذلك من الزاد، كانت دائمًا تعد سلة صغيرة لدونيا كونشا وتبعثني بها إلى شقتها: باننجان، وطمطم، وفلفل، وخرشوف، وبنق، وقطعة سجق أحيانًا. وذات يوم، وأنا أعبث بالسلة التي كنت أصعد بها إلى البتبيو، حين حاولت الإمساك ببندقة، تعثرت يدي بسيجارتين ملفوفتين في ورقة صحيفة. يا خيرا! هل تدخن البتبيو، السجائر سرًا؟ سألت أمي، أم أن تلك المفرقات الكريهة الرائحة من أجل أحد أعزائها، الخفير، أو جامع القمامة...؟ نظرت إليّ أمي بقسوة وتفكرت في الإجابة: ما تحمله في هذه السلة هو شيء لا يجب أن يعينك، السنيورة كونشا امرأة صالحة ومنذ فقدت الكابتن وابنيها تجد نفسها في وحدة شديدة... إنها تستحق الاحترام والعون، والسجائر لها هي، نعم، فكل منا له رذيلة صغيرة.

كانت أمي تكذب وسرعان ما عرفت السبب. كنت قد ذهبت إلى منزل البتبيو عدة مرات، لكن لم أخط المدخل أبدًا ولم أعرف بعد أن المرحوم الكابتن بلادي والرجل الخفي، ذلك الشخص الغريب الذي نراه يتجول في الحي محاطًا بسرب من الصبية يصيحون فيه قائلين: «اخلع ثيابك، أيها الرجل الخفي، قلن يراك أحدا»، كانا نفس الشخص. وقد اكتشفت ذلك يوم بعثتني أمي لأعود ببعض الجوارب التي كانت الدونيا كونشا ترفوها لها ولأن هذه الأخيرة، بدل أن تجعلني أنتظر في المدخل كما تفعل دائمًا، أمرتني أن أتبعها حتى غرفة الطعام وأجلستني حتى تفرغ من الجوارب. وسط المائدة المغطاة بمفرش كان يتأرجح نصف بطيخة مفروسة في قلبها

القرمزي سكين. سألتني البتيو إن كنت أريد شقة بطبخ فقلت لا - فقد أكلت نصف البطيخة الآخر في المنزل - عندئذ تأملت دولا ب الملابس العتيق، الاسود البالغ الارتفاع، المزاح إلى زاوية غرفة الطعام. بدا وكأنه صومعة اعتراف كالحة مثل صوامع الأبرشية. وتساوت ماذا يصنع دولا ب ملابس في غرفة الطعام؛ ورغم أنني كنت متعوداً على بعض التضاربات في استخدام ووضع الأثاث المنزلي، فقد عشنا أمة وأنا لبعض الوقت في سكن مشترك، بمساحة ضيقة وعفش كثير، فإني لم أر أبداً في الحقيقة مثل هذا الدولا ب الضخم في مكان غير مناسب على هذا النحو. فكرت أنه ربما كان يُخفي بقعة رطوبة أو شقاً في الحائط، وبينما أفكر في ذلك، انفتحت، بفتة، ضلفتا الدولا ب محدثتين صريراً، وشقت يدان ناعلتان ومسودتان لنفسهما طريقاً بين المعاطف القديمة وبذلات المرحوم التي نعلتها العتة والمعلقة في الشماعات، وبخطوة واسعة، انزع الكابتن بلاي أمامي، محنياً ومتحفزاً كالنمر، ونصف سيجارة مطفاة بين شفثيه ببيجامته المخططة ومعطفه البني الطويل، منبعثاً من عالمه الآخر الذي صار محطماً ولا يمكن استعادته، عالم الابنين الميتين والمثل الضائعة، عالم الهزيمة والجنون.

- أولاد القحبة - قال بون مرارة، كأنه قد تذكر شيئاً لتوه.

٥

مطارداً على الدوام بخيالات وأصوات سأتعلم مع الوقت فك شفرة مصدرها ومغزاها، ظل الكابتن بلاي للحظة بجوار الدولا ب وظهره محني وحدقته منتبهة، متوتراً وشيطانياً، منصتاً، ربما، إلى صدى الطلقة التي تنوي على الضفة الأخرى لنهر الإبرو ويرى ابنه أوريول يسقط من جديد بين

سيقان الحصان وعلى ظهره الجريندية والبندقية، ونظارة الميدان المعلقة في رقبته تهتز.

نظر إليّ دون أن يراني. ولم تعره زوجته أدنى اهتمام، لانهماكها في رتق الجوارب. رفع الكابتن هامته بعناء وسط الضباب الكثيف الذي يتصاعد من النهر. كانت ضلفتا الدولاب العتيق، مغطاتين من الداخل بصور صغيرة مطبوعة عليها صلوات وأشعار ورعة.

- سأخرج إلى الشارع، يا كونشا - أعلن بنبرة من الخفوت بحيث بدا أنها تود مسبقاً ألا تكون مسموعة. وبينما يقلب ضمادات وقطناً مستعملات في أحد الأراج، أرفف بصوت أشد خفوتاً لكن دون حزن: - أين تظنين أنهم دفنوه؟ لم ترد زوجته ولم تنتظر حتى إليه.

- على الأقل - أرفف هو - كان بإمكانهم أن يعيدوا إلينا نظارة الميدان. فقد كانت جيدة جداً.

- Vols parlar com Deu mana, brètol?^(١) - قالت البتوي.

- لم يعد الرب يأمر، يا كونشا. الآن يأمر هؤلاء.

نظر إليّ كأنه رآني لتوه وقال: «أنت من أنت، يا ولده»، وشرع يعصب رأسه وهو يدور على عقبيه كالمغزل، وعاد ينظر إلى نفسه وملامحه تتقلص حنقاً بينما يربط ضمادة أخرى تثير الدوار بدورها، طويلة وقذرة، حول جبهته الدامية: قفز، ولا بد أن رأسه الجريح قد احتك بقماش خيمة الميدان الشبحية المنصوية بجانب النهر ثم أقع في الوقت المناسب بالضبط لرؤية أوريول وهو يسقط صريع رصاصة للمرة المليون. كان شخص ينتحب على

(١) هل تكلم بالتحدث كما يأمر الرب، أيها الاحمق، - بالقطالونية - م.

الدوام وراء ظهره وهو ممدد على نقالة، ربما كان ابنه الآخر ذو السبعة عشر عامًا الذي عاد من الإبرو مريضًا بالتيفوس. لعن الكابتن وأمره بالسكوت:

(^١)Prou, nen! Calla! -

(^٢)Què dius? - زامت زوجته.

- لا أتحدث معك - قال هو، وعاد رأسه المغموم للاصطدام بأحد حبال الخيمة عند خروجه وغوصه في الضباب - الشهر الماضي، صفرت فوق النهر طليقتان طائشتان. الأولى لأوريول والثانية لرأسي. القحبة اللعينة وصلت حتى مخي، لكنها حين دخلت لم أكن أفكر في شيء ذي بال. إذن أنا خارج لأتمشى.

هزت رأسها المستدير الخزفي المحدد بخصلات مجعدة سوداء ولامعة وزمت فمها البارز، الأشد احمرارًا من قلب البطيخة. لم تنظر إليه الآن أيضًا ومن المحتمل ألا تكون قد سمعته، فهي شديدة الصمم، لكنها تعرف أنه هناك إلى جوارها ينسج حماقة ما. من قديم لم تكن تناديه باسمه، بل بلقبه.

(^٣)Blay, ets un capde cony - قالت بلغة قطالونية مطرقة

وانتقامية - (^٤)Estas boig .

- أنا خارج، يا ملكة - أعلن الكابتن - وأعتقد أنني عند عودتي إذا مررت

(١) كلى، يا طفلي! اصمتا.

(٢) ماذا تقول؟

(٣) بلاي، أنت سخيف.

(٤) أنت مجنون.

على لاس أنيماس - ساكل قسيسًا. - لاحظ وقع كلماته على سحنتها وأردف :- إذا كان حقًا أنني بلشفي أحمر متعطش للدماء وماسوني منحط، فيجب أن أتصرف كأتني كذلك. ألا تظنين، يا حلوة؟

استمرت دونيا كونشا في تعنيفه بالقطالونية، اللغة التي ظلا يتحدثانها كلاهما دومًا. وفيما بعد، قصت علي أمي أن الكابتن، ذات يوم، منذ سنوات، بينما كان يتناقش مع زوجته، بالقطالونية بالطبع، انتابته نوبة دماغية وفجأة فقد النطق، وسقط على الأرض؛ وأنه عندما عاد إليه وعيه بعد فترة طويلة، عانى من زيف بصره والأدهى أنه بدأ يتحدث بالإسبانية دون أن يعرف هو نفسه سببًا لذلك ودون أن يستطيع تجنب ذلك، مهما حاول. ومنذ ذلك الحين أخذ يتحدث بهذه اللغة، رغم أن دونيا كونشا، سمعته أم لم تسمعه، كانت تجيب دائمًا بالقطالونية.

- Ja n'ets prou deruc, ja -^(١)

- قلت إنني خارج وسأخرج - أصر الكابتن بصوت تستطيع الآن سماعه بوضوح تام - أنا الآن أكثر نحافة، وأكثر بهدلة وأكثر قبحًا. لن يعرفني أحد. لقد تحولت إلى وبياء في خدمة موسكو، أعترف، لكن لن يلاحظني أحد في زي واحد من المشاة صدمه ترام.

- Ami em parles en català! Cantamañanas! Càpsigrany!^(٢)

زدد الكابتن معطفه بهدوء.

- إلى اللقاء، يا قطيظتي. سأعود سريعًا.

(١) لقد أصبحت حيوانًا تمامًا.

(٢) هلنثى بالقطالونية! أيها المخرف! أيها الثرثار!

(١) On vas ara, desgraciat? Ruc. més que ruc! ..

لا أدري إن كان الكابتن قد استطاع الخروج إلى الشارع ذلك اليوم،
لأنني استبقت نواياه. كانت نونيا كونشا قد فرغت من رقق الجوارب وقلبتها
على الوجه الآخر في لمح البصر بيديها السمينتين البالغتي السرعة، لفتها
وناولتها لي، فهربت جرياً.

٦

في أواسط مارس نقل الأخوان تشاكون منصة بيع التقاويم المفككة
وروايات الغرب الأمريكي الممزقة إلى ناصية شارع لاس كاميلياس^(٢)،
بجوار سور حديقة سوسانا فرانكس، التي مضى عليها عام ونصف طريحة
الفراش بمرض السل. كانت سوسانا في الخامسة عشرة وكانت ابنة كيم.
كنا قد تعاملنا معها قليلاً، كنا نعرف أنها تردت لبعض الوقت على كنيسة
لاس أنيماس وصاقت فتيات دار العائلة، وحين عرفنا أنها تقيأت دماً عدة
مرات وأنها مصبورة، لم نستطع أن نصدق: هي بالذات، التي بدت فتاة
موفورة الصحة والمرح، والتي تسكن في ذلك البرج البديع ذي الحديقة،
وبكل النقود التي قيل إن أباهما يملكها. لكن أمها، وفق ما تقول نونيا كونشا،
حين بقيت وحيدة مع الطفلة تدهورت من سيء إلى أسوأ واضطرت لبيع
مجوهراتها والنزول إلى العمل؛ والآن تعمل في نوبات المساء كبائعة تذاكر
في سينما موندريال في شارع سالميرون، ولكي توازن أجراً هزياً كانت

(١) إلى أين تذهب، أيها التعس؟ حمار، أكثر من حمار.

(٢) يعني إسم الشارع . زهرات الكاميليا.

أيضاً تقوم بعمل تطريز دقيق بتكليف من زوجة الكابتن. ورغم ذلك كانت تمر بها أوقات ضيق، خصوصاً الآن مع الطفلة المصدورة؛ قيل إن زوجها لم يعد يرسل إليها نقوداً من فرنسا، وأنها بالتأكيد لا تتخرج من قبول نوع معين من المساعدات الصغيرة من الرجال... هذه الشائعات حول مغازلاتها الغرامية كانت تغضب البتيوي. التي لن تفلت أبداً هي الأخرى من النعيمة، التي كانت تصر يوماً على أن هذه الشائعات ليست سوى أقاويل لا أساس لها تطلقها أربع نساء ورعات من الأبرشية.

كانت سوسانا تقضي النهار في الفراش في القاعة الجانبية نصف الدائرية المفتوحة على الحديقة، والتي بدا أنها أكثر غرف البرج بهجة وتعرضاً للشمس؛ ومن الشارع كان يمكن رؤيتها مستلقية بين وسائد كثيرة تحوطها أبخرة عطرية ترطب الجو وتغيبش الزجاج، بقميص نومها البنفسجي أو الوردي وشعرها الأسود مفكوك على كتفيها، تتسلى بتلوين أظافرها بطلاء لؤلؤي أو أحمر بلون الكريز وتقرأ المجلات، وغالباً ما تستمع إلى الراديو وتقص بمقص إعلانات الأفلام من الصحف. وفي ركن من القاعة كان البخار يتصاعد على اللوام من قدر به ماء وكافور فوق مدفأة حديدية ضخمة تشتعل بالفحم، وتتصاعد ماسورتها المتلوية، مثل شخبطة سوداء شريرة، حتى تكاد تلمس السقف ثم تنفذ إلى الخارج من خلال ثقب تام الاستدارة مثقوب في الزجاج.

ويُخت الأخوين تشاكون على اختيارهما لناعية لاس كاميلياس هذه للتجسس على سوسانا في الفراش، فقال فينيتو من تظنني، يا فتى، لا شيء من هذا، ألا تدري أن المسكينة ستموت قريباً؟ كذلك لم يختار الموقع لأنه

هو وأخيه يتوقعون وصول أبيها، كيم، ذات يوم، بل لسبب أقل إثارة لكنه أشد إلحاحًا: ببساطة لكي يكونا على مقربة من سوق الباعة الجائلين المقام في نفس الشارع، أبعد قليلاً من برج سوسانا على الرصيف المقابل، مستنداً على الجدار الطويل لملاعب كرة أوروبا. وعلى مقربة تقع مدرسة وإذا كان الأطفال يعرفون من هناك، كما أن الأخوين كانا يتناوبان التجوال بين حين وآخر بين منصات بيع الفاكهة والخضروات فربما نالا أحد الأعمال الصغيرة، حمل الصناديق أو تنظيف مساحة المهملات أو القيام بمهمة. وإذا لم يصادفها شيئاً، ألقى فينيتو نفسه على الأرض فريسة لإحدى نويات صرعه الرائعة. كان يفعلها بطريقة مقنعة لدرجة أنني، رغم معرفتي بالحيلة، كانت رؤية اختلاجاته وارتعاشاته وتقلصات، بعيني الغريق والرغبة الخضراء في الفم، تسبب لي فزعاً شديداً. كان ثمة مكان زلاوية على ناصية شارع ثريدينيا ودائماً ما كان يجد روحاً محسنة تشتري للبندوي البائس كيساً من الكعك، كما كان يجد دائماً إحدى بائعات السوق لتعطيه تفاحتين أو موزتين.

من منصتهما بجوار السور، أقام خوان وفينيتو مع الطفلة المريضة علاقة صامتة وودودة، شفرة مرحة من الإشارات والعلامات، ودائماً ما كانا يقرضانها قصصاً مصورة وروايات صغيرة ويزودانها بالكافور من أجل القدر. وعادة ما كانت أم سوسانا تظهر في الحديقة لتبعث أحدهما إلى السوق لشراء فاكهة، أو إلى الفحام أو الخباز، وحين كانت تعضي في العصر إلى السينما كانت تطلب منهما أن ينتبها حتى لا يدخل إلى الحديقة أحد. كنت أتوقف بعض المرات لأتصفح الروايات عند المنصة واستطعت

أن أرى سوسانا تنهض من الفراش وتحبى حارسيها من وراء الزجاج وهي
تلوح بيدها وعلى قمها ابتسامة حزينة.

وذاذ مساء كئيب مررت فيه من شارع لاس كاميلياس حين كان
الأخوان تشاكون قد ذهبوا، هارين بالتكيد من قسوة البرد والشبورة التي
غزت الشوارع ومحت خطوط الحديقة والبرج، خيل لي أنني أرى بقعة وردية
تدور كالمغزل خلف الزجاج، بجوار الفراش، كانت هي الصبية المصدورة
ترقص محتضنة الوسادة. جرى ذلك للحظة، وسرعان ما تهاوت على ظهرها
فوق الفراش، ثم نهضت ورأيت يدها بوضوح تمسح البخار عن الزجاج ثم
وجهها الملتصق به، شاحبًا ونائيًا، ناظرة إليّ وكأنها تطفو داخل فقاعة.
لكنني أظن أنها لم ترني، لأنني لوحت لها بيدي فلم ترد التحية، ولم يتأخر
جو الفقاعة الدافئ في تضبيب الزجاج من جديد حتى محا وجهها.

الفصل الثانی

١

قبل الجنون التام للكابتن بلاي بوقت قصير، طلب مني أن أذهب لأرسم بأقلامي الملونة سوسانا وهي مصدرة في فراش المرضى. كان بحاجة إلى رسم تلك الطفلة المريضة لأمر في غاية الأهمية. وقد تحدث مع والدتها، السنيورة أنيتا، وقال إنها موافقة.

- يمكنك رسمها دون أن تضطر للذهاب، من الذاكرة، إذا كنت تخشى العنوى، لكن لن يخرج الرسم جيداً.

- لا أعرف الرسم من الذاكرة - قلت.

- إذن يجب أن تذهب في أسرع وقت. أظنها ستموت عن قريب.

مضى الكابتن متوتراً جداً ذلك اليوم، برأسه المعصوب والمعطف المفتوح الذي يظهر البيجاما. قادني إلى دكان ورق بشارع برويدينثيا، واشترى لي ستة أفرخ من ورق الرسم وشرح لي فيم يحتاج الرسم. كان قد قرر أن يركز كل جهده في جمع التوقيعات من الجيران لوثيقة كان يكتبها ويفكر في تقديمها إلى البلدية للإبلاغ عن التسرب الإجرامي للغاز في ميدان روبيرا الذي يهدد بتسميمنا جميعاً، والذي أخذ يقتل مرضى الصدر مثل

سوسانا المسكينة... لكن علاوة على تلك الرائحة الكريهة السامة، التي بدا أن أكثر الناس خوفاً وعمي قد تعوبوا عليها، ثمة رائحة أخرى لا تقل انحطاطاً وخبثاً: هي مدخنة مصنع البلكسيجلاس والسيلولاويد. كانت مدخنة من الطوب الأحمر لا يبلغ ارتفاعها الحد الأدنى الذي يقضي به القانون، كما قال الكابتن، وتطلق ليل نهار دخاناً أسود خانقاً لا يمكنه الارتفاع ويصيب الحي كله بالهباب. وقد تعب من إرسال أكوام من الرسائل إلى مدير مصنع بولس شـم. طالباً زيادة طول المدخنة، دون أن يتلقى أي رد، وهكذا عقد الآن العزم على الانتقال إلى الهجوم: سيجمع توقيعات من المواطنين ليس فقط لمحاربة رائحة الغاز، بل ضد المدخنة كذلك. قال إنها يجب أن تكون رسالة شجب قاطعة وساحقة، مزودة بخمسمائة توقيع على الأقل. وقد حصل على توقيع سوسانا وأمها. وأضاف الكابتن أن توقيع الطفلة كان بالغ الأهمية ويعد شهادة من الطراز الأول، لأن التعسة رثتها مدمرة وتحتاج إلى الهواء النقي، وهذا الدخان الخانق يفاقم مرضها.

كنت أعرف جيداً المدخنة والفناء الخلفي لمصنع بولس، فقد قفزت مع فينيتو وأخيه سور المخزن مرات عديدة لتلتقط من الأرض قطعاً من أحزمة البلكسيجلاس تبدو كتعايين ملوثة، وأسماعاً وبطاً من السيلولاويد وكرات بنج بونج بها عيب من عيوب التصنيع. لكن كان قد مضى على ذلك ثلاث سنوات أو أربع.

- وفضلاً عن البلاغ المكتوب - أصر الكابتن -، أريد أن أقدم لحقراء البلدية هؤلاء شيئاً آخر، وهنا يمكنك المساعدة. قالت لي أمك إنك ترسم جيداً جداً... وكما تعرف ترتفع المدخنة خلف حديقة هذه الصبية المريضة

المسكينة، وحين تستيقظ، كل صباح، تلقى عليها نفحة من الخراء الأسود تحية الصباح.

وقد فكرت أنه، بالإضافة إلى التوقيعات، وإعطاء الموضوع قوة أكبر، فإن رسمًا جيدًا لسوسانيتا^(١) وهي تحتضر في الفراش ويقربها المدخنة تنفث فيها هذا الدخان السام سيكون أبلغ من كل الكلمات...

- مرحى، يا كابتن! منذا الذي يحتضر هنا؟

- لنر إن كنت تفهمني، يا فنان. يجب أن نتصرف بدهاء! ارسم لي الطفلة المصدورة شديدة الشحوب والهزال، بالغة الحزن، بجبهتها تلك التي تبدو من الخرف، مطروحة في الفراش وعيناها مقلقتان ويدها على صدرها، تتنفس بصعوبة، هكذا، انظر...

- وهل رأيتها؟ - قلت.

- بالأمس زرتها مع زوجتي.

- ألا زالت تتقيًا دمًا؟

- لم تفعل أُمامي.

- تقول دنيا كونشا أنها تداويها بزهرة البيلسان، تدعك بها صدرها

وظهرها.

- كذبة عفنة. زهرة البيلسان المغلية في الماء لا تشفى سوى نويات الزكام لدى القساوسة والمخنثين، هذا أمر معروف. ولا تقاطعني، لأن التكليف الذي أعهد به إليك بالغ الأهمية - زام الكابتن وهو يعبر شارع مارتني - تذكر: يجب أن يكون رسمًا مؤثرًا، يثير البكاء. ويجب أن يظهر

(١) سوسانيتا هي صيغة التثنية لسوسانا - م.

الدخان الخطر طافياً فوق المريضة في فراش الموت، مثل سحابة سوداء وقاتلة، وأن تظهر المدخنة حمراء مثل خطر غير معهود ووحشي، مثل لعنة...

- وهل تتركني سوسانا أرسمها؟

- قالت لي أمها إنها قد أقنعتها تقريباً - أخرج الكابتن من جيب معطفه سيجارة معوجة - غداً صباحاً ستذهب إلى منزلها من طرفي ويمكنك أن تبدأ في الحال. وقل لي إذا احتجت إلى مزيد من الورق. أعتقد أن لديك أقلاماً ملونة.

- هل تريده بالألوان؟

- طبعاً. متى ينتهي؟

- هيه، لا أدري. أنا بطيء جداً، فالأمر يجهدني.

- ما دام الرسم سيكون جيداً.. هيا، يا فتى، تشجع! لنر إن كنت

ستبدع! سندمر أوليجيا ركيي الدخان السام والغاز القاتل هؤلاء!

في البيدان جلس للحظة على مقعد حجري وقسم السيجارة إلى قسمين بشفرة مبراة. احتفظ بالنصف وأشعل النصف الآخر بعود ثقاب، حامياً اللهب بيديه المعروقتين ومعطياً ظهره لرصيف تسرب الغاز. «من باب الاحتياط»، غمغم. كانت الضمادات ذات الخيط الأحمر التي تلف رأسه قذرة؛ فلم يغيرها منذ أسبوعين على الأقل، وربما كان ينام بها. وبالمقابل كانت القفازات الجلدية بلون التبغ ذات التطريز الأبيض في حافتها، والتي كان يحملها اليوم مشبوكة بحزام المعطف، تلمع لا تشويها شائبة. وسرعان ما نهض الكابتن عن المقعد وبدأ أنه فقد اتجاهه. ومع كل الوقت الذي قضاه متخفياً في هيئة واحد مجهول من المشاة صدمه ترام، خطر لي أنه ربما يكون قد نسي ملامح وجهه هو.

- هيا بنا إلى المنزل لنبري الأقلام - اقترح - أسرع!
- ألم تكن حضرتك تريد الذهاب إلى البار؟
- شيء آخر: غداً، حين تذهب إلى البرج، احمل إلى سوسانا بعض
رسومك لترى أنك فنان. هيا أسرع، فأمامنا الكثير لنفعله!
لم أنم تلك الليلة مفكراً في الصبية المصدورة وهاجمتني كل أنواع
المخاوف والمخاضير. سمعت سعالها العميق المتعفن بالميكروبات ورأيتها
تبصق بقوة لعاباً وردياً في المنديل، منديل جميل من الباتستا^(١) أخفته تحت
الوسادة على الفور. وقد أصبحت عند الفجر وأنا أطفو في نوم متقطع، بقوة
ودقة لم أحظ بها من قبل في حلوساتي الشبقية، تخيلت كذلك، ثدييها
الأبيضين مثل الجليد بين الملاءات البيضاء وفخذيها المحمومين بلون
الحليب تغطيهما طبقة رقيقة من العرق وهما يتحركان قلقين في المنام.

٢

في صباح اليوم التالي توجهت إلى شارع لاس كاميلياس وتحت إبطي
حافظة الرسوم. ومن مجرد التفكير في المسلوقة أحسست بأثني منهار
ومحموم وكأني لا أجد الهواء الذي أتنفسه، كأن العنوى قد أصابتني فعلاً
بصورة غامضة. وعلى البعد، فوق برج سوسانا، لم يكن دخان المدخنة
الذي يكرهه بلاي كثيراً يصعد مباشرة إلى السماء، بل يتساقط كأنه لعاب
أسود حول فوهتها ويظل معلقاً لبرهة طويلة في فقاقيع منغرة قبل أن يتناثر
ويسقط فوق الأسطح والحدائق القريبة.

(١) قماش قطني أو كتاني رقيق - م.

وجدت الأخوين تشاكون يعرضان بضاعتها المعزقة فوق الرصيف، بجوار سور حديقة سوسانا، وتوقفت لبرهة أتصفح روايات إيجار والاس في مجموعة اللغز. كان ثلاثة أطفال يقلبون كومة القصص المصورة المستهلكة. كان سوق الباعة الجائلين على بعد أقل من خمسين متراً وكانت بعض النساء اللاتي يأتين للتسوق مع صغارهن يتركن هؤلاء عند المنصة ليتسلون بالتطلع. وعبر الحديقة رأيت سوسانا خلف زجاج القاعة، مستلقية على الفراش وعلى كتفها شال أزرق. كانت عينها مغمضة ورأسها ملقى إلى الوراء، لكنها لم تكن نائمة ولم يبدو أنها تتألم لأنها كانت تحرك ذراعها اليمنى إيقاعياً، كأنها تتابع إيقاع موسيقى، من الراديو بالتاكيد.

أعلنت لفينيتو وخوان أنني سأرسم صورة لسوسانا بتكليف من الكابتن، وفي البداية لم يريد أن يصدق ثم شعرا أنهما غيوران وشبه متآلمين. أبركت إلى أي درجة كان الأخوان يعتبران أنفسهما حارسين نون سواهما للطفلة المريضة ومسؤولين عن كل ما يمكن أن يحدث للحديقة والبرج.

- حسناً. لكن الحذر الحذر، يا فتى - حذرنى فينيتو.. إذا رأيت أنها تعبت، أو إذا صارت حزينة فجأة، كأنها سارحة، الله أعلم بما تفكر فيه، يجب أن تذهب على الفور - وأخرج من جيبه نصف دسته من دبابيس الشعر - أعطها هذا من طرفي. وهذا التقويم لريب كيربي Rip Kirby الذي يبدو جديداً بريطته.

- هل رأيتها عن قرب، هل دخلت عندها؟ - سألت.

- أحيانًا. حين تكون وحيدة.

شرح لي فينيتو أن أم سوسانا تخرج من المنزل كل عصر، بما في ذلك أيام الأحاد والعطلات، في الثالثة والنصف لتتحق بالعمل ولا تعود حتى الثامنة على الأقل؛ ودائمًا ما ترجوهما من فضلهما لو جاء أحد أن يترك معهما رسالة. كانت السنيورة أنيتا تود أن تنهض ابنتها من الفراش أقل ما يمكن. والمرة الأولى التي فتحت لهما فيها سوسانا باب القاعة المؤدي إلى الحديقة كانت لأنها هي قد ناستهما؛ كانت المدفأة قد انطفأت، وكان يجب إحضار فحم من الكرار وهو ما فعلاه. وأحيانًا كانا يذهبان لأنها تطلب منهما شيئًا تقرأه أو كاهورًا للقدر الذي يغلي فوق المدفأة، لأن أزهار إحدى المزهريات تصيبها بالبور أو لأنها ببساطة سئمت البقاء وحيدة.

- عليك إذن أن تتصرف بأدب مع سوسانيتا وإلا دفعت الثمن غاليًا - اختتم فينيتو كلامه فاتحًا لي البوابة ومفسحًا لي الطريق -.. تستطيع أن تدخل، يا أحمق.

وبينما أدخل مخترفًا الحديقة الصغيرة المهمة، حيث تتكاسل خمائل الدفلي في ظل الصفصافة وتتعفن أركان السوسن الرطبة لافتقارها إلى الشمس، تساطت كيف اكتسب هذان المهاجران الميتان جوعًا تلك السلطة الغريبة عند الحديث عن المصدرة. وقلت لنفسني مرة أخرى أنه، رغم انقضاء أربعة أشهر بالكاد على الأيام الملوثة بالغاز التي تعودنا الاجتماع خلالها في بار كومولادا أو في بلياردو بار الخوينتود، بدا وكأن أعوامًا قد مضت.

إستقبلتني السنيورة أنيتا مرتدية ثوبًا منزليًا من الحرير الفستقي
 موسى بالحرير لم يعد قشيبًا ولا زاهيًا، وعلى كتفها قوطة وفي يدها قدح
 من النبيذ. كانت من إحدى قرى الميريا^(١) سمعت اسمها لأول مرة على
 لسان الكابتن بلاي: كوياس دي إلمثورا^(٢). أبقت الباب مفتوحًا ونظرت
 إليّ وشروء خفيف في عينيها الجميلتين السماويتين اللتين يكسوهما حزن
 ما. كانت في الثامنة والثلاثين تقريبًا، شعرها أشقر مجعد ومنكوش،
 وجسدها ضئيل وممتلئ بالحوية وحدقاتها هما أشد ما رأيت في حياتي
 زرقًا. كان وجهها المتعب، بالجفنين الثقيلين والفم غير الملون، يعكس عنوبة
 خاملة ومُهانة.

- جئت من طرف الكابتن بلاي - قلت - من أجل الرسم...
 نظرت إليّ برهة وكأنها لا تفهم. ثم ابتسمت:
 - آه، حقًا. ادخل. لكن يبدو لي أن سوسانا لم تحزم أمرها بعد. ابنتي
 هذه مجنونة بعض الشيء، أتعرف؟
 - إذا شئت حضرتك عدتُ في يوم آخر.
 - لا، لا، ادخل. - جذبتني من ذراعي وأغلقت الباب... لا تقل للمسكين
 بلاي، لكن الحقيقة أن ما يقترحه يبدو لي حماقة كبرى... لكن حسنًا،
 سيكون هذا تسليّة للطفلة، ستكون لديها صحبة في الأصيل، حين لا أكون
 أنا موجودة. ما اسمك، يا أمور؟

(١) إقليم في جنوب شرقى إسبانيا - م.

(٢) يعنى الاسم: كهوف المنصورة - م.

- دانييل.

- دانييل، يا له من اسم جميل. لو كانت سوسانا ولدًا لسميتها هذا الاسم... دانييل والأسود. دائمًا ما أعجبني هذا الاسم. حسنًا، وأصل هذا العمر حتى غرفة الطعام، القاعة على اليسار - وأردفت رافعة صوتها وموجهة له تجاه عمق العمر - يا حبيبتي، إنه الولد الذي سيقوم بالرسم! لم تصدر إجابة فلم أتحرك. وتوقفت موسيقى الراديو.

- هيا، تعال - تعلق السنيور أنيتا في ذراعي وقادنتي - ولا تعرها اهتمامًا إذا كشرت لك. لقد كانت تنتظرك في الحقيقة.

صحبتي لبعض المسافة، حتى عتبة غرفة نوم افترض أنها غرفتها، وشجعنتني بابتسامة على المضي وحدي نحو القاعة. من الداخل، لم يكن البرج بالضخامة التي يبدو بها من الخارج. لكن في هذه الزيارة الأولى، أربكني العمر الخافت الضوم: بدا بلا نهاية، طويلًا بحيث بعث في إحساسًا غريبًا، وأنا أتقدم خلاله، بأنني أتخطى حدود البرج وأدخل في مجال آخر. سرت تحت سقف مرتفع به نقوش جصية متآكلة وكانت على الجدران لوحات قديمة في أطر فنية، ومرايا حدائثية بها سحب مصمتة وفي كل مكان تماثيل من المرمر والخزف على قواعد، بعضها مكسور الرأس يتجمع عليه التراب؛ التقطت رائحة الأثاث الزنخة وتذكرت أن والدي سوسانا كانا ثريين. كان الأثاث الماهوجني الثقيل يبدو كأشكال ضخمة قبيحة لا يمكن تحريكها؛ حائقة وخطرة على نحو ما؛ بدا أنهم الشهود الصامتون على مأساة حدثت هنا منذ سنين، ولم تغلب عليها بعد لاسوسانا ولا أمها. كذلك كانت تصل إلي، كلما اقتربت من القاعة، رائحة الكافور والرطوبة الدافئة

والمرضية للجو: كثافة في الهواء ورائحة لم أكن قد تنفستها في أي منزل أحدثت فيّ مزيجاً من الإثارة والتوجس. قررت البقاء على مسافة معقولة من فراش المريضة. وعند عبوري غرفة الطعام رأيت بمجانة^(١) خمر منزوعة السداة فوق المائدة، وعلى الفور، حين أطلتُ برأسي على القاعة، سمعت صوتها:

- ادخل بسرعة، يا رجل، قبل أن تأتي ماما!

كان البخار يتصاعد من القدر الموضوع فوق المدفأة والشمس الشاحبة تنفذ إلى القاعة كأنها تنفذ إلى حوض سمك، وتغمر السرير المعنني الصغير المزاح إلى جوار الحائط والمنضدة الليلية الصغيرة وعليها جهاز راديو عتيق. وفي الطرف الآخر كان هناك منضدة منخفضة، وكريسيين وكريسي هزان أبيض. وفوق الكريسي المتعصب والمستند إلى الحائط، كان ثمة وسادة بها تطريز لم يكتمل.

أدهشني أن أجد الصبية المصدورة جالسة على حافة الفراش وظهرها شديد الانتصاب، والساق على الساق وقميص النوم مرفوع حتى ركبتيها، حافية وفي شعرها زهرة مرجريت قماشية، نراعاها على كفلها والشال على كتفيها. حافظت على وضعها بجهد ونظرت إلي بعينين واثقة ومتحدية، كأنها تطلب موافقتي. لم أستطع حينها أن أتبين أن هذا الوضع المتكلف وهذه الفتنة المرتجلة كانا نتيجة ساعات من التأمل والتريبات أمام المرأة: كانت تعرض نفسها على هذا النحو لأنها قد قررت أن أرسمها هكذا، أمّا هذه

(١) وماء خمر كبير تُصب منه الخمر في غيره من الأوعية. ويحتفظ في الإسبانية باسمه العربي القديم: القرافة Garrafa - م.

الهالة من التوق التي يبعثها تعبيرها، وهذه الرغبة اليانسة في أن تكون موضوع إعجاب، والنبض الحيواني الذي يطفو حول شفيتها الشاحبتين اليابستين وفي الفتحيتين الدقيقتين لأنفها فقد كانت من القوة والمباشرة بحيث بدت لي أنها أجمل من رأيت من الفتيات على الإطلاق. كان شعرها الأسود يحدد جبهة شفافة، تلمع بالعرق، وتلمع على خديها دوائر وردية صغيرة بتأثير القرص، كما سأعرف عن قريب. وكانت شفيتها العليا محددة الخطوط تمامًا وممتلئة وبارزة نحو الأنف، مما جعلها تبدو أسمك وأكثر امتلاءً من الشفة السفلى وجعل فيها يكتسب طابعًا غاضبًا، وطفوليًا، ومقلقًا في أن واحد. لم تُبد محجرين ولا وجنتين غائرتين ولا صدر هضيم، ولم تكن بالغة الشحوب ولا تتنفس وفيها مفتوح ولا شيء من هذا؛ لم تكن تشبه مطلقًا تلك الصبية المصدورة التي تخيلتها والتي فود رؤيتها، بمجرد التنفس بجوارها، كان يمكن أن تعطيني بأخلاقها المسمومة وبأحلام الغيبوبة المحمومة بالموت. وبجوارها، على الفراش، كانت هناك صور مقصومة من مجلات وصحف، ومقص، وقنينة ماء كولونيا، وأوراق لعب وقط أسود من القماش بعينين خضراوين من الزجاج، كانت المريضة تسند يدها على رأسه.

- أنا أعرفك - قالت. - اسمك دانييل.

- نعم.

- أنت الصبي الذي اكتشف تسريًا ضخمًا للغاز في ميدان روبيرا.

- لقد اكتشفه الكابتن بلاي.

- وتسكن في شارع ثرينيا.

- نعم.

- وليس لك أب - خفضت صوتها وأردفت: صحيح؟ كان يعيش في صوتها نعاس يختلط على فترات ببقعة بلغم تشتبك بحبالها الصوتية؛ فكرت أنها لا بد أن لديها حمى مرتفعة، وأن صوتها ينقل على نحو ما تلك الحمى وذلك البلغم الملوث.

- أحقاً ليس لك أب؟ - عاودت القول.

- لا أدري.

- لا تدري إن كان لك أب أم لا؟ حسناً يا صبي، أنت على ما يرام! هل أنت أحمق أم ماذا؟

لاحظت أظافرها الممتنى بها، ملونة بطلاء أحمر بلون الكريز.

- لم يعد أبداً من الحرب - قلت - لكننا لا ندري إن كانوا قد قتلوه، لا أحد يدري. قد يكون حياً في مكان لا ندريه، وذاكرته تائهة أو مصابة إصابة قاتلة، أعني، نون أن يتذكر عائلته أو أي شيء، ونون أن يعرف كيف يعود إلى المنزل... وهكذا لا يمكنني القول أنني ليس لي أب.

نظرت إليّ سوسانا بفضول ثم قالت :

- إذن كائنك ليس لك أب. مثلي تماماً. - أخرجت منديلها من تحت المائدة، بللته بماء الكواوتيا من القنينة التي كانت في متناول يدها وبللت جانبي جبهتها وعنقها. كان المنديل أبيض بياضاً لا تشويه شائبة. نظرت إليّ الآن بشك وأردفت: أنت غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟

- أنا؟ لماذا؟ هرزت كتفي.

بدا أنها تفكر، نون أن ترفع عينها عني. ثم تكلمت غاضبة:

- ألم يقولوا لك إنتي مريضة جداً وإنك لا يجب أن تقترب مني كثيراً، يا غلام؟

- بلى.

- وتعرف أي مرض لدي؟

تأخرت قليلاً في الإجابة:

- رثتاك مريضتان.

- لا يا سيدي. الرثتان لا. الرثة. واحدة فقط. أتكري أيهما؟

- لا.

- اليسرى.

ظلت صامئة برهة نون أن تكف عن تلحس وجهي. كان في نظرتها خبث متكلف وتوتر إرادي يفرض نفسه على الحمى وعلى استنزافات الدم بلغ في مرات عديدة، على طول علاقتنا، درجة أن يقلقني أكثر من فكرة العدوى ذاتها. وسرعان ما بدت باللغة الإجهاد، فأغلقت عينيها وتنفست ببطء وحذر، كأنها تخشى أن تتألم. حينئذ قلت:

- أعطاني فينيتو هذا من أجلك.. وأعطيتها دبايس الشعر وتقويم ريب كيريبي، الذي لم تعره نظرة واحدة. اختارت دبوسين للشعر وبينما تشبكهما في شعرها، ضامة شعرها على قفاها وأذنيها الشاحبتين، لاحظت فوق المنضدة الليلية الصغيرة صورة أبيها في إطار فضي: كيم في معطف فاتح مرفوع للياقة، بزاوية تظهر ثلاثة أرباع الوجه، وحافة القبعة تخفي إحدى عينيها وابتسامته مائلة. وفي عينيها الداكنتين يكمن ضوء هازئ، هو شرارة المغامرة.

- أحقًا أنك تعرف الرسم؟ - قالت سوسانا.
- قليلًا.

فتحت الحافظة وأريتها الرسومات التي انتقيتها، واحدًا لشجرة لوز مزهرة، غيمة وريدية نسختها عن الطبيعة في باش باناديس Baix Penedès، واثنان لحديقة جويل كنت أحبهما جدًا بسبب ألوانهما الزاهية؛ واحد للتين الخزفي عند السلم والآخر للمقعد المتموج في الميدان وفي الخلفية سيلويت برشلونة. لم تحمستها الرسوم، فأريتها لوحة أحضرتها من باب الاحتياط: جين تيرني Gene Tierney ترتدي ثوبًا أخضر محبوبًا تمامًا جالسة فوق منصة كازينو، موحية ومنكوشة الشعر، وبخان السجارة يتلوى صاعدًا إلى وجهها. كنت قد نسختها من قصاصة إعلان فيلم وكان الرسم عاديًا، ليس له ميزة، ولم يكن حتى يشبه الأصل كثيرًا، لكنه أكثر ما أعجبها.

- هذا جيد جدًا. ما أجملها. - أعادت إلي الحافظة، ونزعت دبابيس الشعر وأرخت شعرها من جديد، باعدت ركبتيها ثم عادت فوضعتها الواحدة فوق الأخرى وأضافت خافضة صوتها: ألا زالت ماما في الحمام؟
- لا أعرف.

- يجب أن نسرع. لأنها إذا رأتنى خارج الفراش ستنزعم. - بللت شفتيها بلسانها، وعضتتهما، وقرصت خديها. - الآن أنظر. كيف تجدني؟
لم أدر بم أجيب. فقد بدت شبيهة بدمية. أصررت:
- أهل أنا تمام هكذا؟
- لا أفهمك.

.. كما أنا الآن، جالسة على الفراش. أريد أن ترسمني، هكذا، كما كنتي قد شفيت وعلى وشك الخروج إلى الشارع، وجناتي ملونتان وألبس حذاء وفستانًا أخضر لا أستطيع حتى الآن أن أرتديه لكنتي سأريه لك يومًا. لا أفيص نهم ولا شال من الصوف، لا شيء مما تراه. ويجب أن يكون في يدي شيء... مرآة، أو حقيبة بديعة الجمال أهداها إلي بابا. ما رأيك، أتعرف كيف ترسمني هكذا؟ قلت لها إن هذا ليس ما اتفقت عليه مع الكابتن بلادي وإن التعليمات التي لدي تقضي بأن أرسعها ممددة في الفراش، شديدة الشحوب تستنشق الدخان السام لمدخنة المصنع...

- بمحجرين غائرين ووجه ممصوس ومرعب، يا سلام! - قاطعتني غاضبة مرة أخرى - مصدورة مسكينة على وشك أن تموت. لا!.. - ولا هذا - قلت لكي أشجعها -: إنك تبدين وقد شفيت تقريبًا. تبدين رائعة، مرحى. لكن الكابتن يريد أن تظهر في الرسم بصورة أخرى... - أعرف تمامًا ما يريده العجوز المافون!

كانت متضايقه جدًا وتخلت عن الوضع المدروس، ظنت أنها سمعت خطوات أمها فوضعت نفسها بعجلة في الفراش، وظهرها يستند على الوسائد وجذبت العلامات واللحاف السماوي حتى صدرها. لكن أمها لم تظهر. - حسنًا لا أريدك أن ترسمني هكذا - أردفت دون أن تنظر إلي - طريحة الفراش أسعل مثل حمقاء. لا.

- حسنًا، يمكنك أن تستلقي فوقه، كأنك تستريحين... وإن أرسمك باللغة الشحوب، هيا، أقل ما يمكن. ويمكن أن تضعي زهرة في شعرك، إذا أردت. لو كان الرسم لك، لصنعت كما تحبين.

حركت سوسانا رأسها ببطء ونظرت إلي بفضول.

- أنا لا أريده لي - وفكرت ليضع ثوان وعابوت الابتهاج - حسناً ،
سنصنع شيئاً . سأدعك ترسمني من أجل الكابتن هكذا ، مثل طفلة حمقاء
محاطة بالأنوية ؛ لكن بشرط : أن تصنع لي رسماً آخر في الوضع الذي
أقوله لك ، مرتدية ومصفقة الشعر على النحو الذي أقوله لك ، بالألوان ويأجل
ما يكون . صورة فتاة أكثر مرحاً وأشد جمالاً ، صورة يجب أن تظهر فيها
مثلاً ساكون خلال وقت قصير ، خلال شهور قليلة...

- وسيكون الرسم من أجل الكابتن جميلاً هو الآخر ، ستريين .

- ذلك لا يهمني - . أمسكت بالقط القماشى وضمتة إلى صدرها - .
يمكنك أن ترسمني قبيحة وسقيمة بسحنة بيضاء مثل الشمع وعينين تلوئهما
الحمى ، وحتى وأنا أبصق دماً ، فالأمر سواء بالنسبة لي . لكن الرسم الآخر
يهمني حقاً ، لأنني أود أن أرسله إلى أبي ولا أريد أن يراني مريضة ومرعبة .
هل تفهم ؟

- نعم .

- سيكون هدية مفاجئة له ، هل تفهم ؟

- أيوه . أيوه .

- إذن ، هل تصنعها ؟

- أرجو أن يخرج من يدي جيداً ...

- طبعاً ! سيكون رائعاً !

- وهل نضع في الخلفية كذلك المدخنة والدخان الذي يسمعك ، مثلاً

في الرسم من أجل الكابتن بلاني ؟

هزت كتفها.

- الأمر سواء بالنسبة لي. لا علاقة له بي ولا يمكنه أن يؤثر في، لا ذلك الدخان المقرف ولا رائحة الغاز ولا أي شيء مما يجري هناك... لا شيء.
- لماذا تقولين ذلك؟

حدثت عينها اللامعتان النظر في، لكن بدا أنهما لا ترياني.
- لأنني قريبًا جدًا سامضي بعيدًا عن هنا - قالت بابتسامة خبيثة -
هذا هو السبب، يا غلام.

٤

الرسم الذي كان يجب أن يكون مؤثرًا بشكل متحيز والذي يجب أن ينقذ بطريقة سحرية الطفلة المسلوطة والحي بأكمله من موت بطيء ومحقق، بدأت شديدة الحماس عصر يوم اثنين، ولم يخرج مني شيء جيد في ذلك اليوم. ولا ملمح واحد كان في موضعه، رغم إعادته مرة وألف مرة. نظرت مليًا إلى المريضة وأنا أزرع عيني لأقيس وألتقط التألف المنهار لجسدها الهش الممدد على نحو غريب بين الوسائد وأبخرة الكافور - وساخرة من إخراجي المصطنع، سرعان ما أخذت هي تتلوى وتبالغ في اتخاذ وضع على غرار غادة الكاميليا وهي تحتضر منهكة ونصف جسدها وإحدى ساقها متدليان خارج الفراش - لكن ما كان يخرج من القلم كان تعيسًا. وحتى لا أستهلك ورق الرسم، أخذت أرسم استكشافات في كشكول مدرسي. تركت مؤقتًا صورتها وتفرغت لرسم زجاج القاعة، والمدفأة والمدخنة المشؤومة، التي لم أكن أراها في الحقيقة من مكاني، وكانت النتيجة واحدة. كان ثمة مشكلة منظور لم يكن باستطاعتي حلها.

- لقد قلت لك إنك إذا صورتني هكذا متراخية ومتأكلة، بصدر غائر
وعيون جاحظة، فسوف يخرج من يدك رسم فظيع - قالت سوسانا وهي
تمسك ورق اللعب من على الطاولة الصغيرة - لماذا لا تبدأ الرسم الآخر؟
- هذا أولاً، فقد طلبه مني الكابتن قبلك.
- هيا اتركه، هيا - نشرت ورق اللعب أمام وجهها كأنه مروحة تاركة
عينيهما المرحتين - هل نلعب لعبة السبعة ونصف؟
تركت القلم كأنه يلسعني وتنفست الصعداء.
- حسناً.

في اليوم الثاني كذلك لم أتقدم كثيراً. وعند المغرب بدأت تمطر ورأينا
الأخوين تشاكون في الشارع يجمعان منصتهما بعجلة ويدخلان جرياً إلى
الحديقة ليحتميا بشجرة الصفصاف. نادتهما سوسانا فدخلتا من الباب
الصغير عند طرف القاعة. كانت جيوب فينيتو ممتلئة بأوراق الكافور التي
ألقاها في القدر بيديه القذرتين، بعدها أخرج مشطاً مكسوراً ومرره عدة
مرات في شعره المتبك الدهني، الفاحم السواد. أرسلته سوسانا مع أخيه
إلى الحمام ليفسلا يديهما وحين عادا اقترحت نورا من لعبة السلم والثعبان
فجلسنا ثلاثتنا على الفراش. كنت أعطي ظهري للطاولة الليلية الصغيرة
ولصورة كيم وأحس في قفاي بعينيه النفاذتين. هززت الزهر في الكوب،
باحثاً عن الحظ وحركت قطعي الصفراء بحزم، لكن لم أستطع تجنب أن
يقتل الأخوان تشاكون قطعي مرات عديدة الواحدة تلو الأخرى، كما لم
أستطع أن أطرده من رأسي طوال المساء الرجل الأسطوري ذا المسدس
ولا البريق الداكن لنظرته المغرسة في قفاي.

حين ماتت أم ناندو فوركات قيل إنه سيأتي لحضور الدفن وتوقع الجيران رؤيته، لكنه لم يأت، ومضت الابنة العانس التي كانت تعتني بالمعجوز لتعيش في حي لا برشلونيتا مع أختها المتزوجة وباعت شقة ميدان روبيرا، وهكذا أصبح من المؤكد ألا يظهر صديق كيم في الحي بعدها على الإطلاق.

ظللت أكرس أوقات الصباح للكابتن بلاي في تجواله الذي لا يكل في شوارع جراثيا، وبرلا، وبروينكير، ومونتمانى، وجوان بلانكس والإسكوريال ونحن نصعد، ونندق الأجراس ونطلب توقيعات، ونغرق هنا وهناك في حانات معتمة بمنصات ذات رائحة فواحة يتردد عليها شاربون مستوحشون، بينما ينمو فضولي لكل ما يتعلق بوالد سوسانا: هل كانوا يبحثون عن كيم بوصفه أحمرًا حينما ارتبط بالسنيورة أنيتا، يا كابتن؟ هل صحيح أنهما لم يتزوجا في الكنيسة؟ هل صحيح ما يقولونه عن السنيورة أنيتا، أنها كانت تعمل في كباريه اسمه شنغهاي، وأن كيم تعرف عليها هناك؟ وما يقولونه أيضًا عنها، أنها كانت خادمة فقيرة ثم راقصة في أحد استعراضات الباراليو، كانت تظهر فيه عارية...؟

وكان الكابتن يقول نعم، اللعنة، حسنًا، يصعب القول وأن الأمر لا يقال هكذا دفعة واحدة لمصبي ببربور في الرابعة عشرة لا فائدة منه ولا عائدة، وأنه في مثل هذه الحالة يكون الشيء الأساسي ألا ننسى أبدًا أن النساء نوات العيون الزرقاء يكذبن مثلما يتنفسن، وهذا أكثر من مجرب؛ وأن الحقيقة الوحيدة الحقة في حياة كيم هي أنه كان سيدًا مهذبًا شديد التائق،

رجلاً راقياً نال تربية معتنى بها، الابن البكر لعائلة شديدة الثراء من سبابا ديل، عائلة من صناع المنسوجات.

- سيد مهذب فوضوي، هذا ما كانه وماهو عليه، إذا كان مازال كما هو، أو كما أراد أن يكون، فحول هذه النقطة لا نتفق أنا وكونشا أبداً.. -
توقف الكابتن أمام بعض الصبية يلعبون الكرة في شارع ليجاليداد - إيه، أنتم، لا تقتربوا كثيراً من هذه البالوعة، فالغاز يتجمع فيها! أقول لكم بجد، يا صغاليك! لقد وصل التسرب إلى جحر الجرذان هذا واستنشاقه يؤثر على نمو العظام! ولا تفكروا في إلقاء بمب بداخلها...!

- هيا، أيها الرجل الخفي، إخلع ملابسك! - صاح أحد الصبية، وأحاطوا جميعاً بالكابتن وتصايحوا: - إخذ لـ لـ لـ ع، إخذ لـ لـ لـ ع!
- حسناً، بالنسبة لي يمكنكم أن تختنقوا! - وشق الكابتن طريقاً متخلصاً من الأيدي. وبعد خطوات قليلة أمال رأسه بحزن وقال: - على كل حال أصبح الخراء داخلهم فعلاً، لن يعودوا ينمون بعدها.

عاودت الهجوم بأسئلتني عن والد سوسانا. ولسبب لا أدريه، كان الكابتن متحفزاً له، رغم أنه لم يشكك في شجاعته ولا في أسطوريته، في وضعه الفريد كبطل سري، وتذكر أنه قبل زمن طويل من معرفة الناس له على أنه كيم، حين كان كل الناس هنا وفي ساباديل ما زالوا ينادونه باسم جواكيم فرانك إي كاسابلانكاس، كان رجل فعل، أفكاره متقدمة ومزاجه لا يلين، متشوقاً لأن يصنع قدره الخاص: فحين كان على وشك إنهاء دراسة هندسة النسيج، أحب بجنون خادمة المنزل وهرب معها إلى برشلونة، عندها حرمه أبوه من الميراث، أو بالأحرى فعلها هو نفسه؛ وإن يعود لرؤية العائلة

أبدًا. كانت أنيتا، أم سوسانا، في تلك الحين في الحادية والعشرين، كانت قد جاءت من إحدى قرى الميريا لتخدم في منزل سادة مقتنية خطوات ابنة عم لها، ستتحوّل في نهاية المطاف إلى فتاة كورس في الباراليو. كنا في سنوات الثلاثينات الأولى، وكان الناس يعانون من شتط العيش، يا فتى، فاشتغل كيم فيما يتاح له وعمل في مهن عديدة، باستثناء مهنته: عمل بائع آلات لطحن البن وسكاكين حلاقة، ومديرًا لملاعب رياضي، ووكيلًا لفنانين المعنوعات، وشرطيًا سرّيًا في الحكومة القطالونية (الجنراليتات) وأخيرًا ممثلًا لماركة ألمانية من آلات العرض السينمائية، وهذا النشاط هو الذي أتاح له السفر في طول اسبانيا وعرضها ودر عليه نقودًا كثيرة.

.. لكن كل شيء سينتهي في لمح البصر مثل تسيحة الفجر. - أضاف الكابتن حين أخذنا في صعود شارع ثردينيا، قريبًا من المنزل... فما كان ينتهي من الاستقرار هنا في البرج مع زوجته وابنته، التي لا بد أنها كانت عندئذ في الثالثة من عمرها، حتى اندلع الهول الكبير وطاطاпах، وأخذ الجميع يجرون لحمل البندقية...

وبدأ من هذه النقطة، ماذا أحكي لك، يا فتى، اختتم صاعدًا ببطء الدرج المعتم الكتيب ذا الدرازين العلوث بالشحم، وأنا خلفه لا تفوتني كلمة واحدة مما كان يهمهم أو يزوم به بدل أن يقوله: حينئذ يستأنف صداقته مع نانفو فوركات وعصبته من الحالمين بالفراديس، أولاً في جبهة أراجون ثم هنا في برشلونة، وسرعان ما تقوده هذه الصداقة صوب اليوتوبيا الفوضوية، صوب هذا المثال التحرري الذي كان سيغير العالم وحياته الخاصة، حياة حبيبته أنيتا وحياة هذه الطفلة المصنورة التعسة.

فتحت البتيتيو الباب فاستقبلنا في المدخل عبق مثير لطبيخ عدس
بشحم الخنزير.

- إلى المائدة - أمر الكابتن فارغا يديه. وتحت النظرة الخبيرة والصبورة
لزوجته نزع العصابة والمعطف ثم غسل يديه، وحين جلس إلى المائدة مظهرًا
وجهه الشبهي العاري، الحاد والشيطاني بعض الشيء بلحيته الصغيرة
البيضاء والحاجبين الأشعثين، وعيني السطحية التائهة واليد المرتعشة
التي تتحسس المعلقة فوق المفروش، بدا بمظهر بفالوبيل Buffalo Bill
متهاك ومروّض، فقد شعره الفضي البراق، وفقد مسدس الونشستر والمهارة
في التصوير، لكنه مازال على أهبة الاستعداد لعراك طويل.

٦

هل تحب السينما؟ - سألتني سوسانا وهي تتسلى بترتيب قصاصات
الصحف. ونحن انتظار لإجابتي أرفقت: أنا لا أذهب إلى السينما منذ زمن
طويل. وأحيانًا أرى أفلامًا في أحلامي. ذات ليلة رأيت ضوء آلة عرض في وسط
كابوس، يبرز في الظلمة، واستيقظت حين انتبهت إلى أنها واحدة من آلات
عرض أبي... هل كنت تعرف أن آلات العرض ماركة Erneman إرنمان في كل
نور سينما برشلونة ومدن عديدة في إسبانيا من عند أبي؟ فقد ركبها هو.

- في كل نور السينما؟ أليس كثيرًا؟

- حسنًا، في كل نور تقريبًا. - فكرت برهة وأصرت: نعم، نعم، في
كل نور سينما إسبانيا، طبعًا. ولم لا؟ إذا كانت آلة عرضه جيدة جدًا
وأحدث الآلات، أفضلها جميعًا؟

كان لدى سوسانا استعداد طبيعي لأحلام اليقظة، لاستحضار ما هو مرغوب، وجميل ومناسب. مثلما حين تنشر وترتب حولها في الفراش مجموعتها من إعلانات الأفلام وقصاصات البرنامج التي تحضرها لها أمها كل أسبوع من سينما موندريال، والتي كانت سوسانا أحياناً تقص منها الوجوه والأجسام لتلصقها وتجمع بينها بشقاوة في أفلام لا تخصها، فقط لأنها قد راقها أو سلاها رؤية هذه الوجوه والأجسام معاً - كانت قد جمعت بين شهرزاد الجميلة وكازيموڤو في مرتفعات ويندزنج، وتركت هيثكليف Heath Cliff الغامض على حافة حمام سباحة مع إستر ويليامز Esther Williams بالمايوه، وتركت سابو Sabu يطير فوق بساطه السحري فوق بغداد في صحبة شارلو Charlot ومديرة منزل ريبیکا Rebeca، وجعلت طرزان معلقاً في أعلى أحد أبراج كنيسة النوتردام مع إزميرالدا الفجرية والقردة شيتا - كذلك كانت تثير حول نفسها توقعات باسمه أو نذر حزن من خلال تصحيحات بسيطة للواقع، مضيئة بعض الرتوش إلى الصور والذكريات. وبين ذلك الخليط من الذكريات كانت تكرر والدها في آخر مرة جاء ليراها مخترقاً الحدود سراً، منذ عامين تقريباً، بعد قليل من وقوعها فريسة للمرض.

- وصل في الفجر، ودخل هنا دون أن يشعل الضوء وقرفص إلى جداري. كان قد تحدث لتوه مع ماما وبكى تقريباً.. لم يكن يعرف أنني مريضة بهذه الدرجة. وجدني واهنة جداً فأعطاني قبلة طويلة على جبهتي وقال لي إنه ليس بمقدوره بعد أن يأخذني معه. حسناً، إذا لم يكن قد قال لي ذلك مباشرة في كلمات، فقد أفهمني إياه... - تردت سوسانا كأن

الذاكرة قد خانتها، ثم واصلت :ـ لم تتفصل شفتاه العجيتان عن جبهتي الملتهبة، يا داني، ومازلت أحس بهما حتى الآن في بعض الليالي حين أخذ في التفكير والتفكير دون أن أستطيع النوم... قال لي في أذني، سأتي لأخذك في الربيع. كانت سترته الجلدية تفوح برائحة المطر وأظن أنه كان يرتدي قلنسوة، فلم أستطع رؤيته بوضوح. عندئذ سمعت خبطة في الحديقة فأنحنى أكثر إلى جوارتي، ثم استدار ويده تتحسس شيئاً في حزامه وفي تلك اللحظة استطعت أن أرى وجهه المعبذب، لكن ليس ملامحه، أعرف أنه وسيم من الصور ولأن ماما قالت لي... وحين نهض لم أر أي مسدس في يده، كما لم يكن يحمله موضوعاً بين الحزام والقميص. لم تكن الضجة شيئاً، ولا أحداً، ربما قط في الحديقة أو إصيص جيرانيوم قلبته الريح. وعاد يقبلني، وأمسك يدي وظل إلى جانبي حتى جعلته يظن أنني قد نمت، فقد أشفقت عليه - تنهدت وظلت برهة أخرى، صامتة، غاضبة، وبللت بلسانها شفتها العليا، التي كانت يابسة وربما متورمة - ثم مضى مرة أخرى، لكنه ترك لي كلاماً يقول، أنا أحفظه من الذاكرة، يقول: أيتها الحمامة العذبة النائمة، لا تخافي أبداً من الليل لأن الليل شريكى وسأتي معه لأخذك... هذا ما قاله، وتركه لي مكتوباً في ورقة.

قالت لي إنها يوماً ما ستريني هذه الورقة، وكذلك بعض رسائل كتبها لها، لكنها لم تفعل أبداً. كذلك كان يروق لها أن تتذكر، وهي طفلة صغيرة، أن أباها اعتاد أن يرفعها بنزاع واحدة حتى تكاد تلامس نجفة غرفة الطعام المتوهجة، وهي نجفة عتيقة جداً تهاوت فجأة ذات يوم، بعدها بسنوات، دون أن يلمسها أحد وتحولت إلى حطام؛ وأن هذا المنظر بالغ

الحيوية في ذاكرتها، فقد كان حاضراً تماماً في ذاكرتها قوة نراع أبيها،
وتوتر الحب والأمان الذي يبعثه هناك في أعلى، قالت ذلك لي، وكذلك الضوء
المُعشى للبصر لشبكة الكريستال ودوار الهبوط وضحكة أمها. وأنها حتى
اليوم، خصوصاً في الليالي التي تحس فيها أنها في حالة بالغه السوء،
بنفقات في صدرها ووهن في قواها، إذا ومضت فجأة الذكريات التي
تحتفظ بها عن والدها، كانت تشعر في دماها أحياناً بانفجار الضوء المعشى
للبصر ذاك الذي لم يعد بالمنزل وبفقه الحنان تلك التي ترفعها من جديد
فوق الحمى وفوق الوحدة، فوق الرعب من قياء الدم ونذر الموت.

الفصل الثالث

١

عبرت شارع لاس كاميلياس وتحت إبطي الحافظة وعلبة الأقلام ماركة فابر^(١)، وتوقفت برهة مع الآخرين تشاكون أمام البوابة، كالمعتاد، وحين هممت بدخول الحديقة، جعلني صرير فرامل سيارة أنير رأسي. كان يوم أربعاء، اليوم الوحيد الذي لا تعمل فيه السنيورة أنيتا، وفي هذا اليوم بالذات كانت في الحديقة منذ بداية ما بعد الظهر، وراء شجرة الصفصاف، تنشر القسيل وبين أسنانها أغنية، ومشبكان.

جرت المناورة الحادة للسيارة ماركة بالييا Balilla التي ينبعث البخار من مبردها على مسافة قريبة من ناصية شارع اليجري دي دالت وبدأ أن الفرملة راجعة إلى أن السائق كان قد تجاوز ذلك الشارع، وكان الآن يستعد للرجوع إلى الوراء ليتجه إليه على الوجه الصحيح. لم يكد يتوقف لثانيتين ولم نر أحداً يهبط من السيارة ولا سمعنا صوت ارتطام أي باب، ورغم ذلك، فبعد أن تقهقرت السيارة البالييا لتصحيح مسارها وعاودت السير لتختفي عند الناصية، وجدناه واقفاً هناك فكانما نبت فجأة من الإسفلت يحمل حقيبة قديمة

(١) Faber.

من الكرتون مربوطة بحبل، ويده الأخرى غائصة في جيب سرواله، رجل في أواسط العمر بأنس المظهر بعض الشيء لكنه متباه، وجنته بارزة ونظراته مختلطة تحت حافة قبعته الرمادية. نظر إلى جانب الشارع ثم إلى الجانب الآخر ثم إلى الحديقة والبرج، محرّكاً رأسه ببطء شديد، قبل أن يغرس نقته في صدره وينظر إلى قدميه؛ وواقعاً هناك في وسط الشارع، لا تائهاً ولا مرتبكاً، بدا ببساطة أنه يسجل الحالة التعسة لحذائه البني والأبيض. وعلى كتفيه المضمومين بعض الشيء طفت بادرة على التوتر العصبي بدت لي مألوفة.

خطر بذهني أنه يمكن أن يكون والد سوسانا، لكنني تعرفت عليه على الفور؛ ناندو فوركات. كان قد تغير. لم يكن يضع نظارة شمس وبدأ أشد نحافة وهشاشة منه منذ خمسة أشهر، حين ظهر لنا لأول مرة واقفاً على عتبة بيته على حافة الحفرة المحفوفة بالمخاطر. وساكناً ومتفكراً مثلما كان عندئذ، بدا الآن أيضاً، أكثر من كونه قادماً من حيث لا ندري لكن من مكان بعيد جداً، مستعداً للعبور مرة أخرى بدءاً من حافة حفرة أخرى، بجسده المتوجس والمحنى قليلاً إلى الأمام. تبادلت نظرة مع فينيتو وأخيه، اللذين كانا قد تعرفنا عليه بدورهما، وبينما بدأ هو يتحرك أبقيت البوابة مواربة. اقترب متمهلاً، والحقية في يده وحافة القبعة فوق عينيه، وحين رفع رأسه قليلاً ليكلعنا، حينئذ نظرت الحولاء ولم أدر إلى من منا يوجه السؤال:

- هل تسكن هنا السنيورة أنيتا فرانش؟

- نعم، يا سيدي - أجبنا ثلاثتنا في نفس واحد.

أنا واثق من أنه كان قد رآها وأنه سأل من باب السؤال، حتى لا يبدو متطفلاً. فتحت البوابة ورأيناه يدخل الحديقة بخطوات ناعمة وحازمة. لم تره

أم سوسانا وهو يدخل. ولا أدري لماذا تخيلت أنهما يعرفان بعضهما بعضاً، معرفة قليلة أو كثيرة، رغم أنني في تلك اللحظة لم أكن أملك دليلاً على ذلك. وفيما بعد، سيقول لي الكابتن أنه، قبل سنوات عديدة في الفترة التي كانت الخادمة أنيتا تخدم فيها في منزل السيد المهنّب كيم ولم تكن قد أحبته بعد، كان يمكن أن تكون قد تعرفت على فوركات في بارات الباراليو وتبادلت معه الغزل. وعلى أية حال، فإن فوركات نظر إليها الآن وهي تنشر القسيل واتجه نحوها عابراً الحديقة بإصرار متأن وقام بخطوات يمكن أن يكون قد حلم بها مسبقاً.

دخلت أنا أيضاً وتبعته لبعض المسافة، لكن وجهتي كانت القاعة، التي توقفت أمام بابها لأراه يترك الحقيبة على الأرض، ويخلع القبعة ويمد يده للسنيورة أنيتا. أما هي فأنظرت الدهشة والرضا البالغ، وغطت وجهها بيديها فأخرج من جيبه رسالة. لم تبلغ سمعي كلمات التحية المتبادلة، لكنني سمعته تماماً حين قال بصوته الرخيم الدافئ:

- أنا قادم من تولوز وأحمل أخباراً عن كيم.

ناولها الرسالة في ظرف غير مغلق فتحتة هي على الفور، وبعد التعرف على الخط وقراءة بضعة مقاطع، نددت عنها صرخة فرح وتعلقت في عنق القادم الجديد. لكنها تراجعت على الفور، ربما لخطأها من عدم قدرتها على التحكم في حماس كان غير مبرر بدوره، كما سأعرف بعد قليل. وأول ما قاله لها زوجها في هذه الرسالة هو أن تصنع معروفاً بأن ترحب باسمه بصديقه فوركات وأن توفر له مأوى في البرج بكثير ما يمكن من التكتّم، بينما يقوم هو في برشلونة بحل مسألة ذات أهمية قصوى. عرفت التفاصيل

فيما بعد، وطبيعي أن السنيورة أنيتا لم يكن بإمكانها أن تتوقع ذلك لحظتها، عند قراءة الرسالة، لكن ذلك المعروف الذي كان يطلبه منها زوجها لصديق في ضيق كان سيصبح، في الواقع مصدر الشيء الوحيد الحسن والسر الذي سيصادفها خلال أعوام طويلة، إذ أن كيم كرر في نهاية الرسالة شوقه القديم لأن يأخذ الطفلة معه ذات يوم، حين تكون قادرة على السفر دون الإضرار بصحتها، لكنه لم يقل شيئاً بشأن ما إذا كان يريد زوجته أيضاً لتبدأ معه حياة جديدة خارج إسبانيا.

ظلاً لبرهة يتحدثان في الحديقة بينما تفرغ هي من نشر الغسيل، وبعدها بقليل، حين كنت قد واجهت رسمي من جديد جالساً على المتضدة الليلية وسوسانا تتقلب في الفراش وقد تحولت إلى حفنة من الأعصاب، فقد عرفت مني أن هذا الرجل يحمل أخباراً عن أبيها، دخلت السنيورة أنيتا إلى القاعة مبتسمة ممسكة بذراعه وقدمته:

- يا طفلتي، هذا هو السنيور فوركات. بابا يحبه كأخ - قالت، وسارعت مريفة، ناظرة إليه بعينيها الزرقاوين المتوقدتين: وأنا أيضاً. سيبقى بضعة أيام معنا... وهذا الصبي الجاد جداً والرسمي جداً - واستدارت نحوي - هو صديق عزيز لسوسانا يأتي كل يوم لصحبته، واسمه دانييل.

مشدوداً واحتفالياً بعض الشيء، مد يديه إلى سوسانا ثم إليّ. سأل المريضة كيف حالها فقرفت في الفراش وضمت القبط القماش إلى صدرها.

- بخير - قالت - في أحسن حال. كل يوم أفضل.

- حقاً؟ قال فوركات - سيفرح أبوك بمعرفة ذلك...

- هل حضرتك قادم من طرفه؟

- نعم.

- متى رأيته؟ هل هو بخير؟

قلبت أمها جمرات المدفأة. وبصوت مليء بالتدليل أمرت سوسانا أن تدخل بين العلامات وأن تتدثر، ثم قالت:

- سأذهب لأرى كيف حال الغرفة العليا - ابتسمت لضيئها -. بعدها تأخذ الحقيبة إلى أعلى. أعطني سترتك، فهنا ستشعر بالحر.

أعطاهما إياها وخرجت السنيورة أنيتا من القاعة. كانت سوسانا تتعافز من اللفة وهي راكعة على المرتبة محتضنة قطها، وكررت السؤال:

- متى رأيته؟

- منذ شهر بالكاد - قال هو، وابتسم ابتسامة خفيفة شابكًا ذراعيه وجلس على طرف السرير مستعدًا لإشباع فضول سوسانا -. حسنًا، ماذا تريد أن تعرفي أكثر؟

- لا أدري... ماذا قال لك؟

- لقد حكى لي أشياء كثيرة. كان قد وصل من رحلة طويلة ويستعد للرحيل مرة أخرى، في مهمة لنقل إنها خاصة.

- أين رأيته؟ في تولوز؟

- نعم. لكنه لم يعد هناك.

- وأين هو الآن؟

- حسنًا... أبعد من هناك بكثير. أنت تعرفين أباك، لا يطيق القعود. لكنني أظن أن من الأفضل الآن أن تلوي إلى الفراش، وأن نترك هذا كله لما بعد. أنا متعب قليلاً من الرحلة... وها قد سمعت أمك، يجب أن تتدثري.

لاحظت حاجبيه الأشعثين المرتفعين وعينه القاطعة الحولا،
المتخشب، العين التي لم نرها أبداً تنظر إلينا مباشرة، لا إلى سوسانا ولا
إلى أمها ولا إلي ولا إلى أحد! العين الباردة ذات البؤبؤ الساكن الذي
يكسوه حجاب خفيف والتي بدا أنها تنفر من الضوء وتدرك واقعاً آخر،
تستجيب لنداء آخر بعيد عن المحيط المباشر ربما يكون صادراً عن
الماضي. كانت سحنه بالغة الطول تطل منها دهشة ساخرة، حزن مهرج
بعض الشيء. لكنه إذا تكلم لم يكن ما يجتذب النظرات لا تعبيره ولا عينيه،
بل فمه الواسع، الشفتان المتوترتان الرفيعتان والأسنان الكاملة التكوين،
اللامعة والمترامة بحيث تبدو برمتها مزيفة، مصطنعة. ويجب أن أضيف
أنه كان يتحدث بوضوح قسري في صوته، بذلك النطق المدقق والودود لمن
كافحوا من أجل تهذيبهم الشخصي في وسط معاد.

كان قد نهض من على الفراش، ربما للإفلات مؤقتاً من أسئلة سوسانا،
وألقي نظرة مختلصة على رسمي البائس، بالكاد مجرد اسكتش للزجاج
وللمدخنة القائلة التي تبرز في الخلفية، خلف أشجار الحديقة! لم أكن قد
توصلت إلى خط واحد جيد للفراش ولا للمدخنة ولا حتى لسوسانا، ربت على
ظهري ولم يعلق. عادت السنيورة أنيتا وأجبرت سوسانا على الاستلقاء في
الفراش، وغطتها ثم سوت الوسائد ورتبت الفراش، وهي مهمة شارك فيها
فوركات تلقائياً فاردًا اللحاف بكليتي يديه وبمهارة فائقة. في ظهر يديه، كانت
العروق الزرقاء القوية تتراكب فوق الأعصاب، لكن ما كان يثير الاستغراب هو
الجلد المبقع، بعض المناطق صفراء كأنها من اليود وأخرى ذات لون وردي
داكن توحى بخريطة غير مقروءة لجلد آخر، رقع حريرية، كئن اليبس قد

تعرضت للنار أو لحامض أو كُئن مرضاً غامضاً ما قد قشرها جزئياً. كذلك التقطت حولها رائحة تشبه رائحة القرنبيط المسلوق، رائحة منزلية، مستكنة وباهتة لم يخطر ببالي أبداً أن أربط بينها وبين رجل حرب عصابات.

قادتني السنيورة أنيتا لتريه الغرفة التي سيقم بها، في الطابق الأول، وواصلت أنا الشخبطة وظلت سوسانا برهة تتفكر ثم فتحت زجاجة طلاء وبدأت في طلاء أظفارها. وبعد قليل سمعنا حديثاً يدور في غرفة الطعام المجاورة. «هل تبحث عنك الشرطة؟» همست هي، وقال هو: «لا أنري... ربما كفوا الآن. لم أكن مهماً في الجماعة. لكن هذه الأمور لا تعرف أبداً، وعلى أي حال ليس لدي مكان أذهب إليه.» بعدها دعتني إلى الجلوس، وقدمت لي قهقهة من النبيذ ثم لا بد أنها انهمكت من جديد في قراءة الرسالة، لأننا سمعنا يقول لها بصوت متألم: «لا تعاودي قراعتها، يا امرأة، لا تعنبي نفسك. وفوق كل شيء لا تفقدي الأمل...» «لقد فات الأوان - قالت هي، لا أستطيع أن أغفر له الآن. كان يمكن أن أغفر له أي شيء آخر، أن يذهب مع امرأة أخرى، مثلاً...» «لقد شهد لي أنه لا توجد أي امرأة أخرى في حياته»، قال فوركات. «في حياته ما هو أسوأ من ذلك»، غمغمت السنيورة أنيتا وصوتها مشتبك في ذلك الحزن اليومي والدقيق التوقيت الذي يغلبها أكثر من النبيذ، وأضافت: «أنت تعرف ماذا أقصد.» «نعم»، غمغم هو، ثم صممتا حتى تنحنحت هي وهمست، كأنها تلتقط خيط شيء تحدثنا فيه من قبل: «إذن فهذا هو كل ما قاله لك. هذا فقط.» «لا، ليس هذا فقط. فقد قال لي أيضاً إنه لن يستطيع أن ينسأك أبداً. أعني...» «أعرف جيداً ماذا تعني»، قاطعتني هي، وسمعنا صوت الطقطقة المألوفة لزجاج القدر وهو

يصطدم بعنق الدمجانة عند صب النبيذ فيه. حينئذ أردف فوركات: «حسنًا، لا تقلبي الأمر أكثر من ذلك. لقد انتهى كل شيء منذ زمن.» فسالت السنيورة أنيتا: «هل قال هو ذلك، أن كل شيء قد انتهى؟ هل قال لك ذلك؟ وكيف يمكن معرفة ذلك؟ - ووهن صوتهما حتى صار يخبو: في النهاية، لديه ابنته... ما الفرق إذا كنت أنا سأغرق في الخراء. إذا فكرت في الأمر جيدًا، لوجدتني في الخراء يومًا...»

راقبت سوسانا: كنت أود ألا تكون موجودة، ولا أنا. ظلت مطرقة تلون أظافرها، واضعة ذلك كل اهتمامها في. ربما لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها أمها تشكو من وحدتها ومن جفوة بدا أنها نهائية بالنسبة لها. عندها، وبعد صمت أطول بكثير من سابقه، سمعنا صوت كرسي ينقل في عجلة، تصر سيقانه على بلاط غرفة الطعام ثم أنينًا خافتًا وساد الصمت مرة أخرى... تخيلت السنيورة أنيتا وهي تغطي وجهها بيديها لتكتم بعض الشبهقات، وربما تخنقها في صدر ذلك الرجل، تاركة إياه يحتضنها. رفعت سوسانا رأسها وحدثت في، كما لو كانت تود أن تقرأ في عيني ما يجري في غرفة الطعام. وعلى الفور عاودت الانهماك في طلاء الأظافر مطرقة رأسها من جديد، وانسدل شعرها الأسود على جانبي رقبتها الشاحبة.

فكرت أحيانًا أنني لم أحس أبدًا أنني قريب منها مثلما أحسست في هذه اللحظة، وأنا أرى فجأة رأسها المستسلم يسقط بفعل ثقل نفس الشعور باليتم والانتزاع الذي كنت أنا أنعميه سرًا وبخبيث إلى جوار أمي، والذي لا شك أنه لا بد أن يكون لديها أعمق وأشد إحاحًا بسبب المرض، ولأن الشقراء الحسية كان يروق لها أن تغازل الحياة، وتسخر من الوحدة،

وتتحدى الرجال، في ذلك الصرير الكرسي المنقول من مكانه بعنف، في النحيب غير المصنوع وفي الصمت الممتد الذي تلاه، لا بد أن سوسانا قد خمنت ما خمنته: فورة مشاعر مفاجئة ولا يمكن كبتها من جانب أمها، وقد أخطأها ذلك. وفجأة أمسكت بقطعة من القطن وأخذت تفرك بعنف طلاء الأظافر حتى محته، وأغلقت الزجاجاة وألقتها على الفراش ثم تعددت بين العلامات وساقاها مفتوحتان. أدارت الراديو ثم عادت فلطفتها، حدقت في وبدأت تتصرف مثلما تفعل حين تريد تسلية نفسها على حسابي وصرف انتباهي عن الرسم الذي تحتقره، المخصص للكابتن: أخرجت لي لسانها، تظاهرت بأنها تسعل سعال كلب وخبطت صدرها بيدها، نزعَت الغطاء ورفصت، حركت يديها في الهواء كأنها تنظفه من الأبخرة الخائقة وسدت أنفها بأصابعها كأنها لم تعد تستطيع تحمل رائحة الغاز والدخان الأسود السام اللذين، طبقاً للتنبؤات الغريبة والمشثومة للكابتن بللي، سينتهي بهما الأمر إلى أن يجففا رئتيها. إلا أن الدعابة، هذه المرة، كانت انعكاساً عصيباً لشيء يؤثر فيها على نحو أشد حميمية. وحين اقترحت عليّ بنفاد صبر لم تحسن إخفاءه أن تلعب دوراً من لعبة السلم والثعبان، تركت الأقلام والرسم لأرضيها. ولم نعد نسمع شيئاً في غرفة الطعام.

عند الغروب، حين كنت أهم بالعودة إلى المنزل، دخل فوركات القاعة لابساً صندلاً غريباً ذا نعل خشبي وملتقاً في جلباب طويل أسود له أساور حمراء ومزين بكتابة صينية. كان يخفي وراء ظهره شيئاً ويبتسم لسوسانا. اتكأ لحظة على منضدة السرير، حيث كنت أجمع أوراقتي، وبلغتني بخسارة الخضروات في يديه، الآن أقوى: كرنب معصور، أو ربما خرشوف.

- انظري، هذا الكيمونو الحريري أهده لي والدك - قال، واقترب ببطء من الفراش... والآن، المفاجأة. أعطاني هذا لك.

كان ذلك بطاقة بريد من مدينة شنغهاي ومروحة من الحريري الأخضر. وما نراه في بطاقة البريد، كما أوضح على الفور، هو نهر هوانج - بو ومرافقه المنهكة الزاهية الألوان بجوار البوند، أشهر ممشى في الشرق الأقصى، بناطحات سحابه المتباهية ومبنى الجمارك القديم. وكان ظهر بطاقة البريد، التي لا تحمل أختاماً لأن كيم سلمها له في يده، كما قال فوركات، ممثلة بكامله بكتابة دقيقة ومجودة عرفت سوسانا في الحال أنها خط والدها، تقول :

عزيزتي سوسانا، ستلتقين هذه البطاقة البريدية عن طريق رسول يحظى بتقديري البالغ وثقتي المطلقة. عامليه كأنه أنا نفسي وقدمي له الضيافة والإعزاز، فقد كان دائماً إلى جانبي يماونني في كل شيء (يطبخ جيداً جداً!) ولديه الآن مشكلات (أشرحها لماما في الخطاب). وهو يحمل لك مروحة حريرية صينية أصلية لونها أخضر، لونك المفضل، وقبيلات كثيرة وذكرى مني، من جواب الأفاق هذا الذي لا ينساك. كوني طيبة وكلي كثيراً، واسمعي في كل شيء كلام ماما والطبيب، والأهم ان تشفي سريعاً. والدك الذي يحبك، كيم.

ظلت سوسانا ناظرة إلى الفضاء، مفكرة، ثم أدارت بطاقة البريد لتتأمل من جديد نهر هوانج - بو المتدفق.

- لكنني لا أفهم - قالت - لماذا فعل هذا؟ لماذا ذهب بعيداً هكذا...؟

- إنها قصة طويلة. يمكنني أن أقول... - توقف فوركات، وقبل أن يواصل، أخفى يديه في كميّ الكيمونو الواسعين وجلس على حافة السرير دون أن يرفع عينيه عن سوسانا... يمكنني أن أقول إنه ذهب يبحث عن شيء نسيه هنا بالضبط... لكن لندعنا من ذلك الآن. سيكون لدينا وقت طويل لنحكي فيه أشياء كثيرة.

٢

كل يوم، حوالي الواحدة ظهرًا وقد تحطمت قدمي، لم أكن أفكر سوى في إعادة الكابتن إلى منزله، والاكل بسرعة والهرب جريًا إلى برج سوسانا، وذات يوم اقترحت على الكابتن أن يصحبني لتحية ناندي فوركات.

- وما الفائدة - قال.

- لكن، ألم يكن السنيور فوركات صديقك، يا كابتن؟

- كان، هذا صحيح - أجاب العجوز المخبول، وتوقف في أعلى شارع بيافرانكا ليراجع قائم توقعياته... ما أقلها، اللعنة يجب الحصول على المزيد.

- إذن - واصلت فكرتي - أنت لا تفكر في الذهاب لرؤيته؟

- لماذا - زام بصوته الأجش - نحن الآن في حرب أخرى.

وبعد مقدمة معقدة حول مختلف أشكال الصداقة والسخط التي تولدها كل حرب، بدأ الكابتن يحكي لي أن فوركات، قبلها بخمسة عشر عامًا، حين كان يعمل في بار لاترانكيليداد دل باراليلو، وهو عش للفوضويين البرولونيين والحالمين باليوتوبيات، كان وهو يقدم القهوة بالعرق والكوكتيلات للزبائن، يحاول أن يبيعهم كتبًا لباكونين ومنشورات عن الثورة يطبعها بنفسه.

.. كان رأسًا مليئًا بالعصافير - قال الكابتن .. روحًا مخلصه تبشر بالفريوس. ومن المؤكد أن مزيج العرق والقهوة الذي كان يقدمه لم يكن من هذا العالم، فقد كان سخياً، يصب فيه قدرًا كبيرًا من العرق... لكن كفى ثثرة، لدينا عمل كثير ووقت قليل. - وألقى نظرة فاحصة على طول الأرصفة المتهالكة والأبواب المغلقة وأضاف :- هل تظن أن أحدًا سيوقع في هذا الشارع؟ أقسم أن الغان قد مر من هنا.

عنيذًا ومجنونًا، لكن ليس أحمقًا ولا أعمى، لم يتأخر الكابتن في الانتباه إلى الحماس الضئيل الذي كانت تثيره معركته ضد المدخنة والغاز في الجيران، إلى الدعابة التي كان يبعثها وإلى الجهد الذي كلفه إياه جمع أول ستة من التوقيعات. وكانت نتيجة ذلك أنه كف عن استعجالي لإنهاء رسم سوسانا معددة ومتألمة، مما كان مبعث ارتياح لي فلم تكن لدي أدنى عجلة، بل على العكس؛ كان يروقني أن يكون عليّ أن أذهب كل يوم إلى البرج وتمنيت أن يطول هذا الوضع حتى الخريف على الأقل، حين يكون عليّ أن أبدأ العمل.

في أمسيات كثيرة لم أكن حتى أمسك بالقلم، كنت أفضل أن ألعب مع سوسانا لعبة الداما أو السبعة ونصف، وقبل كل شيء، لعبة السلم والثعبان، إذا زارنا الأخوان تشاكون. وأحيانًا كانت سوسانا تتعب فكان من عاداتها حينئذ أن تلومني لأنني حتى لم أبدأ في الرسم الذي تريده، الآخر، الذي تريد أن ترسله إلى أبيها مع إهداء؛ لكنها بدورها كفت عن استعجالي حين اكتسب فوركات عادة الظهور في القاع نحو الساعة الخامسة مساءً بالكيمونو الطويل من الحرير الأسود، وشعره اللامع المكوي وقبّابه

الخشبي المدوي، مهندماً ومستريحاً بعد قيلولة طويلة، ليستحضر بتمهل، جالساً على فراش المريضة، وبالتفصيل بعض الأشياء التي عاشها مع أبيها: كيف تعارفا ونميّا صداقتهما في برشلونة فقيرة، حاملة ومتضامنة مع العالم، في مدينة أحبها كلاهما وفقداها معاً، وكيف أنهما بعد أن فقداها كان عليهما الفرار هما الاثنين إلى فرنسا، وكم من المتاعب والمخاطر والتعاسات، كم من المصاعب وكذلك كم من الأفراح اقتسماها...

لن أستطيع تحديد متى بدأ ذلك، وأظنه بدءاً من اليوم الذي طلبت فيه سوسانا إجابة على سؤالها المتكرر: ماذا كان ذلك الأمر البالغ الأهمية الذي يفعله أبوها في شنغهاي، هذه المدينة النائية والغامضة - وهو سؤال ظل يجيب عليه حتى الآن بالمرأوغات -، لكنني أتذكر حقاً أن هذه الأحاديث التي كان يرتجلها فوركات بدأت تثير حماسنا حينما حاول أن يشرح السبب في أن رجلاً مثل كيم، يتوق كثيراً إلى عائلته ومدينته، كان يرغب ذلك خاضعاً لقيود معينة ذات طابع أممي لا يمكن توقعها في العادة وترتبط بمعتقداته الأخلاقية، وبشكل أكثر تحديداً حينما ألمح إلى الأمر الشائك الذي حمله بعيداً جداً عن هنا، رغم أنني لا أري أن كان يجب أن أقص عليكما ذلك، أضاف، وأقضي أنا وسوسانا بنظرة الحولاء، بهذه العين المثبتة دائماً في شيء يبدو أنه خلف ظهرنا - شيء يبدو أنه لا يمكن بلوغه بالضبط بنظرة عابية -، لكن سوسانا أصرت فانتتهى به الأمر إلى التسليم، قال حسناً، الأمر يتعلق بحكاية طويلة بدأت في فرنسا منذ عامين، في حجرة صغيرة في أحد بنسيونات تولوز تقاسمناها أنا وكيم منذ السنوات الأشد قسوة، وهكذا سيكون من الأفضل أن نبدأ من تلك النقطة، ثم نمضي بالترتيب...

كان أحد الأوائل الذين طلبنا توقيعهم هو السنيور سوكري، الذي صاف الكابتن في شارع تريس سنيوراس ذات يوم كانت انسماء تمطر فيه مطراً خفيفاً.

- لكن يا بلای، اللعنة - قال مبندساً .. كيف تطلب مني توقيعی وأنت تعرف أنني فقدت اسمی وعنوانی وجنسی ونقابتی...؟ كيف تكون هكذا، يا رجل؟
- هيا، يا رجل، كلانا من مِرحة البحارة هذه - احتج الكابتن ... فالامر لا يجب أن يؤخذ على محمل الهذر...

- حسناً، أعطني بيانك الشهير - قاطعة السنيور سوكري، وأمسك بقلمه الحبر، ووقع وذيل التوقيع ... ها هو ذا ... أتعرف شيئاً، يا بلای؟ أنا أقدرك حقاً، أيها العنيد. و يوماً ما سأرسم لك صورة. لكن حملتك المصليبية تثير الضحك. ألا ترى ضخامة العدم الذي يلفظنا؟ - وقامت يده الرقيقة الرمادية لفنان فقير، كأنما ترشدها ذاكرة مستسلمة، أو يهديها الوعي الملموس بأشكال متحضرة أصبحت منفية، بالإشارة بإيماءة رشيقة وواسعة إلى البركة العثيرة للفتيان التي تحوطنا :: أنت تفهمني - عدم من الأحلام التي تفرق نفسها في العدم، كما قال ذلك ال...

- أترى أنك تعرف من أنت، يا وغد؟ - قال الكابتن بابتسامة متواظئة ...
شكراً ان توقيعك بالغ الأهمية.

- بلای، لن تصدقني، لكن هناك أيام يكون فيها اهتمامي ضئيلاً جداً، أقول لك ضئيلاً جداً، بمعرفة أي لعنة أكون. أحس أن الأمر يستوي. الهوية خدمة، وهي أيضاً سريعة الزوال... نحن زبالة كونية، يا صديقي العزيز.

وبالنسبة لي، فإن الشيء الوحيد الذي يشغلني الآن هو تذكر ما فعلته غداً
بكل تفاصيله ونسيان ما سافعله أمس إلى الأبد. سلام.

استأنن السفنور سوكري مريتاً على ظهر الكابتن وغامراً لي بعينه،
ورأيناه يمضي خفيفاً ومحنياً تحت المطر الخفيف باتجاه تورينتي دي لاس
فلورس. واصلنا طريقنا وهز الكابتن رأسه وابتسم، راضياً لأن صديقه
القديم يعاينته بنفس الثقة القديمة. وإلى أعلى، في السماء الرمادية والعلبة،
في عمق كومة من السحب السوداء المرتعشة التي بدا أنها تلتهم نفسها،
ظلت ساكنة خريشة برق صفراء.

٤

من عادة كيم أن يقول إنه، في وسط التقلبات التي تنطوي عليها أي
مهمة خطيرة، كلما أمسك مسدسه وواجه الموت، لا يفعل ذلك من أجل
الحرية أو العدالة أو أي مثل من تلك المثل العليا التي تحرك العالم منذ
الأزل وتجعل البشر يحلمون ويتقاتلون، بل من أجل صبية حسناء لا تستطيع
التحرك من بيتها ولا من مدينتها، يعذبها المرض والفقر. تلك الصبية هي
أنت، وأنت محفورة في أحلامه مثل وشم لا يمحى. ولا يمر يوم دون أن
يراك هنا، ممددة في هذا الفراش، مثل حمامة جريحة داخل قفص من
الزجاج يتعقبها دخان أسود مشين.

قل لها ألا تفسح في قلبها مجالاً للكآبة ولا للحزن، هذه هي الكلمات
التي استخدمها والتي أنقلها الآن إليك لئلا تحزن أو أضيف نبرة؛ هكذا
يراك ويحس بك، هكذا يتذكرك ويحبك، أسمى وأبعد من تعاسته الخاصة،
فقد أحسن تحمل كل الهزائم وخيبات الأمل التي عاينها منذ نهاية الحرب:

الوحدة والمنفى، غياب أمك، تسليم وموت الرفاق وقسوة الألمان، كل هذا لم يكن شيئاً بالمقارنة مع ألم عدم تمكنه من مساعدة ابنته المريضة، عدم قدرته على تشجيعها، وإعطائها رغبة في الحياة...

والآن سأحكي لكما كيف بدأت المغامرة الأخيرة لكيم وعلى أي نحو غير متوقع ومدهش تماماً قادت تلك المغامرة من تولوز إلى شنغهاي بحثاً عن عميل نازي، عن مسؤول سابق في الجستابو لم يكن قد رآه من قبل مطلقاً. ولفهم الالتزام والمخاطرة اللذين أخذهما كيم على عاتقه في مهمة من هذا القبيل، يجب أن أشير أولاً إلى حدث سابق مشنوم، إلى ما سيكون آخر تسلل له إلى إسبانيا، كان مخططاً في الأصل لجمع الأموال.

أول ما أتذكره هو طرقة خزانة مسدس براونينج عند فكها، طقطقة معدنية لم تكن أبداً لتبهج سمعي، كنا في تولوز، منذ أكثر من عامين، في غرفة ضيقة ذات شرفة مفتوحة على شارع بلغور، غير بعيد عن محطة القطار. يراجع كيم وثائق الهوية المزيفة التي ناولته إياها لتوي، ويبتسم لي ويضعها في جيبه. «أحسننت - يقول لي بينما أنتهي أنا من وضع بعض اللمسات الأخيرة في جوازات المرور الأخرى، ويضيف: أنت فنان.»

أود أن أوضح شيئاً، يا صغيري: بالنسبة لي لا يجب أن ترياني حاملاً مسدساً أو مدفعاً رشاشاً، مهاجماً البنوك أو مطلقاً الرصاص مثل أي واحد من المجموعة؛ لا تتخيلا فوركات المسكين في أعمال كهذه، فلم تكن تلك مهمته، وسوف نرى ذلك. أما من أراه الآن فهو لويس دينيسو ماسكاروه، الذي ندعوه جميعاً دنيس، قائمقام كيم وموضع ثقته، لحظة انحنائه على المسدس الذي يقوم بتشحيمة جالساً على السرير، وإحدى ساقيه في

الجبس؛ ففي مناوشته الأخيرة مع الحرس المدني قرب الحدود أصيب ويستخدم عصا بمقبض فضي تضيف على حركاته أناقة إضافية، من عاداته أن يبالغ فيها أمام النساء. دنيس هذا، الأحق محب النكات واللطيف في كل وقت، الشاب والأنيق، الصديق الوفي لكيم، والطفل المدلل للاجئين النشطاء في تولوز: كان في الحقيقة متشائمًا يتهدهده اليأس والجنون، مثله مثل كثيرين آخرين ما زالوا يناضلون. وهو يجيد التصويب ويتمتع بشجاعة فائقة، وإحدى متعه الكبرى تنظيف وتشحيم أسلحة كيم كلما تولى هذا القيام بمهمة. نسمع صوت تكتكة ساعة الحائط، وصغير قطار.

- هيا، دعك من هذا - يقول له كيم - هذه المرة لا أحتاج إلى الذهاب مسلحًا.

إنه يرحل إلى برشلونة لغرضين: أن يسلم نقودًا وجوازات مرور مزيفة لرفاق عليهم أن يجوبوا جنوب البلاد، وأن ينقل شخصيًا أمرًا مضادًا عاجلاً إلى ثلاثة أعضاء من المجموعة كانوا قد انتقلوا منذ يومين إلى العاصمة القطالونية. كان اثنان منهم، نوالارت وبيتانكور، قد رحلا من تراسكون، أما الآخر، كامبس، فقد رحل من بيزير. أما العمل الذي كان يجب وقفه فهو الهجوم على مصنع مواد كهربائية في حي لوسبيتاليت، كان من تخطيط كيم، الذي وعد بالانضمام إليهم في برشلونة عشية العملية. لكن قبل ساعات قليلة من رحيله، يتلقى كيم من اللجنة المركزية أمرًا بوقف كل النشاطات؛ ولما كان نوالارت ورفيقاه ينتظرونه بالفعل في برشلونة، فإنه يقرر الذهاب إلى الموعد لكي يثنىهم عن القيام بأي مبادرة ويجعلهم يعيدون. رحلة ذهاب وإياب سريعة، عمل روتيني ولا ينطوي على أدنى خطورة.

عند تسليمي إياه وثائق الرفاق الآخرين وتعمياتي له بحظ سعيد، ننظر في عيون بعضنا؛ في عينيه ينطفئ آخر وميض لحلم، وفي عيني لم يعد ثمة سوى رماد، وكيم يعرف ذلك:

- أنت لا توافق على هذه الرحلة - يقول لي.

- لا على هذه ولا على أي رحلة أخرى، كفى - أجيبه - لكنني لا أوافق على هذه الرحلة مطلقاً. لا أرى ضرورة زهابك، فبإمكانهم تدبير أمورهم بدونك.

- ربما، لكن ماذا عن الوثائق، والنقود؟

- أعتقد أن هذا كله لم يعد يفيد شيئاً.

- أحقاً؟ - يقاطعني بخشونة - ورغم ذلك، لدى أسبابي للذهاب.

يقول إنه سيتتهز فرصة الرحلة ليراك أنت وأمك، ليلاً، زيارة سريعة، قبله والوعد المتجدد بإخراجكما من هنا ذات يوم. وعندما يصبح المسدس جاهزاً ومشحماً، يقدمه دنيس إلى رئيسه، الذي يرفضه. لم يكن كيم قد عبر الحدود قبلها أبداً دون سلاح.

- ماذا هناك بحق الشياطين؟ يقول دنيس.

- الأمر لا يستحق كل هذه الاحتياطات لمجرد حمل بضع أوراق وأمر -

مضاد - يقول كيم.

يبدو دنيس متضايقاً ليس لهذا السبب وحده: فهو أيضاً كان بوده أن يقبل كارمن وابنه وكان سيذهب مع كيم عن طيب خاطر لو لم تكن ساقه مكسورة. ودائماً، في كل رحلات كيم السرية إلى برشلونة، يقضي الليل في منزل والدي دنيس، وهو شاليه صغير في موضع منعزل في أورتا، حيث

تعيش كذلك رفيقة دينيس مع ابنه ذي السنوات السبع. وهي فتاة شابة جداً، كانت في السادسة عشرة عندما ارتبطت بدنيس، واضطر هو للذهاب على الفور إلى جبهة الإبرو في الأسبوع الخامس للرضيع وبعدها إلى المنفى، واستضاف الحموان كارمن والطفل الذي لم يتعد عمره شهوراً، فلم يعد لها في برشلونة عائلة سواهما. كان دنيس قد عرفها عندما قدمت حديثاً من ملقا، وكانت فتاة رائعة الجمال ومرعوية دائماً تعمل وتنام في صالون كوافير تملكه عمه لها تستقلها. ومثل أبيك، يا طفلي، لم يفقد دنيس أبداً الأمل في رؤية كارمن وابنه وقد التأم شملهما معه في فرنسا، لكن ذلك لم يكن ممكناً حتى الآن؛ فقد وجد نفسه أولاً في معسكر اعتقال ومن هناك انتقل للعمل في منجم لصالح الألمان خلال الاحتلال، ثم تمكن من الهرب وناضل في صفوف المقاومة التي تعرف في صفوفها على كيم وبعدها رافقه في مقاومة النضال المسلح^(١)، عند نهاية الحرب. لكن حكاية دنيس هذه حكاية أخرى...

تصفر قاطرة في محطة ماتابيو، ويغمر آخر أشعة الشمس المدينة الوردية Ville Rose^(٢) وثمة شرارة لهفة في عيني كيم بينما يراقب عفريتتي البيضاء الملطخة بالألوان، ويتسم لي بإعزان: «أيها النقاش المسكين - يقول - يجب أن تعود إلى جوار أمك». إذ أنني هنا في برشلونة كنت قد عملت كمصمم كتب، بالإضافة إلى عملي كجرسون، لكنني في تولوز لم أستطع العمل إلا كرسام مساعد، مثل دنيس؛ لم يكن عملاً سيئاً، أنا لا أشكو.

(١) Máquis : تطلق على من يحمل السلاح لمعارضة نظام قائم وكذلك على التنظيم الذي يقوم بذلك والشخص الذي يشارك فيه - م.

(٢) Ville Rose : «المدينة الوردية» اسم اشتهرت به مدينة تولوز - م.

- أراكم في العودة. ليكن سلوككم جيداً - يقول كيم وهو يحفظ الأوراق بين ضلوعه ودين القميص - أقسم أنني في واحدة من هذه المرات سأضرب بالاحتياطات عرض الحائط وأحضر سوسانيتا معي.
- هل أنت مجنون - يقول دنيس - كيف تريد عبور الحدود بطفلة مريضة؟ ما يمكن عمله حقاً، إذا سار كل شيء على ما يرام، هو أن تحاول إحضار كارمن وابني، إذا رأيت هذا ممكناً هذه المرة، فافعل، سأعطيك نقوداً من أجل النفقات، ومبلغاً آخر تتركه لوالدي.
يفكر كيم بينما ينتهي من ارتداء السترة.
- إذا لم أر أي خطر عليها وعلى الطفل، فسوف يأتيان معي. اعتمد على ذلك.

يسلمه دنيس ورقة من ذات الخمسة آلاف ببسبته، نصفها من أجل والديه والنصف الآخر من أجل كارمن، ويتعانق الصديقان في منتصف غرفة البنسيون، وسط ذلك البريق الوردي الذي عادة ما يدخل من الشرفة في تلك الساعة. وهكذا سارهما يوماً، فكان ذلك كان توقعاً حدسياً منذ اللحظة الأولى: متعانقين كلاهما تحوطهما هالة من ضوء بدا أنه يبيقهما في الهواء، وكل واحد منهما يفكر في نفسه أنهما، مثلما في مناسبات عديدة أخرى، ورغم كل الاحتياطات والنوايا الطيبة، ربما لا يعودان للالتقاء بعدها أبداً. ويقبل كيم في النهاية المسدس الحديث التنظيف الذي يقدمه له صديقه. نسيت توصيات لينس التي لا تنتهي بشأن أقدام كارمن الرقيقة واستعدادها للإصابة بنوبات البرد، ألا تدعها تنام في العراء أثناء عبور تلك الجبال، لكنني لا أنسى النظرة الحازمة لكيم حين يقول له :-

- ثق بي، يا فتى. سأحضرها لك سليمة معافاة.
يخطو نحو الباب وإذا بقط أسود لست متأكدًا من أنني رأيته، وربما
كان يهرُ ويعبر بخطوته النمرية في خيالي فقط، أريد أن أقول إنني لا أتذكر
أنه كان في تلك الغرفة، وربما لم يكن له وجود، إذا به ينزلق من أمامه ثم
يقفز من الشرفة إلى الشارع وتكاد تفلت مني صرخة.
- ماذا هناك، يا فوركات - يقول كيم.
- لا شيء. إنه ميسيفوس^(١).
- أي ميسيفوس وأي لعنة؟ - ينظر حوله دون أن يرى شيئًا.
- لا تواني اهتمامًا - أقول له - هيا، حظ سعيد.
من الشرفة نراه يبتعد في شارع بلفور في طريقه إلى المحطة بسترته
الجلدية وقبعته البنية، يمضي متمهلاً ومفكرًا، والسيجارة في شفتيه، ويداه
في جيوبه، كأنه سيتمشى في واحدة من جولاته المعتادة على ضفة نهر
الجارون.

٥

- أهلاً، أهلاً لقد وقعت لي من السماء، يا بني. دعني أستند على
ذراعك، فقد خرج الحذاء من قدمي - قالت السنيورة أنيتا.
كانت قد صادفتني عند الناصية وكانت تتأرجح وإحدى قدميها حافية،
والحذاء في يدها. تعلق بذراعي كيفما اتفق، وجعلتني أسقط الحافظة وعلبة
الأقلام ولفتني بنفسها الذي تفوح منه رائحة الخمر. ابتسمت فظهرت في

(١) اللط صاحب حذاء الأربعين فرسخاً في الحكايات - م.

أسنانها بقع من أحمر الشفاه. كنت قد خرجت لتوي من البرج، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة وأحسست بالبرد يعض أصابعي رغم القفاز الصوفي. وكانت هي قائمة من سينما مونديال في شارع سالاميرون ولا بد أنها توقفت في نصف ستة من البارات، مستندة على ذراعها، لم تفلح في ارتداء فردة الحذاء وسقطت على الرصيف جارحة ركبتها. بالكاد لم تسقط على وجهها وتصطدم بحافة مدخل أحد المباني، حيث عاوتتها على الجلوس. رفعت ركبتها حتى أنفها وفحصتها وهي تهز رأسها. كان بالجرب ثقب في حجم بيضة.

- أتريدان أن أصطحبك، يا سنيورة أنيتا؟

- أنت لطيف جداً، لكن لا ضرورة. إنه هذا الحذاء، لا أدري ماذا جرى له. أمسكت بفردة الحذاء أمام عينيها لا تدري ماذا تفعل به، نظرت إليه من الوجه ومن النعل، لكن لم يكن قد جرى للحذاء شيء... إنه قديم، هذا ما جرى له... ولا بد أن الكعب قد التوى. حذاء سندريللا، انظر...! - جاوبتها الابتسام، دون اقتناع كبير فيما أظن... أنت قادم من المنزل؟ لن تكون قد تركت سوسانا بمفردها.

- السنيور فوركات معها.

- آه، طبعاً. ما أطف صعبة طفلي الآن، ألا تظن ذلك؟ كل الأمسيات معك وأحياناً مع صبيبي الكارميلو هذين، البالفي الخرف، ومع السنيور فوركات الذي يعرف جيداً كيف يسليها... كم نحن محظوظتان، ألا تظن ذلك، يا دانييل؟

- نعم، يا سنيورة.

- ما أروعنا الآن، أليس كذلك؟

- نعم، يا سنيورة.

- أتعرف؟ أنا في أشد الرضى - تتهدت... لم يعد على طفلي أن تبقى وحيدة. أوف، أنظر إلى هذا الجورب التمس، لم يعد يتقع فيه الرفوا ومع كل هذا البرد اليوم... صمتت وأعطتني الانطباع بأنها تريد أن تضيق بعض الوقت في تدليك ركبتها المجروحة. حتى لاحظت قفازي الصوفي الرمادي، فأمسكت يدي اليمنى وأسندتها برفق فوق ثقب الجورب وفوق الجلد المتجمد - هل تسمح لي؟ ما أطفه من دفء، يا للراحة...! وما أجمل هذا القفاز. هل صنعتك لك أمك؟

- لا. صنعتك السنيورة كونشا.

- هل تعرف أن هناك أيدي تعطي الدفء بمجرد النظر إليها - ثنت ركبتها مرتين مغلقة عينيها. وحين فتحتهما من جديد رمش بؤبؤاها الأزرقان بمرح - إذا فكرت في الأمر جيداً، فإن الشيء الوحيد الذي نحتاجه في هذه الحياة هو قليل من الدفء في اللحظة المناسبة، القليل منه لا أكثر، ألا تظن...؟ لكن ما تفكر فيه الآن هو: السنيورة أنيتا سكرانة تماماً، أليس كذلك. - نجحت أخيراً في ارتداء الحذاء ونهضت - لكن، أتعرف شيئاً؟ ما من شر يوم إلى الأبد... أه، يا ركبتني!

- دعيني أعاونك حتى منزلك.

- لا، لقد وصلت...

لكنها أخذت تعرج وفي النهاية قبلت أن أصحابها، تعلقت في ذراعي وقبل أن تدفع بوابة الحديقة حاولت أن تهدأ، نظرت في امرأة صغيرة، وسوّت

الخصلات المجعدة الشقراء وبينما تمرر إصبع أحمر الشفاه على شففتيها جعلتني أعد بالأخبر السنيور فوركات بأنني رأيتها في تلك الحال. وعند عبورها البوابة استدارت إلي مبتسمة:

- أنت طبعًا تعرف، إذا ذهبت يومًا إلى سينما موندريال ولم أكن أنا في شباك التذاكر، قل للعامل إنك صديقي وسيتحركك تدخل مجانًا.
- شكرًا، يا سنيورة أنيتا.

٦

لم أكن سوى واحد منهم ولست من أشجعهم، لست ممن يخاطرون بجلودهم ممسكين بالمسدس، كنت فقط أعمل بالريشة والأحبار أكتشط وأثبت أرقامًا وأسماء بمساعدة حد شفرة الحلاقة وأبوات مدهشة ومتنوعة؛ كنت فقط أزيّف وثائقهم وأخترع توقيعات، وأزودهم بأسماء وهويات جديدة؛ كنت أجعلهم خطرين، لكنني لم أكن خطرًا. كنت أحلم بمخاطراتهم.

يصل كيم متخفيًا إلى برشلونة ذات ليلة ماطرة لأواخر أبريل ويلتجئ إلى دار والدي دنيس، اللذين يسلمهما الرسالة ونصف النقود التي أعطاها له هذا الأخير في تولوز؛ أما النصف الآخر فمن أجل كارمن، التي تقبله دون بهجة، فتاة في الرابعة والعشرين أنهكها العمل والوحدة، وسئمت الانتظار تنظر الآن إلى كيم بما يشبه الكراهية: فزيارته دائمًا مصدر الهموم والحزن، دائمًا ما تحمل خبرًا سيئًا: هذه المرة خبر إصابة دنيس في اشتباك مع الحرس المدني. إلى متى هذه المخاوف؟ هل يستحق الأمر عنا، كل هذه التضحيات، كل هؤلاء الموتى؟ متى سينتهي هذا الكابوس؟ يتفهمها كيم ويعترف لها.

- وليست هذه هي المرة الأولى، ففي المرة الأولى اعترف لي بذلك عند خروجه من اجتماع ساخن في باريس - بئنه هو أيضاً بدأ يتعب من الفضال من أجل لا شيء.

وراجباً في رفع معنوياتها، ينقل إليها شوق دنيس: هناك تمضي الأمور أفضل قليلاً بالنسبة للجميع وربما حانت ساعة أن تولى هي والطفل ظهريهما لهذه المدينة ويلتئم شملهما معه. بإمكانني أن أصطحبك عند عودتي، خلال ثلاثة أيام، يقول لها: عبور الحدود منك بعض الشيء، لكن لدينا دليلاً جيداً. المدهش أن كارمن لا تبدو متحمسة للفكرة: كأنما الوقت قد فات، كأنما دنيس قد مات بالنسبة لها. تحتضن ابنها وتفكر... يمكننا تخيل ثلاثتهم تلك الليلة المطيرة بجوار المدفأة، بعد العشاء، وقد أوى العجوزان إلى فراشهما والطفل الذي لا يريد النوم قابض بين بنفس هذه العيون المفتوحة عن آخرها التي تنظران بها إلى

الدهشة وعدم التصديق، يمكننا أن نتصور الآن ذلك الطفل وهو ينظر إلى كيم ويستمع إليه، إلى الصديق الجسور لأبيه، القادم من الجانب الآخر لليل والخوف، هناك حيث ستنتهي أخيراً متاعب أمه ومرارتها؛ كذلك لا بد أنها هي الأخرى تنصت إليه منتبهة وصامتة، تلك الشابة الجميلة شبه الأمية القادمة من ملقا خلال الحرب... لا أعلم التفاصيل، لكن كيم ينجح أخيراً في إقناعها محدثاً إياها عن خبرته في العبور بأطفال إلى فرنسا؛ فمئذ عام، حين نظم أول مجموعة مسلحة من مختلف الفصائل وكان يعبر الحدود كثيراً، كان يحمل أحياناً عند عودته ابن أحد المنفيين. وفي المرة الأخيرة، عبر بطفليْن في الثامنة والثانية عشرة، هما ابنا قومندان جمهوري مات في

معسكر ماوتهاوزن. لماذا إذن لم تخرج زوجتك وابنتك من هنا حتى الآن؟
تقول له كارمن، فيجيب: كيف كان يمكنني أن أعولهما خلال تلك السنوات
وأنا أرحل على الدوام من هنا إلى هناك وأنا منخرط في المقاومة؟ والآن ما
حيلتي، وابنتي مريضة...

قبل إقامة الاتصالات المقررة، يقرر كيم في تلك الليلة ذاتها، أن يأتي
لرؤيتك أنت ووالدتك، في وقت متأخر، قرب الفجر. كانت تمطر بشدة وسار
مسرعا في شوارع خالية وعابرا الأراضى الفضاء في أورتا والجينارنو،
حتى استطاع ركوب عربة أجرة.

يقول إنه وجدك نائمة ولم يرد إيقاظك، ولا حتى أضواء النور؛ حدثني
عن الرائحة الطيبة للكافور في هذه القاعة، عن شفتيه المرتعشتين فوق
جبهتك الملتهبة، ترك لك فوق الفراش كيسا من البلكسيجلاس الأخضر،
لونك المفضل. كذلك ترك بعض النقود لأمك. لم يبق ولا حتى خمس دقائق،
لكن هذه الدقائق القليلة إلى جانبك عوضته عن مشاق كثيرة.

اليوم التالي يوم أحد ويشرق النهار صافيا ووضاء، تهب فيه الرياح
تحت سماء بلغ من زرقتها أن أفلقت ذاكرته التي خدرها بنفسه، ربما كانت
نكرى هذا الضوء نفسه في هذه الحديقة في أيام أسعد، بينما هو يعبر
المدينة في الترام وتتابع خلف زجاج النافذة أشجار الموز المخضرة
والواجهات المشمسة، وأشجار النخيل الصفراء في الشرفات والناس الذين
يتمشون بهوء ممسكين بأيدي أطفالهم. يحس في قلبه بالوخزة التي أحس
بها في أحيان أخرى: غريب في مدينتك ذاتها، أجنبي في بلدك ذاته، هكذا
تحس حين تكون الكراهية والبارود قد أعماك مثلما فعلا به خلال زمن

طويل، حين كان يتخيل بعيداً عنكما هذا الجحيم من القمع والبؤس، هذا الشقاء الذي لا ينتهي والذي طالما لعنه واليوم فجأة، على نحو غير متوقع، يحاول أن يكتئبه نهار بالغ الوداعة وريبيعي، مناسب تماماً لفقدان الذاكرة الاحتفالي الذي يبدو أن هؤلاء المنتزهين المرتدين ثياب الأحد يتمتعون به... نحن لا نصاحب كيم في رحلته في ذلك الترام الذي يعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب، لكن يمكننا تخمين ما يستشعره مرة أخرى ويجهد في رفضه: ليس فقط تلك اللاجئوى المفزعة للبراونينج الحديث التشحيم الذي يحمله تحت الإبط، قريباً جداً من القلب، بل كذلك عبثية المثل العليا القديمة التي ما زال هذا القلب ينطوي عليها. كل عبور جديد للحدود، كل لقاء جديد مع ذلك الضوء هو سقوط جديد في القنوط.

لكن هذا الإحساس بالاستبعاد يحمل مزايا معينة: فالغريزة التي تنبهك للخطر تزداد رهافة وتبقيك منتبهة. يحتفظ كيم بالوثائق في حقيبة أوراق قديمة ويحتفظ بالأوامر في رأسه: الموقف المؤقت لكل الأعمال المسلحة بغرض جمع الأموال، بما في ذلك هجوم الغد. تلك هي تعليمات اللجنة المركزية، وسيكون من يتلقاها هو جوزيب نوالارت. والاتصال مقرر في شرفة مقهى قريب من محطة سانتس، في الحادية عشرة صباحاً. يهبط كيم من الترام، ويتوقف للفرجة عند أحد الأكشاك، على بعد نحو ثلاثين متراً من المقهى، ويراقب نوالارت الذي ينتظر جالساً وأمامه فرموت، وحيداً، على إحدى طاولات طرف الشرفة. يبدو كل شيء عابثاً. والشرفة يتردد عليها الكثيرون، وتخدمها فتاة شقراء ماهرة ذات قلنسوة صغيرة بيضاء وجونلة بكرائيش. يتسلى نوالارت بقراءة الصحيفة، التي تعبث الريح بصفحاتها،

ولم ير كيم بعد. إنه رجل في الخامسة والثلاثين، ربعة، بشعر خفيف ونظارة ذات إطار معدني. حدثتكما عن غريزة كيم لاستشعار الخطر، لكن ما سينقذه هذه المرة هو خاطر مكرس لك، يا سوسانا.

يسمع صوت فرملة سيارة ويرفع نوالارت رأسه بحدة عن الصحيفة، لكنه لا يتبين أي شيء غير عادي. يتقافز طفلان بين طاولات الشرفة، تشتد الريح وتصبح مزعجة جدًا. يبدو أن نوالارت يستشعر قرب كيم ويبدأ في إدارة رأسه باتجاه الكشك، لكن في هذه اللحظة بالضبط، ترفع لفحة ريح جولة الفتاة التي تمر حاملةً صينية مشروبات فيلفت الحادث انتباهه الباسم وانتباه الزبائن الآخرين. وعند محاولتها إنزال الجonzلة، تكاد الجرسونة الشابة، الشديدة الانزعاج، أن تقلب الصينية بكل ما عليها فوق رأس نوالارت. تسمع بعض الضحكات. وهكذا فإن سيقان الفتاة، هذه الهدية غير المتوقعة للنظر - هكذا كان يمكن أن يصفها نوالارت نفسه، ضاحكًا - هي ما يمنعه من إدراك وصول رئيسه وربما من القيام بإشارة له، وهذا، مقترنًا بواقع أن أباك يتسلى عند الكشك لبضع ثوان أخرى متصفحًا رسوم رواية صغيرة من روايات الشباب يظن أن عنوانها، مخاطر سوسانا، سيسليك، هو ما ينقذ كيم.

يهم بشراء الكتاب، لكن لا وقت لشيء. يعبر إشارب أسود تنقزعه الريح من رأس امرأة الشرفة خائفًا كأنه غراب حتى يشتبك بفرع شجرة واطئ. إنها العلامة، التذير المشنوم الذي لا يلتقطه نوالارت. عند الكشك، يسأل كيم عن ثمن الرواية، وعندما يستدير، يراه واقفًا على قدميه كأنه سيسقط، مقاومًا ضد الريح وضد دهشته: يطبق عليه من الجانبين رجلان

يرتديان المعاطف، يحاول نوالارت الانحناء لالتقاط شيء من الأرض، قلنسوة، لكنهما يسندانه ويفحص أحدهما أوراقه بينما يضع الآخر القيد في يديه. لا يقاوم ويقودانه نحو سيارة سوداء، وهما يدفعانه دفعًا، وسط الفضول العام، لكن ما زال لديه من الوقت ومن المرح ما يجعله يلقي من فوق كتفه نظرة أخيرة على سيقان الجرسونة، من يدري ربما أملًا أن تقرر الريح أن تلعب مرة أخرى بجونلتها المكشكشة الممتلئة بالهواء، هكذا كان نوالارت، دائمًا بمعنويات عالية، رجل محب للحياة وللنساء...

يبقى كيم إلى جوار الكشك حتى تختفي السيارة ثم يمضي. ومن المفترض أن الشرطة كانت تجهل أن نوالارت كان على موعد معه، فلو كانت تعرف لكانوا قد انتظروا وصوله ليقعوا به هو أيضًا. إلا أن كل شيء كان يشير إلى أن البوليس قد بدأ العمل بعد أن تلقى وشاية، ففي نفس تلك اللحظة تم القبض في شقة في البوبلنو على رجلي كيم الآخرين، بيتانكورت وكامبس، وكذلك على حلقة الوصل لتوزيع الدعاية، وهو ميكانيكي من جراثيا.

يعلم كيم بذلك بعد ساعات قليلة، وبعد التعرض لكثير من المخاطر، فيقرر أن أفضل شيء هو الذهاب في أسرع وقت. لا يبدو له من الحكمة العودة إلى شاليه أورتا فيحدد مع كارمن موعدًا بالتليفون في محطة فرنسا، وتذهب هي مع ابنها وحقيبة صغيرة وفي نفس هذا المساء يبدأ ثلاثتهم أولى مزاحل الرحلة التي ستجعلهم يعبرون الحدود خلال الليل.

فشلت المهمة، لكن كيم سيفي بالوعد الذي قطعه لدنيس بأن يحضر له رفيقته وابنه سالمين معافين حتى تولوز.

الفصل الرابع

١

حين تحولت إلى ظل صباحي الكابتن بلاي، مشتبكًا في أحبولة خيط العنكبوت من الأشياء غير المترابطة التي أخذت تتسع وتتسع كل يوم بالمبالغات اللفظية والإيمائية للعجوز المجنون، كنت كثيرًا ما أحس أنني أطفو في اللاواقع الأشد نقاءً، محصورًا في حي متعفن ورمادي لا ترتبط مشاغله المفزعة بأية رابطة على الإطلاق بالمشاعر التي تنتظرنني بعد الظهر في البرج: كانت رغبتني الوحيدة هي العودة إلى جوار سوسانا وفوركات. في بداية تجوالنا لجمع التوقعات كنت أحس بكثير من الخجل فكنت «أتدارى» خلف الكابتن حين يفتحون لنا الباب وأتظاهر بالشروع، لكنني تعوت بعدها. كنت أحمل معي حافظة صغيرة تضم وثيقة الاحتجاج وورقة جعلني الكابتن أسجل فيها اسم وعنوان من يوقعون، وكذلك من يرفضون التوقيع. وكانوا هم الأكثرية. كان الكابتن يدخل البارات والدكاكين، الأسواق والمدارس، مغطيًا بالتدريج شوارع أكثر حول المدخنة الكريهة وموسعًا منطقة صارت تشمل كل حي لاسالود تقريبًا وجزءًا من الجيناريدو. كان يطرق بإلحاح أبواب كل الشقق، وكانت ربات بيوت مثقلات بالعمل

ومستريبات ينصتن إلى رجائه كارهات وغير مصدقات، وهن يسدن بأجسامهن الباب الموارب. إذا كن يعرفنه، فإنهن يوقعن للتخلص منه، لكن هذا حدث مرات قليلة. أما أغلب السكان، خصوصًا حين كان من يفتح لنا هو الزوج، فكانوا يطربوننا بطريقة سيئة. توقع من أجل زيادة طول مدخنة بضعة أمتار ووقف تسرب غاز سام؟ أي مدخنة لعيفة تعني، وأي تسرب سخان مسموم بل وأي خراء في الخل؟ كانوا يقولون مغتاضين، ويصفقون الباب في أنوفنا.

- حضرتك أحق وعيب، يا سيدي - كان الكابتن يرد من وراء الباب. ثم يتحسر في الشارع :- الخراء يصل حتى رقابهم ولا يريدون أن يعرفوا. أكيد أن هذا الشقي متهم للنظام...

- تريد أن تقول مخلص، يا كابتن.

- أريد أن أقول ما قلته، يا أبا بريور.

هناك مخلصون وهناك خائرون رعيديون لا يصلون إلى هذا الحد فيظلون منتمين.

لكنه لم يفقد معنوياته أبدًا. ومع أواخر مايو، بعد حوالي شهر من وصول فوركات إلى البرج، لم تكن قد أفلحنا حتى في جمع ستة من التوقيعات، وطبقًا لتوقعاته، فإننا إذا أردنا أن تولينا البلدية اهتمامًا لا يجب أن نرضى بأقل من خمسمائة، وهكذا رأيتني أصعد وأهبط السلالم وأطرق الأبواب والمزيد من الأبواب حتى الخريف القادم، حتى تأخذني الورشة كصبي وتحرنني في النهاية من جولات وشطحات الكابتن.

وكان كثير من الجارات النمامات في المناطق المتاخمة لكاميلياس
واليجري دي دالت يتتهزن زيارة جامع التوقيعات الغريب، الذي يفترضن أنه
يعلم عن طريق زوجته بكل ما يدور في برج السنيورة أنيتا، لاستدراجه دون
حياء: هل صحيح أن الرجل الذي تؤويه تلك العاهرة في منزلها أكلاً شارباً
لم يأت من فرنسا، بل من معتقل بورجوس؟ لماذا لا يخرج من البرج أبداً،
ماذا يفعل طوال النهار هناك مع صبيبة مصدرة في الخامسة عشرة ومع
هذا الغلام...؟ هل صحيح أن عاملة التذاكر تتجول سكرانة وعارية في كل
أنحاء المنزل، أمام الأحول، أم أنها مجرد شائعات؟

بكل صفاقة العالم، وبكل ثراء التفاصيل عادة، كان الكابتن بلاي يفتبط
بزيادة تعقيد أحبولة الشائعات، لا، يا سنيورة كلوتيلده، معلوماتك غير
صحيحة، هذا الرجل هو في الواقع مداوٍ وصل لتوه من الصين وهو يعالج
الطفلة المسلوقة بتدليكها بماء الورد المغلية مع ديدان الوهج، وهو علاج
قديم جداً ضد باسيللات كوخ^(١)، وصحيح أنه في شبابه كان خاسماً في
سفينة وطاف العالم بأسره وكان مغرمًا بعاملة التذاكر، إلا أن جواكيم
فرانش إي كاسابلانكاس كان أبرع منه وسرق خطيبته، وقد رضى هو بذلك
ويبدو أنه نسي الشقراء، لكن من يدري إن كان ثمة بقية من ذلك الذهب، لا
يجب أن يثق المرء أبداً بهؤلاء المغامرين، وخصوصاً هذا الذي نظرته
متقاطعة وقلبه مليء بالننوب... فوركات المغامر عابر الأطلنطي!

كان يلضم الاختلاقات بالحقائق بطبيعية بالغة، ورغم أن السكان كانوا
يعتبرونه خرقاً ووقحاً، فقد كانوا يبتلعون بمتعة كل ما يتمشى مع توقعاتهم
المريضة ومن يدري مع أي هلوسات عاطفية وأحلام مبتلة، خصوصاً لدى

(١) هي الباسيللات العسوية المسببة للسل التي اكتشفها العالم الألماني كوخ - م.

الرجال، فقد كانت بائعة التذاكر الشقراء تدير رأس الكثيرين. ومهما جمع الكابتن، ما دام يتحدث عن البرج وعن ساكنيه، كانوا يستمعون إليه بانتباه. أما هو، فقد كان يتظاهر بالاهتمام وفضول كان بعيداً عن الإحساس بهما بكل ما يجري هناك. وذات مرة قال لي أنه اكتشف إنه صار عجوزاً يوم أن بدأ يتظاهر بالاهتمام بأشياء تضجّره كثيراً، في أعماقه. لكن الحقيقة أنه نادراً ما كان يتصرف كمعجوز، وبالأخص في كل ما يتعلق بوسواسه المزبوج: مدخنة المصنّع وبياء الفان، المحركان الحقيقيان لجولاته في الحي وتعامله مع الشائعات وسوء الفهم.

هكذا استطعت الوقوف على كثير من الأقاويل التي تدور حول السنيورة أنيتا، والتي كان الكابتن يكذب بعضها ولا يكذب البعض الآخر، مثلما على سبيل المثال أنها لم تكن المرة الأولى التي تؤوي فيها رجلاً في منزلها: فمنذ ثلاث سنوات، كان عامل عرض السينما التي كانت تعمل فيها حينئذ، سينما إيبيريا، ينام ويأكل في البرج طوال شهر تقريباً؛ فطبعاً للكابتن، كان ذلك الرجل على قرابة بعيدة مع السنيورة أنيتا وكان مريضاً جداً، وكانوا قد طردوه من البنسيون ولم يكن لديه مكان ينام فيه، كان يسعل ويبصق طول الوقت - ودائماً ما اعتقدت أنه قد نقل العدوى إلى الطفلة، تجاسر الكابتن على القول - ورغم أنه لا بد من الاعتراف بأنه كان رجلاً مليحاً ومهندياً، فقد قالت هي للدونيا كونشا أنها تحس بالقرص منه، خصوصاً عندما تغير له العلامات.

في محل زهور بشارع ثريدينيا قرب المنزل، توقف فيه الكابتن قائلاً إن لديه ضرورة ملحة لشم القرنفل - رغم أنه حين دخل تعجب متشمعاً الهواء:

«حتى هنا يصل النفس المتعفن للوحش الشريرا» - أبدت صاحبة المحل، وهي امرأة نحيفة متصلبة، قبل أن تقرر توقيع خطاب الاستنكار، الذي أمرني الكابتن بأن أقرأه بصوت عال مرة أخرى، أبدت اعتقادها بأن أم سوسانا هي مهاجرة جاهلة: «كل هذه السنوات تحيا هنا ولم تتعلم بعد الحديث بالقطالونية، لا هي ولا ابنتها»، وأردفت أن أسوأ ما في عاملة التذاكر ليس لخبطلاتها العاطفية، بل ولعها بالخمر، وجونلاتها المحرقة وطريقتها في المشي، نوقها السبي، جو العاهرة الذي لن يفارقها أبداً، خسارة. وإذا كان زوجها بالمنزل، فمن المؤكد أنها ستخفف من حركة مؤخرتها، قالت.

- يجد الرجال هذه الشقراء لذيذة وشهية، أليس كذلك؟

- قال الكابتن بصوته المعسول - إنها مدخنة عتيقة. لكن انظري، يا سنيورة بيلي، كلما أصبح المرء عجوزاً ومتهاكاً، كلما قلت رغبته في الحكم على أي واحد... حسناً، على أي واحد تقريباً. ولهذا أعتقد أن الرب، الذي لا بد أنه أشد شيخوخة وأشد تهالكا مني، حين يستقبلني هناك في الأعالى لن يحاكمني. سيقول لي تفضل، يا بلدي، استرح هناك بأفضل ما تستطيع. هذا ما سيقوله لي... وعلى كل حال، يا سنيورة بيلي، فإن المرء إذا تفكر قليلاً في الأمر، مهما فعلت هذه الشقراء المتقدمة بمشاعرها وبإليتها الجميلة، فإن ما يجب أن يشغلنا حقاً هو الدمار الذي تحدثه باسيللات كوخ في ابنتها المسكينة، وهذا الغاز الذي أخذ يفسد زهورك ويهدد بتدميرنا جميعاً... لهذا أطلب توقيعك، من أجل شفاء رنتي مخلوقة بريئة ستموت لا محالة إن لم نتحد جميعاً لنطالب بالعدالة ونطالب السلطات بأن تأمر بهدم هذه المدخنة الشيطانية، أو على الأقل بأن ترفعها بضعة أمتار أخرى...

- حسنًا، حسنًا - قاطعته السنيورة بيلار فارغة الصبر، وانتزعت من يدي ورقة التوقيعات - هاتها، يا غلام. ستوقع. لا حلّ لهذا العجز المخبول. لامت الكابتن على مبالغته في درامية مرض سوسانا الرئوي؛ في رأيها أن تلك الطفلة لن تموت. وأضافت أن السل مرض رومانسي، ولا يجب المبالغة فيه... وعند الباب، استدار الكابتن ليحيب على السنيورة بيلار بأن تأخذ حذرهما إذا ظلت ذات ليلة صافية وهادئة، مستجيبة لروحها الرومانسية، تنظر إلى النجوم؛ فالقول بأن النجوم لا ترمش، قال، هو أكنوية، وما تفعله هو أنها تطلق ترابًا أبيض يصلب العصب البصري ويمكن أن يسبب العمى.

- لا تقل المزيد من الحماقات، يا رجل بحق الرب! - صاحت بائعة الزهور. - القول بأنها ترسل إلينا ضوءًا هو خدعة من مصلحة الأرصاد الجوية. - أكد الكابتن - فهي ميتة وميتة تمامًا منذ ملايين السنين. قال ذلك الليلة البارحة راديو إسبانيا المستقل.

كان يحس بأنه سمك في الماء وهو يتجول في الحي. وقد سأله لماذا لم يهرب من برشلونة مثلما فعل كيم وفوركات وغيرهما كثيرون، مثلما لا بد أن أبي كان سيفعل لو لم يخنف في الجبهة.

- سأموت في مستشفى لاسالود - زام - لن يحرك بي من هنا، سأنفن قلبي في لاسالود... أوف...

كان قد تأخر وعندما استدرت رأيتها يبول بهوء في فتحة البالوعة، في الجزء الأسفل من ميدان سانليهي. كان يطلق بولا كثيفًا ومضفورًا، داكنًا وساكنًا.

- ليس هنا، يا كابتن، من فضلك - جذبتك من معطفه، لكنه لم يتحرك -
من فضلك.

- تبول الرجل الخفي لا يرى - قال ضاحكاً.
- إنك لست الرجل الخفي، اللعنة! - عاجزاً وخجلاً، أخشى أن نجذب
انتباه أحد، أخذت أدق الأرض بقدمي وبنبرة خبيثة قرفتني أنا نفسي،
ويخته - : كنت أعرف أننا سننتهي اليوم بارتكاب حماقة كبرى!
- وماذا تريدني أن أفعل؟ - قال -.. ألا تعلم أنني عجوز مجنون؟
- هيا بنا، يا كابتن، فالوقت متأخر.

بعدها بقليل تجادل مع صاحب محل منتجات ألبان في شارع سان
سלבاتور حيث تشتري السنيورة أنيتا لبن البقر من أجل سوسانا. طلب توقيعه
لمساعدة مسلولة مسكينة لا حول لها على التنفس بشكل أفضل، لكن اللبان زام
قائلاً إن هذه حماقة ومضيعة للوقت، وأي لعنة تظن أنك ستوصل إليها بأربعة
توقيعات، وأشار لي أن أخذ من الدكان ذلك الأحق الذي لا يكف عن الكلام.
- وماذا يكلفك أن تضع توقيعاً صغيراً، هيه؟ - قال الكابتن -.. أعتقد
أنك لا تدرك الخطر الذي يحق بك. أنت وعائلتك. هل تعرف ما هو الغاز؟
- حسناً يا رجا - همهم اللبان -.. لدي فكرة...

- أشك في ذلك، يا سيدي. الغاز مادة أثيرة، مثل الهواء، مثل رائحة
الأبقار، مثل أكانيب النساء الشقراوات ومثل ضراط الأساقفة، الذي لا
يسمع ولا يرى. وله خاصية التوالد بلا نهاية، دون أن يوقفه شيء.
- نعم، نعم، اللعنة... خذه، يا غلام. يجب أن يشرح أحد لهذا الرجل ما
يجري -.. أمسكه من نراعه وفكر قليلاً فيما سيقوله له، ناظراً إليه بعينين

يملؤهما الأسى جاويتهما شجرة من الكابتن .. أنظر، يا بلادي، لقد ظلمت
زمنًا طويلًا حبيس منزلك وفي رأسك مدفع رشاش، ولم تشف تمامًا بعد،
والأفضل ألا يتركوك تتجول هنا...

- إنه بخر، مادة مائعة - قاطعه الكابتن .. وهناك أنواع كثيرة من
الغازات. غاز المناجم، مثلاً، غاز الكلور، السام والخانق، الذي يغزو الخنادق.
الغاز المنزلي، الساكن والزاحف. الغاز الأخضر للبحيرات والسود، وهو
منوم... لماذا تظن أنهم يفتتحون كل هذه البحيرات في هذا البلد؟
- حسن تمامًا، فهمنا! والآن اذهب، لدي عمل كثير.

- نعم، صب الماء في اللبن، هذا هو عملك. هل توقع أم لا توقع؟
بعد شد وجذب أفلحت في إخراج الكابتن إلى الشارع. في ذلك اليوم
ريحت بالكاد جائزة كل مساء، مجلسي المفضل في قاعة البرج الدافئة،
منهمكا في الظاهر في الرسم لكنني في الحقيقة أنتظر بفراغ صبر ظهور
فوركات في الكيمونو الرائع ذي الأكمام الواسعة حيث يخفي يديه، أن أراه
يجلس بتمهل وشرود شديدين على حافة فراش سوسانا. وأحرق برهة طويلة
في عينه المزاحة عن محورها في الضوء الكليل القادم من الحديقة بينما
يفتش هو بالتأكيد عن الكلمات التي يواصل بها حكايته، عندها كنت أترك
القلم وأنهض من طاولة السرير دون أن أحدث ضجيجًا وأتسلل حتى
السرير لأجلس على الجانب الآخر بجوار سوسانا وأتمكن على هذا النحو
من الاستماع إليه عن قرب، وأترك نفسي لاشتباك مثلها في الشبكة الكثيفة
لصوته وفي الملقاط المفتوح لنظرتي، تلكما العينان المتأهبتان اللتان تقلبان
في الذاكرة دائمًا في اتجاهين متعارضين.

والآن فإن هذه المدينة والأيام التي تولد فيها تتسم بضوء عابر ويمسحة هائلة: قد تقولين إن إعصار الحياة يمر بعيدًا عن هذا، بعيدًا عن فراشك، وأنه قد نسيك. لكن ليس هذا حقيقيًا. فحتمًا وسواء شئت أم أبيت، بسعار أكثر وعلى نحو أبقي من المرض الذي يضايقك الآن، سوف يعيدك العالم بحمّاه وبأوهامه عليك أن تتعلمي العيش معها، مثلما فعل كيم وأصدقائه.

في ذلك الحين، كان ما يدفع هؤلاء الرجال الذين طرحوا تغيير العالم، ما كان يحفزهم على الحياة الخطرة، مضحين بالأمن وبإعزاز عائلتهم وبتقديرهم لأنفسهم في حالات كثيرة، كان بضعة أشياء لم تعد اليوم تهم أحدًا وسرعان ما سوف تُنسى. وربما كان ذلك أفضل؛ فالنسيان، في نهاية المطاف، هو استراتيجية للعيش. لكن الحاصل أن كيم، فضلًا عن همومه المعتادة، لا يكف عن التفكير في طفلة العزيزة ويتمنى أن يراها بصحة وسعادة.

كل ما أقصه عليكم سمعته من قم كيم نفسه خلال أمسية ممطرة قضيناها معًا نشرب البيرة في مقهى صغير بشارع ست تروبادور^(١)، في تولوز، عشية عودته النهائية إلى شنغهاي وعودتي إلى برشلونة. وإذا كنت أخترع شيئًا، فإنها تفاصيل صغيرة لنقل أنها تتعلق بالجو وخربشات للذاكرة، أصداء ورنات معينة لا أستطيع تفسير من أين تأتي أو بدا لي أنني سمعتها بين طيات ما كان يحكيه لي، لكنني لا أضيف ولا أ حذف شيئًا جوهريًا من حكايته، من مغامرته الغريبة التي ستحمله خلال أقل من خمسة عشر يومًا إلى الشرق الأقصى.

(١) rue de Sept Troubadours : التروبادور نور السبعة - م.

بعد أسبوع من تسليم كارمن والابن إلى دنيس، الذي بكى فرحاً عند رؤيتهما، يثير اعتقال نوالارت ورفاقه في برشلونة كل أنواع الشكوك في اللجنة المركزية فيسافر كيم إلى باريس للاجتماع بشيوعي اسباني يؤكد حصوله على معلومات سرية عما حدث. لكن تلك المعلومات تأتي من مصادر غير موثوقة كما تتسم بالجموع؛ فبين شطحات أخرى، يلمح التقرير إلى احتمال وشاية من جانبي في قيادة الشرطة الرئيسية في برشلونة مقابل عفو مفترض. كل هذا يسبب ضيقاً بالغاً لكيم، الذي يرفض تماماً أي شبهة خيانة. وكان قد خرج ثائراً من المؤتمر الأخير لنقابة الاتحاد القومي للعمل^(١) في تولوز والآن يجد نفسه قانطاً وقد سنم كل شيء: سنم الأحقاد الأبدية للشيوخيين وعدم مساندته بسبب انتمائه الفوضوي، سنم أوامر لجنة الاتحاد التي تلغي مبادراته، سنم الانقسام بين مختلف تيارات الاتحاد القومي للعمل والصراع الذي لا ينتهي والذي يتساقط نتيجته أفضل الرفاق...

وعند الغروب يتمشى على ضفة السين متسائلاً ماذا يجب أن يصنع بحياته. فكان السين هو تلك الرغبة المعتدة والغامضة في السعادة التي تفيض بجواره في صمت، والتي تصاحبه يوماً والتي تأتي اليوم طافحة ويبنو كأنها تريد نفي ذاكرته المنهكة، المشبعة بالعنف والموت. إلا أن هذه الرحلة إلى باريس لن تكون بلا طائل كما يظن، وسرعان ما سيجد نفسه قافراً من نهر السين إلى نهر الهوانج - بو، واضعاً للمرة الأولى في حياته محيطاً هائلاً بين عمومه السياسية المقاتلة وبين شوقه إلى إعادة إقامة نوع ما من الحياة الخاصة معك ومع أمك، أينما كان وفي أسرع وقت.

(١) الاتحاد القومي للعمل CNT : نقابة فوضوية - سنيكالية إسبانية - م.

لكن لنمض بالترتيب. إذ يحدث أنه في آخر أيام إقامته في العاصمة الفرنسية، في منزل أحد الرفاق، يتلقى من عيادة فوتران مكالمات تليفونية من ميشيل ليفي، وهو صديق فرنسي لم يره منذ ما قبل تحرير باريس بقليل. تحت الاسم المستعار كابتن كرواسيه، كان ليفي رئيس كيم في ليون حين كان الاثنان يناضلان في صفوف المقاومة. وفي مارس عام ١٩٤٣م، أثناء عملية تخريب ضد دورية ألمانية أنقذ الكابتن كرواسيه حياته ولن ينسى له كيم هذا الصنيع أبداً. كانت لدى ليفي نوافع أكثر من كافية لكرهية النازيين وقد قاتلهم بحماس حقيقي. فأبوه واثنان من إخوته، الذين اعتقلتهم قوات العاصفة^(١) بعد الحملة الكبرى لاعتقال اليهود في فل ديف^(٢) كانوا قد ماتوا في غرف الغاز في معسكر اعتقال تربلينكا ونجا بقية العائلة بالهرب من فرنسا. وانضم هو إلى المقاومة وقبل التحرير بقليل اعتقله الجستابو وعذبه، وبقيت من جراء ذلك عواقب بدنية ولا بد له الآن من إجراء عمليتين جراحيتين بقيقتين. يقرر كيم زيارته قبل العودة إلى تولوز.

عيادة خاصة على مشارف باريس، يستقبله رجل متهالك، مطروح على كرسي بعجلات، لكنه مرح ومبتسم. يتعانقان، ويتبادلان النكات والذكريات. ماذا تفعل في باريس، مون فييو؟^(٣) كما ترى، يقول كيم، ما زالت أفعل نفس الشيء، ما حيلتنا، في أسبانيا لم ننته بعد من تلك الطغمة... وبدأت أعتقد أننا لن نفلح أبداً. أتيت إلى باريس دون رغبة ومن أجل لا شيء في النهاية، من أجل خناقة أخرى. لكنني الآن سعيد لأنني على هذا النحو استطعت أن أعانقك.

(١) الـ SS : قوات العاصفة، قوات خاصة نازية - م.

(٢) Veld'ttis.

(٣) mon vieux : يا صديقي المجوز. بالفرنسية في الأصل - م.

يتبين ليفي قنوطه العميق. لا تظن أن الأمور سارت معي على نحو أفضل، يقول له لكي يرفع معنوياته، يبدو أن النازيين قد أفلحوا أخيراً في تحطيم عمودي الفقري وهائذا أمامك، لا يدري الأطباء ماذا يفعلون بي. ويحكى له تقلبات حظه منذ انتهت الحرب: فبعد إجراء العملية الأولى في العمود الفقري، انتقل إلى الشرق الأقصى ليشرف على بعض الأعمال العائلية المرتبطة بالتجارة البحرية. فليفي ينتمي إلى عائلة فرنسية ثرية جداً، ذات علاقات راسخة في شنغهاي منذ سنوات طويلة وتمتلك عدداً من الشركات والتوكيلات: شركة الترام، وشركة ملاحية، ومصنع نسيج وعدة مطاعم. وقد وقع ليفي في حب شنغهاي منذ اللحظة الأولى وقرر البقاء، تولى إدارة الشركة الملاحية والمصنع ومنذ ستة أشهر تزوج فتاة صينية تدعى تشن جينج فانج، هي ابنة تاجر أفيون من تيانجين. إنه سعيد في زواجه، وأعماله تسير سيراً حسناً، ويملك سمعة قوية في الأوساط الجمركية والمصرفية لشنغهاي... لكن كل هذا الآن معلق بخيط رفيع. فقد ساءت حال عموده الفقري كما أنهم لا بد أن يزيلوا له جلطة في المخ، وهكذا فقد جاء إلى باريس ليضع نفسه بين يدي جراح أعصاب شهير. العملية الأولى تتطوي على مخاطرة، وإذا خرج منها سليماً، فإن العملية الثانية الأخطر في انتظاره: في أفضل الأحوال، لن تقل إقامته هنا عن أربعة شهور. ولكي يجنب زوجته معاناة بلا طائل، لم يسمح لها بمرافقته. سيجرون له العملية خلال أسبوعين أو ثلاثة ولا يخشى أن يموت في غرفة العمليات؛ لكنه، في المقابل، يخشى على حياة تشن جينج فانج.

- لهذا، عندما علمت أنك في باريس، لم أتردد في مكالمتك.. - يدفع ميشيل ليفي نفسه في كرسيه ذي العجلات مقترباً أكثر من كيم وعلى وجهه علامات القلق.. أود أن أطلب منك معروفاً، يا صديقي، معروفاً كبيراً لا يمكن أن يصنعه لي سواك.

- اعتمد عليّ. بأي شيء يتعلق؟

- هل تتذكر كروجر، كولونيل الجستابو الذي عذبني في ليون؟

- كيف لا أتذكر ذلك المجرم.

- هل رأيت شخصياً ذات مرة؟

- لا. في إحدى المناسبات أطلقنا الرشاشات على عريته الرسمية لكن ابن الحرام هرب على شعرة، بأن أقعى في المقعد الخلفي. بالكاد رأيت قبعته العسكرية.

- إنه في شنغهاي - يقول ليفي برقة، كأنه يود تخفيف الأثر السيء الذي يمكن أن يحدثه هذا الخبر في رفيقه القديم.. هيلموت كروجر يسمى نفسه الآن عمر ما ينينجن ويدير ملهى ليلياً، هو يلوسكاي كلوب^(١)، وبعض بيوت الدعارة. وقد جمعت معلومات عنه: هرب إلى أمريكا الجنوبية قبل نهاية الحرب، وعاش في الأرجنتين وتشيلي على تهريب السلاح ثم قفز إلى شنغهاي. إنه رجل معروف جداً في الأوساط الليلية للمدينة وأقسم أنه في حماية منظمة من النازيين السابقين تهرب السلاح ولها ارتباطات بالكومنتانج.

(١) Yellow Sky Club.

أوضح لكيم أنهما قد تقابلا صدفة في حفل استقبال بالقنصلية الإنجليزية قبل يومين من رحيله إلى باريس وقد أصبح مسمرًا في هذا الكرسي ذي العجلات، وأنه قد تعرف عليه في الحال رغم الشعر المصبوغ، والشارب، والابتسامة الودية. وأن كروجر كذلك قد عرفه، رغم تظاهره بأنه لا يرى سوى جينج فاتنج.

- في البداية فكرت في أن أبلغ عنه يهوديًا صائدًا للنازيين أعرفه في نيويورك - يقول المشلول - وقبل أقل من عام، حين كنت لا أزال سليمًا، كنت سأصفيه أنا شخصيًا... أما في حالتي هذه، فقد قررت الانتظار وتخطيط شيء مأمون عند عودتي، بعد إجراء الجراحة. لكن هنا في باريس هاجمتني فجأة كل أنواع المخاوف. فماذا لو بقيت متخشبًا فوق طاولة العمليات؟ لقد عرفني هذا الوحش الدموي، كما قلت لك، وفي اليوم التالي بعث لي شخصًا مجهولاً بهذا التهديد: إذا لم أمارس استراتيجيات النسيان الحكيمة، فإن زوجتي وأنا سندفع الثمن في أقل الأيام توقعًا، هي أولاً. هل تعرف ما يعني ذلك؟

- هل تريدني أن أجهز عليه؟ - يقول كيم.

- أريد قبل كل شيء الحماية لزوجتي. لكن الأفضل طبعًا أن نقطع عرقًا ونسيل دمًا.

- موافق.

- سيكون عليك أن تتصرف بمفردك - يقول ليفي - لا يجب حتى أن نتحدث في الأمر مع جينج فاتنج، بل أن نحملها فقط. أنصت، يا صديقي العزيز - يحيل نحو كيم من كرسيه المتحرك ويمسك بذراعه. ويلاحظ كيم

تقلص أصابعه .. لو حدث شيء لجينج فانج، لفضلت ألا أخرج حيًا من هذه العيادة. فأنا ضائع بدونها ... يبتسم خجلًا بعض الشيء ويضيف :- أتدري ماذا يعني اسمها بالصينية؟ جينج تعني الهدوء وفانج تعني النضارة... وهذا ما جلبته هذه المرأة الرائعة إلى حياتي.

- هدى روعك - يقول له كيم - سنتولى أمر ذلك الألماني اللعين.

- كنت أعرف أنك لن تخذلني.

سيعطي تعليمات لرجاله لكي يحصل كيم على كل ما هو ضروري في أسرع وقت. «لا يجب أن تفارق جينج فانج»، يضيف ليفي، «وهكذا فإنك ستقيم في المنزل، في أعلى ناطحة سحاب في البوند، أشهر شوارع الشرق كله». سيكلم زوجته تليفونيًا ويقول لها إن كيم بمثابة أخ بالنسبة له، وأنه سيذهب إلى شنغهاي... بحثًا عن عمل، مثلاً.

- ستكون موضع ترحيب - يقول ليفي - لكنني لا أدري بعد كيف أقنع جينج فانج بضرورة أن تدعك تصاحبها في كل مرة تخرج فيها وحيدة أو بالليل... هذا دون أن أحدثها عن كروجر ولا عن تهديده، أتفهم ذلك؟، لأنني لا أريد إزعاجها. في النهاية، سأجد تفسيرًا مقنعًا.

يوافق كيم متفكرًا، ثم يبدي ملاحظة: مسألة السفر إلى مكان بعيد كهذا بحثًا عن عمل، قد يبدو بصراحة غريبًا بوصفه عذرًا، يقول، لكن، ماذا إذا كان حقيقيًا؟

- ماذا تقصد؟ - يقول ليفي.

- أقصد أن لا شيء يمكن أن يجعلني أكثر سعادة من العمل لديك في إحدى شركاتك، لن تكون قد نسيت أنني مهندس نسيج، رغم أنني لم

أمارس العمل أبداً بسبب الحرب والمنفى... لكنني إلى جانبك لن أتأخر عن ملاحقة ما يجري.

يتفحص ميشيل ليفي وجهه في صمت.

- بون شك - يقول - لكن، هل خاب أملك هكذا في النضال؟

- أعتقد أن ساعة الإحالة على الاستيداع قد حانت. أن آخرين يمكن أن يقوموا بذلك أفضل مني. وأود أن أخرج من إسبانيا شخصاً أحبه كثيراً وأن أقدم له مستقبلاً.

- أفهمك. لكن، في شنغهاي؟

- ولم لا؟ كلما كان أبعد، كلما كان أفضل.

يفرح ليفي ويؤكد له أن بإمكانه الاعتماد عليه، بالطبع. سيتحدثان في ذلك حين يعود وقد شفي إلى شنغهاي ويمكنهما الاحتفال بذلك.

- الأمر الأكثر إلحاحاً الآن هو كروجر - يضيف بصوت أصبح فجأة مشروخاً، منتقماً ... انتبه جيداً، والأهم ألا تؤخذ على غرة، إنه صارم جداً وليس لديه موانع من أي نوع. أكرر: يدعى عمر ماينينجن وهو مالك اليلوسكاي، النادي الليلي الأكثر حداثة والأكثر «شياكة» في شنغهاي. هناك يمكن أن تراه في أي ليلة...

ينصت كيم مشدوداً، ومبهوراً بالصوت المحطم والمسموم للبطل، المحطم مثل الجسد الذي يضمه والمسموم مثل ذاكرة الألم التي يبعثها ذلك الجسد. وغائباً عن كل شيء إلا عن ذلك الصوت وذلك الألم، مخلصاً لوعده حميم بالصدقة والامتنان، فإنه يستعيد الآن بسرعة مشاهد عنف ومهانة لم يكن يود أن يستحضرها أبداً ولا حتى من باب التضامن مع الضحايا، ولذا

لا يستطيع أن يرى العلامة المقعية عند قدميه، لكنني أنا أراها، نحن نراها: عقرب من النار يزحف في نواثر مشتركة المركز على البلاطات البيضاء اللامعة، مطوقًا الصديقين ومديرًا زبانه المرفوع من جانب لآخر، ذلك الظفر القرمزي المشتعل. قد تقولان لي، كيف يمكنك أن تعرف كل هذا ولم تكن موجودًا هناك؟ من أين تأتي بتلك التفاصيل عن الصوت المسموم والعقرب الناري؟ وماذا يفعل عقرب في وسط معقم ومشرق مثل حجرة عيادة فلخرة على مشارف باريس...؟ إذا كنتم ذات مرة قد راقبتما طويلًا غسقًا أحمر، منتظرين حتى النهاية لتريا كيف ينكفي على نفسه الوميض الأخير الأشد رقة، كيف يعكس الضوء قبل أن يموت، فسوف تعرفان عم أتحدث.

حين يدفع ليفي عجلات الكرسي ليقرب من كيم، يسحق العقرب. لم يكن هو أيضًا قد رأى وميض ظفره المسموم، ويسأل بقلق:

- متى تكون جاهزًا للسفر؟

- حين تقول أنت، يا كابتن - يرد كيم دون تردد.

- سأتولى فورًا أمر التأسيس والنقود. ستركب في مارسيليا سفينة شحن تابعة للشركة، القبطان صديقي وسوف يخصص لك قمرة جيدة... ستساعل لماذا أجعلك تسافر في إحدى سفني وليس في طائرة، إن لم يكن لكي أوفر على نفسي بضع دولارات. بالطبع لا، السبب هو أنك، بالمناسبة، ستسدي لي صنيعةً آخر. السفينة هي نانطوكيت^(١) وفي كابينة القبطان يوجد شيء يخصني ويلزمي استعادته. إنه كتاب صيني لشخص يدعى لي يان، غلافه أصفر وبداخله رسوم جميلة كثيرة؛ ستعرفه كذلك لأن في صفحته

(١) Nantucket.

الأولى إهداء بحروف صينية مكتوب باليد بحبر أحمر، بجوار بقعة من أحمر الشفاه. أريدك أن تحصل على هذا الكتاب في تكتم، دون أن يشعر القبطان. ولا تسألني الآن عن السبب، فسوف أقصه عليك في شنغهاي... إذا خرجت سليماً. هل أستطيع الاعتماد عليك، مون أمي؟^(١).

- اعتبر الأمر منتهياً.

- ماذا تحمل من متاع؟

- فرشاة الأسنان ومسندس براونينج بمقبض من الصدف.

يبتسم بطل المقاومة في كرسيه ذي العجلات.

- أرى أنك لم تفقد الشجاعة ولا المرح.

- بقي لي من الأولى أكثر من الثاني - يقول كيم.

- حسناً. ستحتاج إلى ثياب ونقود. سأجعلهم يسلموك ثلاثة آلاف دولار

وتستطيع في شنغهاي أن تشتري ما تشاء.

- ظننت أن اليابانيين قد نهبوا.

- على الإطلاق. في شنغهاي ستجد ما لا تجده هنا في باريس، أرخص

وأفضل. وحين تصل إلى هناك، إذا احتجت المزيد من النقود أو أي شيء، لا

تتردد في طلبه من شريكى، اسمه تشارلي وونج؛ سأعطيه التعليمات. لا أريد

أن ينقصك شيء. أشرت ثياباً جديدة - يبتسم ليفي، دون أن يتمكن من أن

يمحو تماماً انقباضة ألم من شفتيه - يجب أن تكون وسيماً لتصاحب جينج

فانج، فهي جميلة جداً... شيء أخير - يخرج من جيبه شيئاً ضئيلاً ونحاسياً

يريه لكيم في قبضة يده... أترى هذا، يا رفيق؟ أتدري ما هو؟

(١) mon ami : يا صديقى، بالفرنسية - م.

- يبدو أنها طلبة مسدس تسعة ملي قصير.

- هي كذلك. إنها الطلقة التي غرسها الكولونيل كروجر في عمودي
الفقري والتي مددتني في هذا الكرسي المتحرك. أريدك أن تضعها في فم
هذا السفاح اللعين، بعد أن يموت.

يوافق كيم في صمت، محققاً النظر في الطلقة كأنما ليقس غضبها
النائم والبارد في عش راحة اليد الوردية. لكنه الآن لا يفكر في ذلك، لا
يقيس الخطر ولا الصعوبات، ولا يحسب المدى ولا المسار الملتوي للغضب
الذي لا يكف والانتقام الذي لا يقبل التأجيل الذي سيرحل معه عبر بحار
وقارات. إنه يفكر فيك، في هذا العش الآخر للوحشة الذي تتمدين فيه وفي
كيفية إخراجك منه. كم مرة منذ ذلك اليوم، وقد صار على يقين من اجتماع
الشمل في شنفهاي، تخيلك تتمشين باسمه وقد شفيت من الحمى تحت
الأشجار الوارفة على ضفة نهر الهوانج - بو، متعلقة بذراعه وفي غاية
الوسامة بدبابيس من اليشب تلتصق في شعرك ورداء من الحرير الأخضر،
محبوك تماماً ومفتوح من الجانبين، مثل الشابات الصينيات الأنقيات...

٣

كل خمسة عشر يوماً تقريباً، كانت نوتيا كونشا تمر بالبرج لأخذ
التطريز الذي تشتغله السنيورة أنيتا وتكليفها بغيره من تصميم مشابه
وسهل، عادة ما يكون مفارش صغيرة وقطعاً لوسط المائدة. واعتادت أن
تحضر المريضة قبضات من زهر البيلسان تغليها في الماء ثم تدلك لها
صدرها وظهرها، وكانت تتبادل النكات مع فوركات وأحياناً ما تساعد
السنيورة أنيتا في أعمال المنزل لبعض الوقت، وعند منتصف مايو، حينما

انتشرت الأزهار الصفراء على جوانب جبل بيلادا، كان فينيتو تشاكون وأخوه يهبطان من التل بملء أذرع من الرتم^(١) من أجل سوسانا لتنتثره هي على الفراش. فقد كان الأصفر هو لونها المفضل، بعد الأخضر.

وكل خمسة عشر يوماً كذلك، في أيام الأربعاء، كان يزور سوسانا الدكتور بارجاو، وهو شخص في الستين سمين ومتجهم يسكن قرب حديقة جويل ويجوب الحي وجيوب جاكته المخرومة مليئة بالحلوى يجرجر ساقيه كأنهما من رصاص. كان يحضر لسوسانا مجلات السينما ويمسك يدها، ويجلس إلى جانبها جاعلاً الفراش يغوص ويضع الترمومتر في فمها، وكان يعطيها سينيكلول مذاً في الماء ثم يفرس في وريدها حقنة كالسيوم عادة ما تصيبها بالاختناق والدوار. كان الدكتور بارجاو أصلياً تعاماً، وربما لتعويض هذا النقص، كانت تخرج من أذنيه باقة مشعثة من الشعرات المحمرة التي تبدو كحلية زهرية. «كيف حال ذلك السعال، يا طفلي؟» ويقرص خدها المحموم... ارفعي القميص وأريني ظهرك، وماذا عن تلك الشرطات، ألا تريد أن تختفي تماماً؟ سبعة وثلاثون وثمانين شرطات، حسناً، دائماً ما ترتفع قليلاً في المساء، وفجأة يلصق أذنه المزهرة في ظهرها ليستمع إلى الرئة المتعفنة. وأحياناً ما كان يحسن تقنية التسمع بمساعدة شلنين من الفضة: كان يضع واحداً فوق صدر سوسانا وينقره بحافة الشلن الثاني بينما تلتقط أنه فوق الظهر المقوس رنين التجويف: كان يخلق عيني

(١) الرتم ginesta و retama : عشبة شائعة في غرب أوروبا من فصيلة Cytisus تنمو في الأرض غير المزروعة ولها فروع دقيقة تحمل أوراقاً صغيرة وزهراً صفراء - م.

ويزوم ويهمهم، كأن الرئة تحاشته. لكن حركاته الحادة كانت تخفي رقة حبيبة لا تظهر إلا حين يطل من عيني المريضة القلق من البلغم والرعب من الموت. فمثلاً، عند وضع السماعة على صدرها، كانت عينا سوسانا تصبحان فجأة مثبتتين في الفراغ بلا حيلة، أو تبحثان فزعيتين من عيني أمها أو عيني أنا؛ كانت تلك نظرة لا أستطيع تحملها، لكن الدكتور بارجاو يعرفها جيداً فكان يخبط المصنورة خبطة رقيقة على رأسها قائلاً: «أنت في خير حال وبارعة الجمال».

بعدها كان يصر على نفس الشيء دائماً: الراحة التامة والبفتيك الجيد، والبهجة، وأولاً البهجة. وكانت السنيورة أنيتا تبتسم وترد بلهجة مزاح أنها هي أيضاً تود كثيراً لو كتب لها رويشتة بكل هذا، وحينئذ كان الطبيب، بينما يرفع الترمومتر ويتأكد من تلك الشرطات الزائدة التي تلازم سوسانا، يصوب نظرة مختلصة متجهة وساخرة تصعد ساقى عاملة التذاكر الشقراء المنتصبة بجوار الفراش وذراعاها مكتوفتان وقدح النبيذ في يدها، ورداؤها البنفسجي المفتوح تظهر بطانته التي تحك بفخذيها ويطننها، حتى تصل إلى صدرها: «أنت لا تحتاجين لا إلى البفتيك ولا إلى المزيد من البهجة، يا أنيتا، فمن هنا يمكنني أن أرى كبك المسعور... وأعضاء أخرى أمتنع عن ذكرها.» فكانت تضم متعجلة طيات الرداء وحتى العنق وتطلق ضحكاتها المشبعة بالتبغ.

- ولا أريدك أن تسخني هنا - كان الدكتور بارجاو يضيف.
- منذ الذي يدخن هنا؟ - تقول السنيورة أنيتا - أنا لا أفعل أبداً.
- همم. أقول من باب الاحتياط.

كنت أنتهز فرصة هذه المناوشات، التي تتكرر كثيرًا ويبدو أنها تضايق سوسانا أكثر من يدي الطبيب الوقحتين فوق جسدها، لأتوقف عن طيب خاطر عن رسمي التعس، الذي كان يخرج من يدي مبططًا، دون منظور. لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر، فأسوأ ما في هذا الرسم اللعين أنه كان لا يوحي بشيء. كنت أضع في ذهني بخان المدخنة الأخضر المسود والمليء بالفقاقيع. فحسب كلام الكابتن كلاي، كان وجود هذه الفقاقيع السيامة والمنفرة فوق فراش المسلوطة أمرًا بالغ الأهمية، وحاسمًا. كان قد شرح لي ألف مرة كيف يدخل هذا الدخان رئة سوسانا ويغذي باسيللات كوخ، كيف يقرض الشعب الهوائية ويثقل على قلبها، لكنني كنت أقول لنفسي: أيمكن رسم ما لا يرى؟

كنت أعمل جالسًا على منضدة السرير، على بعد أمتار قليلة عن الفراش وقريبًا من المدفأة، وكان الركود الغريب للهواء حول المريضة والضحكة الأجشة لامها، والميوعة الخفيفة لأبخرة الكافور، والإبرة في لحم سوسانا الأبيض ورائحة الكحول وشمس العصر الحمراء على الزجاج تبدو لي جميعًا وكأنها العناصر المرضية لجو فريد وخارج الزمن، مفعم بالحسية وبالميكروبات، لن أفلح أبدًا، كنت متأكدًا من هذا، في عكسه في الرسم. لم يكن هذا مجرد اقتناع، بل بالأحرى إحساسًا بدنيًا! في وسط هذا الجو الشبقي، المحمل دومًا بالروائح، والمذاق، والرطوبة، كان الجسد يطالب سرًا باهتمام أكبر ويطرح إيمائية متقلبة وعابرة.

خلال الزيارة الطبية، كان فوركات يبقى في غرفته. كان الدكتور بارجاو يعرف ذلك وأعتقد أنه كان أحيانًا يطيل فحص المريضة لمجرد

الفضول والرغبة في معرفته، لكن الضيف لم يظهر حتى الزيارة الرابعة أو الخامسة وحدث ذلك بطريقة غير متوقعة؛ فقد دخل إلى القاعة حين كان الدكتور يضع السماعة في حقيبته وطلب منه أن يكتب لسوسانا شيئاً ضد الأرق. «لا يوجد شيء فعال ضد ذلك» أجاب الدكتور بارجاو، وبعد أن لاحظته من فوق لتحت أضاف ببعض الملاحظة: «إلا الرغبة في الناس. قلت شرب الكثير من اللبن.» لكن لم يكن ليفوته القلق المخلص الذي تعكسه سحنة هذا الرجل المهتد والميتصلب، وإعزازه للطفلة، فحين قدمت السنيورة أنيتا على الفور على أنه «صديق عزيز لزوجي يقضي بضعة أيام معنا» أبدى تجاهه صراحة ووداً أكبر.

.. لا تظن أن مسألة اللبن هذه دعابة.. قال مبتسماً.. كانت لدي مريضة بالأرق، في نفس سن سوسانا، وقد شفيتها على أساس كوب من اللبن الساخن كل ليلة عندما تؤول إلى فراشها... مع المواعظ الإذاعية للأب لابور، بالطبع. أطلق قهقهة فابتسم فوركات، رغم أنني أعتقد أنه لم يعرف جيداً من كان ذلك الواعظ. أحست سوسانا بالدوار فاصطحبتها أمها إلى الحمام، وظل الاثنان برهة يتحدثان، أو بالأصح، تحدث الدكتور بارجاو واكتفى فوركات بالإنصات بانتباه إلى نصائحه الخاصة بأوجه الرعاية التي تحتاجها المريضة، ترتيلة من النصائح كنا نحفظها أنا والسنيورة أنيتا عن ظهر قلب وتتخلص جميعها في نصيحة واحدة: يجب رفع معنوياتها، حفز رغبتها في الأكل وفي الحياة، والباقي سيأتي من تلقاء ذاته.

كان الدكتور بارجاو على علم بجولاتنا أنا والكابتن لجمع التوقيعات، ورغم أنه أثنى على المبادرة، فإنه لم يتردد في وصفها بأنها عمل جبان مثير

للضحك، واعتقد نفس الشيء بالنسبة لرسم سوسانا الذي يجب أن يخرج العمدة. وفي زيارته الأخيرة، لاحظ رسمي وربت على ظهري بحماس.

- والغان، يا فتى؟ - داعبني - بأي لون سترسم الغان؟

- الغان لا يُرى - غمغمت.

- بجدة؟ هل قال لك ذلك المأقون بلاني؟ مرحى، مرحى.

كذلك لم تكفّ سوسانا عن السخرية من الكابتن، ومن المدخنة وانبعاثاتها السامة. وبينما أرسمها، اعتادت أن تنتظر إليّ سادة أنفها كأنها لا تستطيع احتمال الرائحة الكريهة وتظاهر بالإغماء فجأة ونصف جسدها متدل على جانب الفراش في الهواء. لم توافق أبداً على خط واحد من هذا الرسم وصنعت المستحيل لتثيبي وجعلي أتخلى عنه، وأبدأ في الآخر.

- عليّ أولاً أن أنهي هذا وأرى كيف يبدو - قلت - ألا تفهمين أن الفراش والقاعة وكل ما يوجد هنا، بما في ذلك القط والمدخنة والغان، سيكون هو هو في الرسمين؟ أنت فقط ستكونين مختلفتين: ستكونين قد شفيت.

في الحقيقة، كنت أؤخر الرسم عامداً. فقد كان يمكنني الانتهاء منه، جيداً كان أم سيئاً، خلال أسبوعين، إذا عملت باجتهاد، لكن كان يروقني أن أبقى مع سوسانا أطول وقت ممكن. ولذا كنت أمزق ورثاً كثيراً وأكرر كل شيء تقريباً المرة تلو المرة، الفراش، والزجاج، والقط القماش، والدخان الأسود، وقبل كل شيء، هي، المصدورة المسكينة التي تتنفس بصعوبة في فراش الألم، كما كان يود أن يراها الكابتن. كانت لدي بالتأكيد صعوبات في إظهار التفاصيل وإقامة العلاقات بين الأجزاء - الرأس الساقط للمريضة

فوق الوسادة وتهديد المدخنة في الخلفية، كأنها ستسقط فوقها، وتجانس
المصاريع الزجاجية والشخبطة السوداء للمدفأة - لكنني لو أردت، لكنت
انتهيت منه قبل ذلك بكثير.

٤

بلغ الكابتن بلاي الجانب المشمس من الشارع، وضع قدمه فوق حافة
الرصيف واستدار لينظر إليّ وذراعه خلف حقويه، دون أن يترنح. في بعض
الحانات كانوا يثقون به وفي بعض الأيام كان يفرط في الشراب ويتلعثم
لسانه، لكنني لم أره يترنح أبدًا.

- إقترب وشم - قال مشيرًا إلى البالوعة - الناس لا يريدون أن يعرفوا
شيئًا ويتجاهلون الأمر تمامًا، لكن لا بد أن هنا بالداخل مئة ألف مليون جرد
ميت على الأقل، ونحو ستة من الهياكل العظمية من عمال صيانة البالوعات...
أخبرني بالتفصيل عما تحت الأرض المظلم لبرشلونة وأكد أن كل
شبكة المجاري والأنفاق تحت الأرضية أصبحت تحتوي على كم من الغاز
المتراكم، الناشئ كله عن تسرب ميدان روبرا، بحيث أن شرارة صغيرة
تقفز من عجلة ترام إلى داخل إحدى البالوعات يمكنها أن تجعل المدينة
برمتها تتطاير في الهواء بميقاتها وحاجز أمواجها، وجبل مونتجويك
والرملة^(١) الدائمة المرح والقريبة من النفس.

- إنه استفزاز بالغ الوضوح - قال دون أن يرفع عينيه عن البالوعة -
ولن يفيد عدم الرغبة في معرفة الأمر أو الإلتناء للنظام.

(١) Ramblas : ممشى رئيسي في بعض المدن الإسبانية يناظر ساحات الرملة والرميلة في
المدن الغربية - م.

ولكي أغير الموضوع الوسواسي والكثير التكرار، سألت الكابتن عن عدد سنوات عمره فقال ضعف عمر فرانكو ومن أنجبته، أو بالأحرى مائتان وواحد وسبعون عامًا، حسب حساباته.

- خذ، أمسك هذه - وأعطاني الحافظة بالتوقيعات، وفك لباسه وشرع في التبول بهدوء داخل البلاطة -.. كذلك لا يجب الإشفاق على الموتى كثيرًا، فهم لا يعرفون أنهم موتى.
- مرة أخرى، لا، من فضلك - تضرعت - لا تفعل بي هذا في الشارع، يا كابتن.

- كذلك لا يجب اقتراض - واصل يون أنني اهتمام بي - أن المرء يجب أن يكون في حال بالغة السوء في العالم الآخر، أعتقد، لأن الرجوع إلى هنا، الرجوع بكل معاني الكلمة، الرجوع لمواصلة ابتلاع العصيدة والخراء مع نفس المرأة وتحت نفس الراية، لا أحد قد عاد على حد علمي، لا أحد - وهز قطعة الجلد الداكنة مثل تينة وأعادها إلى لباسه -.. كلما أعدته بعد التبول، أفكر فيما قاله ذلك الجنرال عندما مل سيفه، لكنني لا أتذكر أبدًا أي لعنة قال بالضبط...

كنت شائراً لأنني في هذا المساء لم أستطع دخول البرج؛ فحين وصلت رأيت شيش القاعة مغلقاً وقال لي فوركات عند الباب إن سوسانا لديها حمى وإنها الآن نائمة، ومن الأفضل عدم مضايقتها، وعليّ أن أعود غداً. كان يمسك قبحاً من الشيكوريا^(١) في يد وفي الأخرى كتاباً مفتوحاً يسنده إلى صدره، وأحسست من جديد بتلك الرائحة النباتية التي تحوطه، ومن ثم عدت إلى المنزل،

(١) الشيكوريا achicoria : الهندباء، نبتة ذات أوراق خشنة قابلة للأكل. أحد استخداماتها أن يتم بها غش القهوة - م.

وأثناء صعودي السلم، شاء حظي العاثر أن أصادف الكابتن. طلب مني أن أصحبه، وقال إنهم وعدوه ببعض التوقيعات في لاترايسيرا، وأنه لا يريد الذهاب وحده. كان ذلك كذبة أو أنه حلم به؛ اكتشفت أن الكابتن في المساء يكون أكثر جنونًا بكثير منه في الصباح. جعلني أقطع لاترايسيرا من ثرينيا حتى تورينت دي لوبيا، طارقًا في الذهاب أبواب الرصيف ذات الأرقام الزوجية وفي العودة الأرقام الفردية. إلا أن التوقيع الوحيد الذي نجحنا في الحصول عليه كان في حانة ومن اليد الطلوة بالزفت لماسح أحذية عجوز مخمور.

وفي طريق العودة إلى المنزل، عند الغروب، حين كنا نعبر ميدان جوانيك، انقطع رباط المطاط الذي كان يربط إحدى فرتي شيشب الكابتن فجلس على مقعد، وأخرج من جيبه رباطًا لفة حول قدمه. بعدها بقليل، غير بعيد عن معسكر الحرس المدني، رأينا عند الناصية رجلًا قصيرًا بمعطف طويل أسود ضيق جدًا، كان رجلًا مرعويًا. وقف يحك نعل الحذاء في حافة الرصيف بطريقة متكررة ووسواسية، كأنه قد داس على براز كلب. وفجأة انطلقت نراعه اليمنى ووقف يحيي في الاتجاه المعاكس لنا ونظرتة مثبتة فيما لا ندريه، حتى وصلنا إلى جانبه: كان عابر سبيل آخر يماثله في الخبل ومحني الرأس متصلبًا في نفس الوضع عند الناصية الأخرى، على بعد مائة متر، يحيي بدوره احترامًا أو بعدوى الخوف ناصية المربع السكني التالي، حيث كان يرى، مثل لعبة مرايا تبعث وهما بصريًا، رجل ثالث بعيد في وضع التحية كان نسخة من الاثنين الآخرين؛ ساكنًا مثلهما فوق الرصيف ووجهه للجدار، كان هو من يسمع خطبة عسكرية أو ربما نغمات النشيد الوطني: فقد كان أقربهم إلى المعسكر.

- «واخذ بالك؟» - غرس الكابتن كوعه في ضلوعي - الغاز قضى عليهم.
دخل في مهم وشل أعصابهم. ها هم أولاء، مفروسين كالأعمدة، سمعهم
الغاز بصورة بانسة في الطريق العام.

- لا، يا كابتن - قلت، متسلحًا بالصبر - لا بد أنهم ينكسون الراية في
ذلك المعسكر، رغم أننا من هنا لا نسمع شيئاً...

لم ينصت إليّ. بيديه خلف ظهره، أخذ يدور حول الرجل ذي المعطف
الأسود الواقف على الحافة متخذًا وضع التحية.

- ماذا جرى لك، أيها الرجل الطيب؟ - تسائل ناظرًا إليه بفضول -
أحاول حضرتك أن تجعلنا نصدق أنك ترتجف مثل شرنقة على إيقاع
النشيد الوطني المجيد، أم ماذا؟ هل يبدو لك جميلًا أن تسخر هكذا من
وضعنا المستحيل؟ حضرتك قد تسممت بالغاز تمامًا، يا سيدي، ومن العبث
أن تخفي ذلك.

دون الإخلال بالتحية الامبراطورية ونون أن يغيب عن بصره المحيي
الآخر الذي يمثل له مرجعًا للمحاكاة عند الناصية التالية، التقط الرجل
الضئيل بطرف عينه المرعوبة الرأس المعصوب والمظهر الغريب لمن
يستجويه وبدا أن رجفة تجتاحه: كان هذا أسوأ مما توقعت، فيما أظن. كان
وجه المحيي الخائف سقيمًا، ورائحته كريهة وفي فتحتي أنفه سدادات
قطنية، مثل الموتى.

- حذار - همهم بصوت لايبين - حذار.

- فات الوقت - قال الكابتن - إنك قد أصبحت مستعدًا. وأفضل ما
يمكن عمله أن تموت.

وجه إليه الرجل نظرة مختلصة قلقة أخرى.

- هل حضرتك رجل إعلانات أو شيء من هذا القبيل...؟ إذا كنت فسر
ودعني في هدوء، لو سمحت. ألا تفهم؟ - تضرع -. أنهم ينكسون الراية في
مكان ما...

- أي راية؟ - قال الكابتن.

- أي راية ستكون رايتنا.

- ألسنت حضرتك رعديدًا بعض الشيء لتتوقف وتحيي راية لا تراها؟
وماذا لو لم تكن رايتنا؟ أم أن الأمر بالنسبة لك مثلما هو بالنسبة لي، أن
كل الرايات تمثل لك نفس الشيء، أعني، خراء؟
- إصمت، إصمت.

- لا أريد.

- ألا تفهم حضرتك أنني أفعل هذا من باب الحيلة...؟ لا يمكن أن
تعرف أبدًا. انظر، ذلك السيد هناك يفعل نفس الشيء.

- حقي. ما يجب أن يقلقك حقًا هو أن هذه البالوعة تبصق السم. - غمغم
الكابتن لعنة ونظر إليّ - أترى، يا دانييل؟ يمضي المرء في الشارع في هدوء،
مفكرًا في أموره، ويتوقف لحظة بجوار بالوعة ليحيي سديقًا أو لينظر إلى
طائرة تمر في السماء ثم، هوبًا، ضاع، كابوت^(١) - راقب عن قرب اليد
المرفوعة، ذات الأظافر الطويلة السوداء والجلد الأصفر، التي حرقها التبغ، ثم
واجه الرجل على الفور وفحص عيون القار، والآنين الشاحبتين وهلال اللعاب
النباتي الذي يطفح من جانبي فمه -. لنر، أيمكن أن أعاونك في شيء؟

(١) Caput : مُحَرَّقة عن الألمانية وتعني لا يصلح أو لا فائدة منه - م.

- هيا ابتعد، أيها المارقون، لا تشغلني - زام الرجل، وهو يزداد انحناءً وانكماشاً، كأنه يخشى أن يتلقى ضربة من أعلى، لكن ذراعه ما زال مشهوراً.

أما الكابتن، بالمقابل، فلم تكن تؤثر فيه أدنى تأثير الحركة المتعجلة في الشارع ولا النظرات العابرة للمارين. كنت منذ برهة أجدب أطراف معطفه لكي أمضي به، حين وضع يده على كتف ضحيته العزلاء:

- حسناً، أتدري ما أحب أن أقول لك؟ إنك تبدو شخصاً مهذباً، إذا وضعنا في الاعتبار ما يجري هنا... ولهذا، ماذا نفعل بوقوفنا متصلبين؟ لماذا لا نذهب لتناول بعض كؤوس الخمر، هيه؟

في نفس هذه اللحظة، لا بد أن المحيي الآخر البعيد قد انتبه إلى أن الثالث والأكثر بعداً عنا، والذي لم تكن نكاد نراه لأن الظلام كان يهبط، قد خفض ذراعه، لأنه سرعان ما خفض ذراعه، وعبر الشارع محثياً ودلف في أحد الأبواب. وعند رؤيته، ترك رجلنا الضئيل ذراعه تسقط بدورها، وقد استرد أنفاسه، وهمهم قائلاً الوداع في داهية، أيها الجد، أنت رجل خرف، ورفع ياقة معطفه وانزلق باتجاه ممر سان خوان ملتصقاً بالجدران.

- الشيطان البائس، يستحق ما يجري له - علق الكابتن والآخر يبتعد - هل دقت في أسنانه الفاسدة وأذنيه الشفافتين؟ الغان، هذا الوحش الكاسر لا يرحم!

الفصل الخامس

١

وهكذا، ذات يوم لن ينسأه أبداً بالتاكيد، ذات أحد مشمس في أوائل الصيف، نون أن يودع أحداً ويون أن يسلم أمره لا للرب ولا للشيطان، يرحل كيم في القطار إلى مرسيليا وهناك يركب الـ نانتوكيت، وهي سفينة شحن عتيقة تابعة للشركة الملاحية فرانس - أوريان تبحر بعلم بنمي كان قبطانها، وهو رجل أنيق ومتحفظ من كانتون يدعى سوتزو، قد تلقى من ليفي تعليمات بشأن مسافره الوحيد والطارئ.

كانت النانتوكيت تنقل أسمدة وأتوات لمختلف أنحاء البحر الأحمر والمحيط الهندي، وشحنة من الكونياك والأنبذة الفرنسية متجهة إلى سنغافورة وقطع غيار لورش شركة ليفي نفسه في شنغهاي. أما القبطان سوتزو، الذي يتحدث فرنسية هادئة وموسيقية، فيعتبر كيم ضيفاً خاصاً ويوليه كل أنواع الرعاية؛ يضع تحت تصرفه خادماً ليقدم له الوجبات في قمرة، وينسوي فراشه، ويغسل ثيابه ويرزده بالويسكي والسجائر الأمريكية. وعلى عكس ما كان كيم يتوقع، لا يبدي القبطان سوتزو أدنى اهتمام بمعرفة السبب في أن مسافره الغريب اختار السفر إلى شنغهاي في سفينة

شحن بينما في استطاعته عمل ذلك على نحو أسرع وأكثر راحة بوسائل أخرى. وبعد ساعات من الإقلاع، يريان الليل يسقط فوق سترومبولي بينما يتحادثان بود في برج مقدمة السفينة. ولن يتأخرا في اكتشاف ولعهما المتبادل بالشطرنج وكل ليلة يلعبان دورًا طويلًا في كابينة القبطان.

وسو تزو في الثامنة والثلاثين وهو صيني طويل، ملامحه لا تكاد تكون شرقية أما أناقته وإيماءاته فغربية تمامًا؛ ولا ينم عن أصله الكانتوني إلا جفنيه الحزينين البطيئين، ونظراته المستغرقة وفمه الحسي. وقد ترك تكتمه ولباقته، حتى في معاملة البحارة، أثرًا عميقًا في نفس كيم، ربما لأن هذا كان قد ترك لتوه في فرنسا عش عقارب، ذلك التوتر وذلك العنف الدفين للمنفيين الإسبان وهم يتجادلون في اجتماعات لا تنتهي.

تعبّر النانتوكيت المتوسط بون جديد، مع توقف في محطات في تونس وفي بور سعيد قبل أن تخترق قناة السويس إلى البحر الأحمر مباشرة، حتى تبلغ خليج عدن. تتوقف في محطة قصيرة في جيبوتي وتواصل اتجاهها نحو المحيط الهندي محاذية لسيلان، تدخل مضيق ملقا مواجهة لفحات عنيفة من الريح تتجاوز السبعين عقدة وعواصف من حبات الثلج والمطر، وتظهر سنفاورة ذات غروب ذي حرارة خانقة. وبعد يومين، تاركة عن يمينها شواطئ بورنيو، تبحر النانتوكيت صوب الشمال، وقد أصبح البحر هادئًا، وتتوغل أخيرًا في بحار الصين وفي ليالٍ دافئة ومرصعة بالنجوم، مناسبة لأحلام اليقظة والشطرنج.

تبحر سفينة الشحن العتيقة بطيئة وثقيلة. ويُبدي مؤخرها المتهاك، يبتلع الصدا والشحم، هيئة بانسة ملتحية وشائخة إزاء الفضول الكسول

للمسافرين المكتئبين لعبارة الاطلنطي التي تتقابل معها . لكن، هل وقفتما
أبدًا في مقدمة سفينة في ضوء القمر، ولوحتي في سفينة شحن بائسة مثل
هذه، والمرفق متكئ على الحاجز ونسيم البحر يضرب وجهيكما، قاذرين
على رؤية ما هو أكثر بكثير من مرآة هائلة من المياه المفضضة تحت الليل
المرصع بالنجوم، ما هو أكثر بكثير من المحيط ومن الليل...؟ لو كنتم ذات
مرة قد أحبيتما الأفق، فسوف تعرفان ما أحدثكما عنه.

كذلك يتأمل مسافر النانتوكيت المؤرق الزيد الذي يرسم مروحة حول
غامطس السفينة فاتحًا لها طريقًا ضد الأمواج، بينما تحاول ذاكرته
المسكونة بالمخاوف ومضات الرصاص استعادة الكلمات البسيطة لأغنية
رومانسية أزهرت في قلوبنا خلال الحرب، أغنية قيمة ربطته إلى الأبد بهذه
المدينة، وبأهلك، وبالأصدقاء. وبعدها، بينما يدخن سيجارة متكئًا على شرفة
الميمنة، يستشعر على بعد الشاطئ الآسيوي خطأ متعرجًا من الأضواء
والعطر المشتتهى لحياة جديدة. لكنه مرة أخرى لا يلتقط علامة القدر على
هيئة سحابة سوداء تهبط ببطء فوق السفينة وتهدد بأن تلفها. كانت سفينة
الشحن قد خلفت ورائها منذ قليل جزر أندونيسيا، والبحر هادئ وما من
مؤشرات على قرب هبوب عاصفة، لكن ستارة مظلمة سقطت في سكون
حاجبة الليل المرصع بالنجوم. الأمر، كما يقول القبطان سوتزو، هو
سحابة مسممة بشكل خفيف ظلت تتبع النانتوكيت مثل كلب منذ عدة أيام،
ولم يلاحظها المسيو فرانش، إذا سمح لي بقول هذا، يضيف سوتزو
بابتسامة، لأنه ولا مرة واحدة، منذ ركب في مرسيليا، ولا مرة واحدة، نظر
إلى الوراء.

- مضت عليّ سنوات أطول مما يجب وأنا أنظر إلى الوراء، يا قبطان -
يقول كيم وهو يرد على ابتسامته... وأنا مقتنع بأن ذلك ليس شيئاً حسناً.
- ربما كنت سيادتك على حق - يقول سو تزو بلهجة الكانتونية القوية
ويعمسحة حزن - لكن هذا الخادم المتواضع، بالمقابل، إذا لم ينظر إلى
الوراء كثيراً، لن يمكنه التقدم إلى الأمام. وأرجوك أن تغفر لي هذه
الصراحة، مسيو.

هذه الظلمة الكثيفة، التي انتهت بأن لفت السفينة تمامًا، ربما تكون قد
تكونت عند سواحل الصومال، عند الطرف الغربي للمحيط الهندي، يشرح له
سو تزو.

- غداً ستكون قد تبددت دون أن تترك أثراً، ويصرف النظر عن الرائحة
المائعة غير المستحبة والحرقان الخفيف الذي تحدثه في العين وفي الحلق،
فإنها مؤذية للروح أكثر مما هي للجسم - ثم يردف القبطان بابتسامة ملفزة
- بعض البحارة الشديدي التطير من ماليزيا يعتقدون أنهم يرون في تلك
السحابة إنذاراً بخيانة.

ينهي كيم سيجارته بسرعة، ويطوح بها من فوق الحاجز وينظر محدقاً
في عيني الصيني. يقول :-

- وهل تعتقد ذلك أنت أيضاً، يا قبطان؟

- إن ما يعتقده خادم أو لا يعتقده لا يهم كثيراً، مسيو. ألا تظن أن
الحرارة خانقة هنا على السطح...؟ أقترح عليك نور شطرنج بجوار المروحة
في كابيني.

ينتظر كيم بضع ثوان ثم يقول :-

- هل أستطيع أن أوجه إليك سؤالاً ربما كان وقحاً، يا قبطان سو؟ هل علاقتك بالمسيو ليفي، رئيسك، علاقة صداقة أم مجرد علاقة عمل؟ فجأة، يبدو القبطان أكثر اهتماماً بالتقاط خلل ما في ضجيج المحركات الذي يتصاعد من أحشاء السفينة منه بالسؤال غير اللائق لكيم: وخلال برهة يظل ينصت ويفسر طنين الآلات الرتيب الأصم بتعبير غير راض، وأخيراً يدير عينيه إلى المسافرين.

- أتعرف حضرتك أن هذه السفينة المعجوز تعاني من الربو؟ - يقول مستعيداً ابتسامته الودية... حسنًا، ماذا تقول عن دور الشطرنج؟ - اتفقنا. سأمنحك فرصة أخرى.

منذ عدة أيام، يأمل كيم في الاستيلاء على الكتاب ذي الغلاف الأصفر الذي يريد ليفي استعادته. لا الكلمات المراوغة ولا السلوك الغريب للقبطان سو تزو، ولا هذه السحابة التي يفترض أنها مشبعة بعطن الخيانة، ستفلح في إضعاف عزيمته التي ألفت مرساتها بثبات في المستقبل، ولا بالطبع في إحداث أدنى تغيير في اتجاه النانتوكيت.

تستمر الرحلة بون أحداث وذات صباح يستيقظ كيم في سريريه سابقاً في العرق؛ ويشير ترمومتر قمريته إلى أربعين درجة. تتوقف السفينة في سايجون لتحميل حمولة من الأرز والشاي بالياسمين ثم تقلع من جديد باتجاه هونج كونج، حيث تفلح المساعي الحميدة للقبطان سو تزو في الحصول لكيم على تأشيرة تتيح له دخول الصين الوطنية. بعدها تبحر النانتوكيت عبر بحر الصين الجنوبي وبعد عبور مضيق فورموزا تبدأ المرحلة الأخيرة التي ستقودها صباح ٢٧ يوليو إلى إلقاء المرساة في نهر الهوانج - بو.

لكن قبل ذلك اليوم، حين كانت السفينة تسير بمحاذاة سواحل تايوان،
تتاح لكيم نون توقع فرصة الاستيلاء على كتاب ليفي. الليلة رطبة وحارة وتنتثر
بالعاصفة. وقد أنهى سوتزو وضعه دور شطرنج ويغادران الكابينة ليندخنا
سيجارة متكئين على الحاجز، وناظرين كيف تقترب الأمطار والبروق من
الشمال الغربي؛ حينئذ يظهر الضابط الثاني ويطلب القبطان في صالة الآلات
لأمر عاجل: فقد اشتبك بحاران من الملايو في عراك بالسكاكين له عواقب
خطيرة. يستأذن سوتزو ويذهب، في نفس اللحظة التي يبدأ فيها في السقوط
وابل من المطر فيلتجئ كيم من جديد إلى كابينة القبطان. لا يمكن أن توجد
فرصة أفضل من هذه. يمر ببصره على كهوب الكتب في المكتب. لا يضيء
النور ويكتفي بالضوء الخافت لفانوس خارجي يدخل من الكوة. يرى على
الرف كتابين بغلاف أصفر، والكتاب الأول الذي يفتحه - على غير إرادته
تقريبًا، بل بفعل اهتزاز مفاجئ للسفينة - ليس هو ما يبحث عنه، ليس كتابًا
صينيًا، بل يونانيًا وكتاب أشعار. ومن جديد فإن العلامة التي لا يود الاعتراف
بها، علامة تغير في الاتجاه، علامة انعطاف جديد يطرحه عليه القدر، تقفز
أمام عينيه من الصفحات المفتوحة عشوائيًا، مستحوذة على انتباهه. خلال
نصف دقيقة، يرن في أعصابه الطنين الأصم للآلات في أحشاء النانوقيت
ويجعله يفكر في القبطان سوتزو، في بعاثته الغربية وفي فترات صمته البليغة،
وبدون أن يدري لماذا، يستشعر في ذلك النبض الدفين والرتيب لسفينة الشحن
المتهاكة الفرار المكتمل للزمن، الصدى الأخير للأمل المتقلقل الذي قاده حتى
هنا، وسط الريح والأمواج الثائرة، ليضع بين يديه كتابًا مفتوحًا على الصفحة
٧٧ بفعل ضربة غير متوقعة من البحر أكثر مما هو بفعل إرادته الخاصة.

ولو كنا هناك في هذه اللحظة، أيها الشاiban، لو استطعنا أن نتسلل
خلسة إلى كابينة القبطان ونبقى إلى جانب كيم نشاركه الظلال والبروق
تحت طنين الإعصار، لكان الفضول قد دفعنا إلى إلقاء نظرة من فوق كتفه،
ولكننا، خلال نصف دقيقة بالكاد، خلال لحظة بالغة القصر وأبدية رغم ذلك
في قلب الزمن والبشر، قد استطعنا معاً أن نتبين ما وضعه الحظ بين يديه
تلك الليلة : -

تقول: «سأمضي إلى أراض أخرى، إلى بحار أخرى.

سأبحث عن مدينة أفضل من هذه

التي لم تثمر فيها جهودي أبداً،

المقبرة الباردة لمشاعري.

إلى متى ستظل روحي في هذا التيه؟

أينما تلتفت، لا أرى

سوى الأطلال السوداء لحياتي،

زمن مستهلك ألقيتك هنا إلى النفايات.»

لا توجد من أجلك أراض أخرى، ولا بحار أخرى.

ستمضي هذه المدينة معك أينما ذهبت.

ستجوب يوماً نفس الشوارع. ستشيخ

في نفس الحي البائس. ستشيب

في نفس الدار.

أبدًا لن تغادر هذه المدينة. فما من أخرى من أجلك،

ولا سفن ولا دروب تخلصك منها.

فلم تُضَيِّعَ حياتك هنا فحسب :

بل حطمتها في كل مكان^(١).

بطيئة ومائلة، كأنها تقطر وراءها تحت المطر فتاتًا من صدىها
والذاكرة الميتة لإبحارات أخرى، خطوط عرض أخرى أكثر اعتدالاً، تبهر
النانتوكيت العتيقة صوب شنفهاي.

٢

- إذا أرغمتعاني على أكل كل هذا، فسوف أتقيأ هنا مباشرة فوق
الفراش! - صرخت سوسانا.

لكونها طريحة كل هذا الوقت ومدالة هكذا من أمها في كل حين، كانت
قد تعلمت ممارسة استبداد ناعم ومتقلب تطبقه الآن ضد فوركات وضد
الوجبات المحترمة التي يعدها لها، الصينية المربعة بالنسبة لها بكوب
الحليب الضخم، والبيض المسلوقة وقطع الخبز المحمص بالمربي.

- كلني البيض على الأقل - قال فوركات - سأقشرها لك، انظري.

- لا أريد المزيد من البيض. لقد سئمت البيض المسلوق!

كانت مناقشة كل يوم وظللت أنا مندهشاً بعض الشيء وأنا أنظر إلى
الرقعة النادرة لجبهتها التي يوطرها الشعر الأسود، وفمها شبه المفتوح
والمشرتب دائماً، وامتلاء واكتمال الشفة العليا، فويختني : -

- وأنت إلى ماذا تنظر، يا ولد؟

- أفضليه نبيأ في كوب من نبيذ ملقا؟

(١) القصيدة هي «المدينة» لكونستانطين كفافى، في ترجمة خرة وغير منشورة حتى الآن
لأنخل جونزالز Ángel González - ملاحظة المؤلف.

اقترح فوركات... أم تريدين أن أصنع لك عجة رائعة بالخرشوف أو
الباذنجان؟

- خراء، خراء! لا أريد شيئاً!

- أنت تعرفين ما يقول الطبيب - أصر - بيض كثير ولبن كثير... لبن
كثير وبيد كثير، على رأي الآخرين تشاكون. يابنوته، كلي كتيل عسان تبقي
حلوة، وسمينة، وأمولة...

غالبًا ما كان فوركات ينجح في جعلها تبتسم في النهاية، لكن ليس
دائمًا في جعلها تاكل. جالسًا على الفراش بجوار الصينية، تابعت أصابعه
المبقعة الجلد تقشير البيضه بينما هو يطرح بصبر جميع أنواع الحجج
لإقناع سوسانا بأنها يجب أن تاكل.

المرّة الأولى التي توقفت فيها عند يدي فوركات بفضول حقيقي لم تكن
فقط لأن جلده ذا الألوان المتباينة يجذبني، بل لأنه كان، بطريقة لم تفاجئني
بمعنى من المعاني، رغم اتضاح أنها خطأ فيما بعد، يضعهما بصورة
متدفقة فوق ركبتي السنيورة أنيتا. كانت ظهيرة يوم أحد، وكنت بصحبة
سوسانا وفي طريقي للذهاب لأن لدي موعدًا مع فينيتو لنصعد معًا إلى
حديقة جويل بحثًا عن أوراق كافور للقدر ولنحضر بالمرّة عشبة الرتم لتزيين
القاعة. وفي الردهة، وأنا أمر أمام الباب المفتوح لغرفة نوم السنيورة أنيتا،
رأيتهما بجوار المنضدة الليلية الصغيرة، فوركات جالسًا على كرسي وهي
على حافة الفراش، حافية وساقاها متقاطعتان ظاهرتان من الرداء المفتوح،
ويداه فوق الركبة الموضوعة فوق الأخرى. لم يتسع لي الوقت لأدقق، لكن
حتى في هذه اللحظة الأولى والخاطفة لاحظت شيئًا في مظهر الاثنين لا

يتفق مع ما كنت أتخيله منذ بعض الوقت: فاليدان الضارعتان لفوركات لم يبد أنهما بالضبط يدا رجل يربت على ركبتين بديعتين، وكذلك سلوك السنيورة أنيتا، التي كانت تسوي أظافرهما بمبرد، غير مبالية تمامًا بما تفعله اليدان، لم يبد أنه سلوك امرأة تستسلم للتربيت. لكن الانطباع كان مفرط السرعة. ظننت أنهما لم يرياني وواصلت طريقي، حين استوقفني صوتهما :-

- دانييل، يا جميل، هل ستذهب الآن؟

- نعم، يا سنيورة.

- تعال لحظة، ممكن؟

رجعت حتى عتبة غرفة النوم. كانت الركبتان تلمعان لمعانًا خفيفًا في الغيش، وكانت يدا فوركات قد تباعدتا قليلًا وعادتا إليهما الآن بضراعة هائلة، بحماس غريب. ظننت أنني شممت في الغرفة رائحة خرشوف نيء نون أن يبرر هذا الإحساس شيء على الإطلاق. سألتني السنيورة أنيتا هل ما زال الأخوان تشاكون في الشارع، فقلت لها إنهما في انتظاري وعندك طلبت مني أن نصنع معروفًا بأن نحضر بعض الكافور، فقد نفذ من عندها، فرددت أن سوسانا قد أخبرتني وأنتا ذاهبون بالضبط إلى حديقة جويل لهذا الغرض.

- دانييل والأسود - ابتسمت لي بالغة الرضى - لا أدري ماذا كنت أفعل بدوتك.

لاحظت أن يدي فوركات لم تكونا في الحقيقة توشكان على لمس ركبة السنيورة أنيتا، فكأنه بتلك الإيماءة يود على الأرجح أن يحميها من شيء، من الضوء أو من الهواء أو من يدري؛ أو كأنما نفس اليدين الحاميتين،

البائستين، تبحثان عن نوع من الراحة بجوار الركبة العارية. وعلى أية حال، ومهما كان غرضها، فإن تلك الأيدي لم يبد أنها أداة أي تربية، ولو كانت كذلك، لكان معناها بالنسبة لي شيئاً جديداً ومطلقاً، فلم تكن حتى تلمس الجلد. منحنيًا في كرسيه ومستغرقًا، واضعًا في مهمته أقصى انتباه، لم يدر فوركات عينيه نحوي ولا مرة واحدة. بلغت إلى حد التشوش بعض الشيء: فلم يكن ذلك ليتفق مع بعض المشاهد الملتهبة التي عبرت في خيالي، وكذلك في خيال المريضة بالتاكيد، أكثر من مرة، حين كان الاثنان يتركاننا أنا وسوسانا وحيدين في القاعة. بدا ذلك - كما شعرت في ذلك الحين بالميل إلى التفكير - شيئاً أسوأ.

- أه، وبالمرة أحضر لي ثلجاً ببيسيته ودمجانة خمر - أضافت -
الدمجانة والنقود على مائدة الطعام.

- سأتتركها في الحانة وأستعيدها عند العودة.

- أنت ملاك، يا دانييل - وأدارت عينيها نحو فوركات يون أن تكف عن
برد أظافرها ... أليس صحيحاً أن هذا الصبي كنز؟

لم يقل فوركات شيئاً. وحين هممت بالذهاب وضعت السنيورة أنيتا
ركبتها بجوار الأخرى لكنه ظل يغطي نفس الركبة، اليسرى، بكلتا يديه
صبوراً ومستغرقاً بحيث بدا مثل سنان سكاكين منكب على عمله اليدوي
المتواضع، الذي ظللت بعدها بأيام أتساءل ماذا يكون، أهى تربية فريدة أم
لعبة أم ملقوس سري، أم ربما كان ذلك كله دفعة واحدة.

هذا الأحد لم تذهب أم سوسانا إلى الموندريال، فقد اتفقت مع عاملة
التذاكر على تبديل فترة العمل وأصبح المساء حراً بالنسبة لها. وحوالي

الخامسة، حين كنا سوسانا وأنا ننتظر فوركات في القاعة، سمعنا طرقعة كعب حذاء متعجل.

- سوسانيتا، سنخرج لبرهة - دخلت السنيورة أنيتا وقد شدت حول وسطها الحزام الأبيض العريض الذي يجعلها بالغة الرشاقة. وكانت ترتدي فستاناً أنيقاً مطبوعاً بأزهار بيضاء من أعلى إلى أسفل، وحذاء أبيض بكعب عالٍ وعقدًا من المرجان، تنبأه بجورب رقيق ذي خياطة عريضة، وكانت قد لونت شفتيها وتبدو جميلة جداً بشعرها الأشقر المجعد. ظللت بعض الوقت مذهولاً أنظر إليها فابتسمت لي :- هل ستبقى في صحبة طفلاتي حتى نعود؟

- نعم، يا سنيورة.

- إلى أين تذهبين؟ - قالت سوسانا.

- سأتمشى في الرملة والميناء، فيما أظن.

- وحدك؟

- طبعاً لا. مع السنيور فوركات.

- مع السنيور فوركات؟ وماذا عنا؟

- أه، أسفة جداً. هذا المساء سيكرسه لي.

قبلت الابنة، ومضت عبر الردهة وسرعان ما رأيناها تعبر بوابة الحديقة بصحبة فوركات، الذي كان يخفي عينيه خلف نظارة الشمس ويرتدي بذلة مهلهلة وثقيلة لا بد أنها تشعره بالحر. تعلق السنيورة أنيتا بذراعه، ومستديرة بحيوية لتنظر من فوق كتفها، رفعت ساقها من الخلف وباليدين الأخرى عدلت خياطة الجورب، ضاحكة. ساكنًا، وكيسًا، ووقورًا بعض الشيء، ترك فوركات لها ذراعه منتظرًا أن تفرغ من هذه اللمسة الأخيرة.

خلف زجاج القاعة، انطلقت سوسانا في الضحك وقالت إنهما يشكلان أكثر رفيقين رأتهما في حياتها إثارة السخرية وقدمًا في مظهرهما. كانت المرة الأولى التي يخرجان فيها إلى الشارع معًا. ولم يظهر الأخوان تشاكون طيلة المساء. احتضنت سوسانا قطنها، متفكرة، وطلبت مني أن أذهب لأحضر قلم أحمر شفاه ذا غطاء مفضض من حمام أمها. وحين أحضرته طوحت القط القماش، ورفعت الغطاء وجلست على ركبتيها قافزة فوق الفراش، وكشفت لي أسنانها وهي تمسك قلم أحمر الشفاه بكلتا يديها ورأيت كيف أن فمها، الذي أصبح فجأة فم بالغة بعد اللعسات الأولى، كان يزداد اشتعالاً مع كل جرة قوية لقلم أحمر الشفاه. بعدها خفضت صوت الراديو، وعادت فدخلت بين الملامات ونعست، وتعبت أنا من الرسم وعن التأمل بون الحصول إلا على القلق وعلى شيء لا طعم له فشرعت لعب الورق وحدي على المنضدة الليلية الصغيرة.

عاد فوركات والسنيرة أنيتا عند حلول الليل وبدا شنيدي المرح، ولم توبخ سوسانا لرؤية تلك الطبقة السمكية من أحمر الشفاه بلون الكريز على شفتيها، لكنها فحصت منديلها لترى إن كان يحتوي على أي بصاق، ثم ذهبت لتغير ثوبها وعادت بقدرح نبيذ جرعته دفقة واحدة، ملأته من جديد وحملته إلى غرفتها مع وسادة التطريز. وفي هذه الأثناء، في المطبخ، كان فوركات يعد شيئاً للعشاء. وبعد برهة قصيرة ظهر في القاعة مبتسماً، يده في كمي الكيمونو الواسعين، وقال بغموض مقصود في صوت خفيض:

- سوسانا، خمني ماذا أحضرت لك.

- زجاجة كولونيا. لا، آيس كريم بالليمون.

جلس فوركات على الفراش.

- في الميناء زرنا سفينة بريد فرنسية كلها أبيض في أبيض، جميلة جداً - قال - القبطان صديق لي وأوالدك. وبينما كان أحد ضباط السفينة يطلع أمك على صالة الاحتفالات، أعطاني القبطان هذا لك.
- القبطان سو تزو؟ - سألت سوسانا.

- لا. قبطان آخر - ابتسم فوركات - قبطاننا سو تزو يبهر قريباً من سواحل تايوان. أتذكرين؟

- نعم... ما هذا؟

- افتحيه وستعرفين.

كان ظرفاً بنياً نون أختام مكتوباً عليه، بخط جعل عيني المريضة تضيقان فجأة، اسم سوسانا. وداخله بطاقة بريد تبدو فيها باجودا^(١) صينية قديمة تتكون ألوانها من الأصفر، والأحمر، والأسود. وكان ظهرها يحمل الخط الدقيق والعصبي لكيم:

عزيزتي سوسانا، احفظي حلمك حياً. حين أكتب لك هذه البطاقة، ستكون الساعة في برشلونة هي السادسة مساءً وهنا في شنغهاي الواحدة فجراً. سيسعدني أن تفكري في كل يوم، في تمام السادسة مساءً، وسأفكر فيك أنا أيضاً هنا في نفس هذه اللحظة. ألا يبدو لك ذلك مسلياً؟ هكذا، ستتحد أفكارنا عبر بحار وقارات انتظاراً لليوم الذي سيمكننا فيه أن نتمشى سوياً

(١) Pagoda : تعني في الفارسية والهندية بيت الإله. والمقصود معبد من معابد الشرق الأقصى على هيئة برج أو هرم كل طابق من طوابقه له سقف مائل تتجه أطرافه إلى أعلى - م.

في حديقة الأفراح. تذكرني: في السادسة. تخيلي أباك جالساً في هذه الساعة على منصة بار السيلك هات، أشيك كاباريه في شنغهاي، وفي يده قدح من الشمبانيا وهو يستمع إلى أغنية كانت تروق لأمك جداً. ويشرب نخبك. أنا ما زلت متخفياً في هذه المدينة الرائعة - لأسباب سأحكيها لك ذات يوم -، ولذا فإنني مؤقتاً أفضل ألا تكتبني لي. خذي ألف قبلة وكلتي كثيراً لكي تشفين سريعاً. أن مياس! (تعني بالصينية: أحلام سعيدة). أبوك الذي يحبك، كيم.

٣

رغبت سوسانا في خريطة جيدة لتتبع مسار النانتوكيت وذات يوم ظهر الأخوان تشاكون في البرج ومعهما أطلس جديد بشوكة، لم يستطيعا تفسير مصدره. فطلبت مني أن أرسم بقلم أحمر خط سير السفينة فوق الأزرق الغامق للبحر، من مرسيليا حتى شنغهاي، بعرض لوحتين ومتوقفاً في أهم موانئ المتوسط، والمحيط الهندي وبحار الصين. بعدها عرفنا أن فينيتو قد سرق الأطلس من تلميذ أعطاه حقيقته ليقبها معه بينما يبحث هو عن أمه في سوق الباعة الجائلين، فألزمت سوسانا فينيتو بأن يعيد الأطلس؛ لكنه قبل أن يفعل قال أن هذه خسارة واقترح انتزاع اللوحتين اللتين تحملان طريق النانتوكيت. فكرت سوسانا في الأمر وأخيراً قالت لا، أن الصبي سينتبه إلى أن هناك أوراقاً ناقصة، وحينئذ اقترحت أن أنسخ أنا لها المسار على ورق رسم، بالسواحل، والمدن، والجزر مستخدماً ألواناً

مختلفة. فعلت واحتفظت سوسانا بالخريطة في درج منضدتها الليلية الصغيرة مع برامج السينما والقصاصات، وفرشاة الشعر، ومراة اليد وطلاء الأظافر العاجي.

وحين أرينا فوركات الخريطة، نبهني إلى خطأ مشيرًا أمام أتفي إلى الشاطئ الغربي للهند بإصبعه الطويل المبقع: فلم تكن النانتوكيت قد توقفت في بومباي. أوقعني قرب الإصبع ورائحته الشديدة الخصوصية في الحيرة من جديد : هذه المرة جعلني أفكر في التضارة اللاذعة لأوراق التين.

بعدها، حين توقف إلى جانبي ليلقي نظرة على الشخبطات التي تحاول تمثيل سوسانا في فراشها، أتيحت لي الفرصة لملاحظة يديه عن قرب شديد وخلال برهة طويلة، بينما يتحدث إلي :-

- لماذا لا تجرب إبراز الفراش، قبل أي شيء؟ أحيانًا تحب الرسم، يا دانييل؟ أم أنك تفعله لإرضاء بلاي المخرف؟ - وأردف خافضًا صوته :- هل هذا ما تحب أن تكونه عندما تكبر، رسام؟

شجعتني ابتسامته الخفيفة على إيلائه الثقة.

- لا أدري... أكثر ما أحبه - قلت بسذاجة - هو أن أصبح عازف بيانو. ندمت في الحال على أنني قلت ذلك، خجلًا من فكرة أن يستطيع تخمين مزاجي الرومانسي، انبهاري المشوش بصور معينة مليئة بالظلال لأنطون والبروك^(١) وهو يعزف على البيانو كونه شرتو وأرسو وسط وميض القصف المدفعي والأضواء الكاشفة للطائرات.

(١) Anton Walbrook.

- عازف بيانو؟ مرحى، هذا رائع! - ظل فوركات لبرهة منتبهاً لحماقات قلمي وراني أتعذب المرة بعد الأخرى لأرسم غطاء السرير السماوي، المتبلي قليلاً من الفراش لأنه بدا لي أنه سيحقق على هذا النحو نوعاً من التأثير الجمالي؛ لكن الطيات ظلت تستعصي عليّ، وظللت بعناد أحاول نسخها من الواقع. وفجأة انتزعت يده مني القلم، ويخطوط باللغة السرعة ويسلسلة مذهلة، أظهر أمام عيني طيات طويلة ورائعة لا تشبه الأصل كثيراً، لكنها أكسبت غطاء السرير في الرسم رشاقة موحية وملساً واقعياً ومقتناً بدرجة لم أكن قد تخيلتها أبداً.

من المؤكد أن هذه كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأيناه فيها يستعرض مهاراته مع القلم. دغدغني ومضى إلى المطبخ ليمنع لنفسه كوباً من الشيكوريا وليعد وجبة سوسانا، لكن يده وهي تمسك بالقلم ظلت لبرهة طويلة أمام عيني على مسافة قريبة جداً بحيث أحسست في وجهي بالتدفق الدافئ لدمه، بالنبيض في عروقه النافرة الداكنة. والشيء الأهم هو أن الرائحة الناعمة للخرشوف التي التقطتها في غرفة نوم السيئورة أنيتا قد تلكت تماماً؛ وفي الحقيقة، فإنني لم أنتبه أبداً لرائحة الخرشوف النقي، ولا حتى أعرف إن كانت تلك الرائحة قوية، ومميزة، ولا تقبل الخلط بما يكفي لتمييزها عن غيرها من الروائح، وبالطبع فإنني لا أدري السبب في أن هاتين اليدين الوسيمتين لكن بجلد شديد العطب كانتا توحيان لي برائحة الخرشوف. الأمر يتعلق باقتناع متكيس في الذكري، بولاء معين لحديقة الطفولة الخاصة بي. والمؤكد أن ثمة جوانب عديدة من شخصية ذلك الرجل ومن سلوكي إزاءه لم أعرف أبداً كيف أفسرها لنفسني. فلم أعرف طوال حياتي أحداً قادراً على إثارة كل هذه التوقعات، وكل ذلك التواطؤ والرقّة

تجاه أشكال شديدة التنوع من الإيحاء بمجرد وضع يده على كتفك والنظر في عينيك. وفور أن التقطت تلك الرائحة التي لا يمكنني تحديدها إلا على نحو بالغ الهشاشة، وعارض ومخلص، فإن اليد التي كانت تحرك القلم أمام أنفي بكل هذا الاقتدار كانت تبعث إليّ كذلك حرارة هائلة ومتصلة، تبعث فيضها القريب، موجات رقيقة من احتراق نباتي بدا أنه يتغذى على نفس الجلد المبقع؛ كأنه عرض يده لفوره لحرارة المدفأة.

وفي وقت لاحق، مضطجعة بين كوم الوسائد وصوت الراديو بالغ الارتفاع، بدا أن سوسانا قد نصت وعلى حجرها مجلة مفتوحة، بجوار غصن الرتم الكبير الذي أحضره فينيتو وخوان في الصباح. كان العصر مشمساً تهب فيه رياح شديدة، وفي الحديقة أخذت أغصان الصفصافة المشعثة تضرب الزجاج فانتهى الأمر بسوسانا إلى الاستيقاظ وتعدت جالسة في الفراش. كان علينا أن نتنظر فوركات وفي هذه الأثناء أخذت أتسلى بأن أبرز دون أنني اقتناع المبخنة الكلية الوجود وبخاتها السام، الظل الشرير الذي يتهدد المريضة والذي كان عليه أن يثير تعاطف السلطات، وفق التوقعات المتقابلة للكابتن بلاي، وحين نقد صبرنا أنا وهي لأن فوركات قد تلخر هذا المساء في أعماله وبالتالي في إكمال حكايته، أصبجنا شاهدين على شيء لا أري إن كنت أصيغه بأنه معجزة صغيرة أم بأنه خفة يد عابية.

فقد حدث أن عاد ضيف السنيورة أنيتا من المطبخ حاملاً بشكل احتفالي الصينية وعليها وجبة سوسانا. بحركات متمهلة ومحسوبة، ملتقاً في الكيمونو الحريري، وضع الصينية على الفراش وجلس إلى جوار سوسانا. مغفمة وبون رغبة كحالها دائماً واجهت الصينية الكوب الضخم من لبن البقر وساندويتش الخبز بالطماطم ولحم الخنزير، مغلوقة على أمرها

سلفاً. في هذه اللحظات كنت أشفق عليها حقاً؛ ففي الصباح كانا يجعلانها تبلع كويًا من لبن البقر أكبر من هذا وساندوتشًا ضخمًا آخر. والحقيقة أن شرائع الخبز بالطماطم كانت تبدو دائماً بمظهر رائع وتصرخ قائلة كلوني، وكان فوركات يعدها بتدليل وهو خبير في هذه الأمور، أستطيع قول هذا لأنني دُعيت أكثر من مرة للأكل مع سوسانا؛ لكنها كانت بصورة لا تتغير تستقبل الصينية بتكشيرة قرف، كما أنها اليوم بدت بالغة التعب وأكثر قابلية للانزعاج من المعتاد، تتنفس بصعوبة وتنزلق بين الحين والحين في نعاس قلق. لم ترد أن تأكل ولا حتى جربت اللبن، رغم ضراعات فوركات. ظلت الصينية على الفراش وتفرغت سوسانا لتمشيط شعرها بالفرشاة، لكنها تركتها على الفور وبدأت تفتش في الراديو عن إذاعة أخرى تبث موسيقى. وجالسا على حافة الفراش، عاود فوركات الهجوم :

- إذا لم تأكلي، فلن تعرفي أبداً كيف وصل أبوك إلى شنغهاي ولا لماذا طلب منه صديقه ليفي أن يسرق له كتاباً...

- لماذا طلب منه ذلك؟

- لن تتصورني. ستندهشين.

غضت سوسانا بصرها، متجهمةً. فكرت برهة ثم قالت:

- لماذا لم يأت إلى هنا أولاً، لنذهب سوياً؟ حينئذ كنت لا أزال قادرة

على السفر رغم مرضي...

- لم تكوني تستطيعين. وقد انطلق هو في مهمة خاصة جداً وخطيرة.

كان عليه أن يذهب وحده.

- لم أسافر أبداً في سفينة، لكن من المؤكد أنني لا أصاب بدوار

البحر... مؤكد.

- سأحكي لك الباقي لو شربت اللبن وجربت أن تأتي على شريحة خبز واحدة على الأقل، واحدة فقط. فلحم الخنزير غال جداً وأملك لا تنال النقود هدية. هيا، كوني بنتاً طيبة...

حسناً، بناقص حكاية - قاطعته سوسانا - أريد فقط أن أعرف شيئاً واحداً.
- ماذا.

- هل أبي طويل؟

- ألا تتذكرين؟

- تلك الليلة التي جاء ليراني فيها كان مقرصاً...

- كيم أميل إلى الطول.

- ماذا كان يلبس حين صعد إلى السفينة التي حملته إلى شنغهاي؟

أخفى فوركات يديه في كمي الكيمونو وأمال رأسه مبتسماً:

- أه، يا بنية، هذا لا ينفع. ها هما شيئان تريدين معرفتهما. ويجب

أن تدفعي. قضمة أو رشفة لبن، اختاري - واستدار نحوي - ألا تظن أنها

يجب أن تدفع إذا أرادت إشباع فضولها، يا داني؟

- طبعاً - قلت - ستصبح بدينة جداً، لكن فلتدفع. نعم، فلتدفع.

- أخرس أنت، يا أبا بريور، لنر إن كنت ستنتهي من هذا الرسم الخرا!

أمسكت المقص وشهرته نحوي، لكنها هدأت على الفور وشرعت تقص

صورة من المجلة تظهر فيها جودي جارلاند^(١) وهي تمضي في الطريق ذي

البلاطات الصفراء. ثم ألقت المقص فوق الفراش، ونظرت إلى فوركات

بعينين ثائرتين وصرخت :-

(١) Judy Garland.

- لا يهمني في شيء ذلك المركب المقرف ومن يسافرون فيه! هل
تفترض أنني مجنونة بكل ما يتعلق بأبي؟ أظن أننا لا نستطيع أن نعيش
بدونه في هذا المنزل، هيه؟ - لم يقل فوركات شيئاً فأضافت :- بالنسبة لي
لم يعد يهمني أن يمضي إلى حيث شاء، في سفينة، أو في طائرة، أو حتى
على عوامة^(١) فلست أحتاجه في شيء.

- اهدئي - قال هو - لماذا تتصرفين هكذا؟ أنت في العادة فتاة حلوة
ومطبعة...

- لا أريد أن أكون فتاة حلوة ومطبعة، اللعنة على الفتيات الحلوات
والمطبعات، أتفهم؟
- مفهوم.

صمتت سوسانا برهة، وأخذت تربت على قطها القماش ثم قالت :-
- وهل ذهبت إلى أماكن كثيرة مع أبي؟ وإلى شنقهاي أيضاً.
- ذهبت إلى هناك قبله بكثير. فقد كنت في شبابي طباخاً في سفينة
وسافرت كثيراً. وأعرف المدينة كراحة يدي.

نظرت سوسانا إليّ ثم نظرت إلى الصينية وفوقها الوجبة.
- إذا كنت لا تصدقيني - قال فوركات - اسألي أمك.
- لقد فعلت - غمغمت هي، وأردفت وقد أظقت عينيها - : لكن اللبن
والتغذية الزائدة تلك التي يقول عنها الدكتور بارجاو يمكن أن تضعها في
مؤخرتك. فلو بلعت هذا الساندوتش، سأتقيأ، تصور.

(١) patinete : لعبة تصنع من لوح خشبي بعجلتين أو ثلاث ومقبض للتوجيه، كوضع
القدم على اللوح وتدفعه القدم الأخرى بالضغط على الأرض إلى الوراء وباليدين يتم التحكم
في الاتجاه - م.

- لا تقولي حماقات. ستتقيثن ذات يوم في سفينة، نعم، و
أرى ذلك... إشرابي اللبن على الأقل، بينما أحكي لك شيئاً سيثير
احتضنت سوسانا القط ولم تقل شيئاً، نظرت بإمعان إلى
العاجية، وعدلت الوسادة خلف ظهرها وبعدها، بعدم رغبة و
شديد، مدت ذراعها وأمسكت بكوب اللبن. لكن اللبن كان قد
الكوب من جديد بتعطية لا أدري إن كانت غضباً أم ارتياحاً.
- بررر... اللبن البارد يقرفني لأقصى حد.
- لئى.

عندئذ حدث. أمسك فوركات بالكوب وظل يحيطه بكلمة
شديدة، كأنه يخشى أن يتركه يسقط لكنه لا يريد في نفس الوقت
- كأن الكوب، على نقيض ما قالت سوسانا، يلسع - وظل هـ
لدقيقتين أو ثلاث. تذكرت يداه وهما تحيطان بركبتي السنيورة
الحماس ونفس التركيز في الإيماءة، ونفس التوتر في جسده.
حين أعاد الكوب إلى سوسانا، كان اللبن ساخناً. لم تصد
ولا أنا أيضاً، حتى لمس الكوب. لقد خُبرعت مرات عديدة في حين
أقسم بأمي أنني لم أتخدع ذلك المساء: فقد وضعنا سوسانا و
في اللبن وتأكدنا من أنه يغلي كأنه قد رفع من على النار لتوه.

٤

كنا، على ما أنكر، في كابينة القبطان سوتزو في اللحظة
فيها كيم إلى الرف الكتاب ذا الغلاف الأصفر الذي ليس هو ما
ويفتح الآخر ويرى في داخله التصاویر البديعة التي ذكرها له ليقي

انقشعت العاصفة وتبتعد سريعاً إلى ميعنة السفينة، تصفو السماء وتلتحم النجوم من جديد، يميل كيم إلى الكوة لمزيد من الضوء ويتصفح الكتاب؛ كما قال له ليفي بالضبط، في الصفحة الأولى، بجانب إهداء شخصي بالحرير الأحمر والحروف الصينية، ثمة بقعة من أحمر الشفاه. تمنعه الظلمة الخفيفة من رؤية البقعة بوضوح، لكنه يعرف أن الكتاب الذي في يديه هو ما يبحث عنه. عندئذ يعتقد أنه يسمع ضجة خلف ظهره ويتلفت؛ لا يرى أحداً. باب الكابينة، الموارب، يخبط في إطاره بشكل متقطع، وعلى الجانب الآخر من الكوة، حيث يختلج البحر برقة تحت ضوء القمر مثل جفن هائل مفضض، يتلاشى ظل متسلل.

يعود إلى قمرته بالكتاب وبعد قليل، مستلقياً في سريره، يفتحه من جديد ويلاحظ بصمة أحمر الشفاه بمزيد من الانتباه. ليست بقعة واحدة في الحقيقة، بل اثنتين: إنها علامة شفتين نسائيتين، الطبعة المكتملة لفم ملون أودع هنا قبلة قرمزية، إلى جوار الإهداء والتوقيع. إلى من أهديت هذه القبلة، إلى ميشيل ليفي أم إلى القبطان سوتز، وربما لا إلى هذا ولا إلى ذلك...؟ تبدو الشفاه باسمه وممتلئة، مفتوحة قليلاً ومحفورة، وكأنها تبرز من العدم، شبحية ومثيرة للهواجس. أما القوة والكمال النادر للطبيعة فينقلان الحياة المكثفة والمشتعلة، الفورة واللهب الذي أشعل الفم خلال لحظة قصيرة ونقشه الفم في الصفحة، بنفس الطريقة التي ينقشه بها الآن في ذاكرة كيم: شبحياً وذابلاً، طافراً من سديم الورق الشاحب مثل جرح.

يلف الكتاب في بلوفر صوفي ويحفظه في حقيبته. يقول كيم إن بقية الرحلة عبر بحر الصين الجنوبي بدت له لا نهائية. وعند غروب الشمس،

ولكي يتسلى، يقيس في ساعته امتداد الغسق الساكن ليكتشف أنه يمتد لفترة تكاد تفوق الليل نفسه، ليختلط بالفجر. وخلال عدة أيام تهب ريح شرقية تلهب الجلد. وفي آخر ليلة على سطح السفينة، يدعو القبطان سو تزو للعشاء في كابينة فيجده كيم أكثر تحفظاً من المعتاد، رغم أنه مهذب وودود كحاله دائماً.

في الثامنة من صباح اليوم التالي تلمح النانتوكيت خليج هانججو وبعد قليل من الصعود في المياه الطينية والمنهكة لنهر الهوانج - بو تستعد للرسو في المرفأ مارة بين حشد من اللنشات والصنادل، من الصيادين والسفن الشراعية الصينية. وأمام سيارة باكار سوداء لامعة واقفة على المرسى، يقف آسيوي قصير وممتلئ في بذلة لا تشويها شائبة منتظراً كيم: إنه تشارلي وونج، شريك ليفي، وهو هجين فرنسي وهندي - صيني مبتسم وممتلئ بالحيوية كان قد أنهى إجراءات الجمارك قبل أن يهبط كيم من السفينة. وبينما هو متكئ على الحاجز منتظراً انتهاء مناورة الرسو، تلتقط أذاننا لأول مرة الطنين الهائل لشنغهاي ولا يكاد كيم يصدق ما تراه عيناه. فتحت سماء داكنة الزرقاء، يحف صف من ناطحات السحاب الفضة بالمدينة الأسطورية.

- إنني شديد الامتنان لرعايتك - يودع القبطان سو تزو ويعد له يده - ربما أتيت لنا الفرصة للالتقاء مرة أخرى، يا قبطان، وعندها سيمكنني أن أشرح لك بعض الأشياء.

يبتسم سو تزو بأدب وينحني.

- الأصدقاء الجيدون كذابون سيئون - يقول - مثلما في شعر لي يان. فإن أشياء معينة تبدى نون الحاجة إلى تسميتها.

- أنا مقتنع بهذا . يقولون إن الكذب يمكن أحياناً أن يكون شكلاً من الاحترام . لقد تشرفت بمعرفتك، يا قبطان .

- حظاً سعيداً، مسيو .

- أتمنى لك نفس الشيء .

في قلب الحركة المحمومة والنداءات المنغمة في المراسي، وقبل ثوان من ركوب السيارة التي جاءت لتحمله، يشعر كيم أنه واقع في أحبولة واحدة من تلك اللحظات السحرية التي يستشعر فيها القلب أشياء لا يصل العقل إلى فهمها، وفجأة يجتاحه يقين : إن ما ينتظره هنا وما يلتقطه هو في الهواء، ما ينضج من النهر الزنخ الرائحة ويطفو في الجو الرطب والخائق لشنغهاي، ليس ما جاء يحدث عنه، ليس اكتمال ثأر أو تسوية حسابات مع التاريخ، ليس الطلقة الصائبة التي يستحقها مجرم ولا التعاطف مع الصديق المقعد، ولا حتى اللهفة أو الأمل في إحضار سوسانا هنا ذات يوم ليس ببعيد، بل شيء أشد عمقاً ويأثس بصورة خفية: إنه الرغبة غير المعترف بها، التوق المعذب لأن يمحو بتلك الطلقة كل أثر لماضي يكتسحه، أن يفلح في أن يختفي إلى الأبد أدنى أثر لهزيمة شخصية مهينة وبلا نهاية. أن يقتل نفسه عند قتله كروجر، لهذا جاء طلقة واحدة لاثنين.

تستقبله تشن جينج فانج، زوجة ميشيل ليفي، في الشرفة .. الحقيقة لشقته الفاخرة، أحد الطوابق العليا لناطحة سحب في البوند على مقربة من طريق ناتكين رود. استقبلها مهذب، لكنه متحفظ؛ تراعى تعليمات زوجها، ستمنع كيم الضيافة وتتركه يحميها ليلاً ونهاراً، لكنها لا تشاركه قلقه ولا ترى ضرورة لحمايتها .

- أنا لا أحس أن أحداً أو شيئاً يتهددني... أسمعني، مسيو؟ - تضيف تشن جينج وقد رأتته شارداً.

- لا مؤاخذه - يقول - سأفعل كل ما يمكن حتى لا أسبب لك إزعاجاً في عملي، لكن زوجك لديه أسباب لفعل ما يفعل. الخطر حقيقي، يا مدام، وكل ما يمكن اتخاذه من الاحتياطات غير كاف.

زوجة ليفي صينية في الرابعة والعشرين ذات جمال فريد، كهنوتية بعض الشيء وشامخة. ترتدي تشيباو من الحرير السماوي بياقة مرتفعة، بنون أكمام ومفتوح عند الجانبين، وشعرها الفاحم السواد مضموم في كعكة تتخللها بياض من اليشب. ومثلما حدث له إزاء النظرة الأولى إلى مدينة شنغهاي من فوق سطح النانتوكيت، يشعر كيم الآن بغثة بضرورة تدعيم مفهومه الهش للقدر الذي أحضره حتى هنا، أمام هذه الصينية الحسنة. ببطء، كأنه يتعرف من جديد، وواحدة فواحدة على تقاطيع شخص يعتقد أنه رآه منذ سنوات طويلة أو ربما حلم به، يعجب كيم بالجبهة الجميلة العاجية، والحاجبين الدقيقين المرتفعين، والعينين العسليتين، والذقن البارز بنعومة، وقبل كل شيء، بالفم بطلانه الأحمر ففور أن رآه، عرف أن هذا الفم ذا الشفتين الممتلئتين هو نفس الفم الشبحي والغامض الذي يشتعل بحب بين صفحات الكتاب المسروق من النانتوكيت. لماذا كان خاتم هذا الفم مختطفاً في الكابينة النائية لسفينة شحن قذرة، تبحر نون توقف من بحر إلى آخر كأن أحداً يحاول بذلك الحفاظ على لهبه القديم...؟

إزاء الاحتياطات التي ينصح كيم باتخاذها بشأن أمنها الشخصي، تبسم تشن جينج بتحفظ، ربما مغلوقة على أمرها، لكنها ابتسامة باردة

وملفزة. ثم تعلن له أن غرفة الضيوف المخصصة له جاهزة وتتادي على خادم صيني عجوز يرد على ندائه باسم دنج. وفي المنزل كذلك خادمة سيامية، وطباخ، وأبي، وهي نوع من الخادمة الوصيفة في الخدمة الخاصة للسيدة، كما سيعرف كيم بعد قليل. وتتحدث تشن جينج فرنسية هائلة غير حلقية على الإطلاق برنين ناعم وصوت رشيق ومضيء. فقد تعلمت في اليسيه فرانسيه في شنغهاي وتنحدر من عائلة من التجار الاثرياء من تيانجين ازدهرت بسرعة خلال العشرينات عندما استقرت في قلب منطقة الامتيازات الفرنسية، في شارع رو دو كونسولاه^(١)، وتاجرت في الافيون.

وقبل أن تتسحب، تنبه تشن جينج كيم إلى أن التزاماتها الاجتماعية الكثيرة تضطرها للخروج كل ليلة تقريبًا. واليوم نفسه عليها أن تحضر حفل كوكتيل في فندق كاثاي هوتيل.

- أفترض أن حضرتك ستريد مصاحبتي - تريف موجهة نظرتها المقتصدة إلى البذلة المكرمشة تمامًا لضيفها - لكن لا شك أن ما تريده الآن هو الاستمتاع بحمام طيب والراحة بعض الوقت. سيهتم دنج بكل ما تحتاج إليه... إنني أرحب بك وأتمنى أن ترتاح في منزلي، مسيو فرانش.
- وأنا أرجو ألا أسبب لحضرتك إزعاجًا أكثر مما يجب، مدام.

في غرفته، وبينما يعد له دنج الحمام، يفرغ كيم حقيبتة ويحرص يضع في مكان أمين كتاب ليفي المسروق. يكرر الاسم في ذهنه: تشن جينج فانج، ويقول لنفسه ما أجمل رنينه، إنه تربيته ناعمة في المسامع وفي الذكرى المتجهمة لما جاء به إلى هنا، حمايتها من أي خطر، جينج الهدوء،

(١) rue de Consolat.

وفانج النضارة. الغرفة رحبة ومشرقة ويخفى فيها عبق لذيد وهادئ لاثاثات وأشياء مدهونة بالورنيش. ومن الباب الزجاجي الضخم المنزلق المفتوح على الشرفة تنفذ أيضاً النضارة الرقيقة للأزهار، فيخرج كيم لتأمل النهر الذي يتلوى كالأفعى نحو شرق المدينة تحت ضباب مائل للزرقاء.

٥

كلما تقدمت في رسم سوسانا أحسست في داخلي بإحساس من التبعية وبأنني يوماً بعد يوم أصبح أكثر فأكثر أسير ديكور فاسد وزائف، أسير مشهد مصطنع لا يبرر بأية حال التوقعات الهاذية للكابتن بلاي ولا الحكايات العشوائية التي يقصها علينا فوركات عند الأصيل: فسوسانا التي ستخرج من بين يدي لن تكون أبداً الشبيح الشاحب للموت الذي يريده الكابتن ولا الدمية الرقيقة من الخزف والحريير التي تريد سوسانا نفسها إرسالها إلى والدها. لم أكن قادراً حتى على أن أعكس الوسط المحيط؛ فقد صممت القاعة وكأنها صوبة نباتات، كما كنت أراها، لكن لا شيء كان يمكنه الإزهار في تلك الصوبة؛ حاولت أن أنسخ على الورق جبهة سوسانا الناعمة والوردة المخملية لوجنتيها التي تزداد اشتعلاً كل يوم، ولم أتوصل إلا إلى نسخة شاحبة لعمقاء لا حياة فيها. وقد تحدثت في ذلك مع الأخوين تشاكون: فيوماً بعد يوم، كان المرض يجعلها أجمل وأكثر صداقة، وأكثر قرباً منا، وأكثر ملازمة للحمى التي تنتابنا؛ كانت تشع منها حسية معدية، رطبة وداقنة، كنت أحاول التقاطها بالقلم ولم أفلح بالطبع.

كان هذا هو الرسم من أجل الكابتن بلاي والذي كانت سوسانا تطلق عليه ساخرة «رسم المصدورة البائسة التافهة والمدخنة العمقاء». أما

الآخر، الموجه إلى ابنيها، فلم أكد أضع خطوطه الأولية وبدأ لي أصعب بكثير. وذات ليلة حلمت أنني مزقت ذلك الرسم إلى ألف قطعة وبدأت أخط بالحبر الصيني الخطوط المتشاقلة للنانتوكيت وهي تبهر صوب الشرق الأقصى حاملة سوسانا وأنا وقد تسللنا إلى ظهرها خلسة، ونحن مقرصان في مخزن السفينة.

٦

- أتحب أن تسمع الخشخشات التي تصدرها رثتي المريضة؟ - قالت سوسانا.

- هل يمكن سماعها...؟

- طبعاً، يا جحش. تعال، اقترب، اجلس هنا، بجواري. لا تخف، يا رجل، فلن أعيذك بميكروياتي...

طوحت رأسها إلى الوراء وأمرتني أن ألصق أذني بأعلى عظمة الصدر. ففعلت بكل الاحتياطات الممكنة. حبست نفسي. عندها أمسكت رأسي بكلتا يديها، وخفضتها قليلاً، وحركتها برقة في اتجاه دائري، بتمهل لا يفتقر إلى القوة، حتى ضغطتها فوق ثديها الأيسر.

- هل تسمع؟ - سألتني، بينما لم أستطع تجنب شهقة - ماذا جرى لك، يا عبيط، هل ستعطس...؟

- لا أدري، يبدو أنني أسمع شيئاً في الداخل، لكن لا أدري...

- نعم أم لا؟ ضع رأسك جيداً، هكذا... يقولون إنه مثل طنين في كهف.

أتسمعه...؟

- مثل طنين؟

الآن كنت أستطيع سماع قلبها.. وقلبي. أصررتُ : -

- هل قلت مثل طنين...؟

- نعم، هذا ما قلته. هل أنت أطرش، يا ولد؟

- حسنًا، ما أسمع الآن... ليس مثل طنين. لنر، انتظري لحظة...

- أنا أقول لك أنه مثل طنين. ضع أذنك جيدًا، يا أحمق. هل سمعته أم

لا؟ - حركت برقة رأسي المذهول بينها، مركزة خدي فوق الثدي الذي كان

يشتعل كالنّج - ماذا دهاك، هل في أذنك سدادات أم أنك أصم مثل جدار؟

صعدت إلى وجهي موجة من السخونة وتملكني قلق متصاعد، كأنما

عبر ثدي سوسانا المنتصب تنقل إلى الرئة المتعفنة حماها الخبيثة وحنقها.

أحسست في خدي بالصلابة الناعمة للنهد وبارتداد الحلمة، فأغلقت عيني؛

لكن لم يبد أنها منتبهة لذلك، فلم تتجنب الملامسة ولا أبعدت رأسي، وكان

صوتها باردًا ومترفعًا : -

- أسمع شيئًا أم لا، يا ولد؟ هيا، يا ناصح. وهنا...؟ - عاودت يداها

تحريك رأسي، وظلت الحلمة التي تزداد صلابة وانتصابًا ترتد تحت النسيج

الرقيق لقميص النوم - أسمع الآن؟ وهنا...؟

- أسمع شيئًا، لكن... ليس بوضوح، لا. ليس بعد.

أطلقت شهقة أخرى فقالت : -

- ماذا تفعل، هل أنت نائم أم ماذا؟ - أمسكت يدي ورفعتها إلى جبهتها

- هل تلاحظ الحمى؟ دائمًا هذه الشرطات اللعينة... حسنًا، ماذا، ألا تسمع

شيئًا؟

- نعم، أعتقد أنني الآن اسمع، نعم. انتظري...

- هيا، يا فالح، اذهب فتفرغرا!

أزاحت رأسي بعنف وعندما رأت وجهي محمراً، حين التقطت فيما أعتقد التهيج في عيني، انطلقت تضحك، واستعادت قطها القماشي، وأدارت لي ظهرها وأدارت الراديو على المنضدة الليلية الصغيرة.

بعدها نهضت لتسوي الفراش قليلاً وتفرد اللحاف، وعدت أنا للجلوس فوق منضدة السرير.

- دانييل - قالت سوسانا بعد انقضاء برهة، وهي مستلقية في الفراش -
... أتعرف ماذا فكرت؟
- ماذا؟

- فكرت أنني في الرسم الآخر، الجيد، أود أن أرتدي فستاناً مثل فستان تشن جينج لأعطي أبي مفاجأة... ذلك الفستان البالغ الوسامة، الضيق بفتحتين في تنويرته. هكذا، أنظر... هل تنصت إلي، أيها الغبي؟ ما هذا الصبي الشارد!

- لا مؤاخذه... وما اللون الذي تريدينه؟

- أخضر - قالت - أو أسود، أسود تماماً ومن الحرير الطبيعي... لا، أخضر، أخضر. بون أكمام وبياقة عالية. ما رأيك؟ هل تسمعني، يا ولد؟ أنت بهلول أم ماذا؟

كنت لا أزال أحس في خذي بالصلابة المرنة والعذبة لثديها، ولم أستطع، لم أرد أن أفكر في شيء آخر. لم تلح هي وظلت ممددة في الفراش تفكر وبعد قليل بدا لي أنها تنعس والقط بين ذراعيها، لكنني في لحظة

معينة لاحظت عينيها شبه المغمضتين والساخرتين تنظران إلي من فوق
أُنني القط عند سطح اللحاف.

حين بدأ الجو في الحرارة، كف فوركات عن إشعال المدفأة، رغم أن
القدر المليء بالماء والكافور والذي كان يغليه في المطبخ ظل يتصاعد منه
البخار فوقها، وبذلك يحافظ على جو القاعة الرطب، كما نصح الدكتور
بارجاو. وذات مساء وصلت فيه إلى البرج متأخراً قابلت عند الباب
السنيرة أنيتا التي كانت ذاهبة إلى العمل وقالت لي إن السنيرة كونشا
مع سوسانا وأن فوركات ما زال ينام قيلولته. وحين أطلت على القاعة رأيت
زوجة الكابتن تميل فوق سوسانا وتدعك ظهرها العاري بمنشفة تبللها من
إناء مملوء بماء تم غليه مسبقاً مع زهر اليلسان. كانت البدينة بتييو تقول
إن هذه التدليكات جيدة جداً لتقوية نسيج الرئة، وللدورة الدموية، وللجلد
الرقيق للصبيا الجميلات. كان ظهرها لي ولم ترني أدخل، لكن سوسانا،
العمدة على بطنها فوق الفراش وقميص النوم ساقط حتى وسطها، هي
التي رأيتني واقفاً عند العتبة، وظلت تنظر إلي بعيون شريرة بينما
استسلمت لفرك ظهرها المحمر والرطب، وحين ضربتها فوق مؤخرتها قائلة
:"Ara el pitet, maca"^(١)، ظلت هي تنظر إلي بنفس الوقاحة الساخرة
بينما تستدير بجطاء شديد لا تكاد تغطي ثدييها بذراعها، وأخرجت لي
لسانها. ولا بد أن الدنيا كونشا قد لاحظت شيئاً عندئذ لأنها استدارت،
لكنني لم أترك لها وقتاً لتراني لأنني تراجعت إلى الخلف وجلست أنتظر على
مائدة الطعام.

(١) والآن، الصدر الصغير، يا صبية - م

ولما استطالت جلسة التدليك، فتحت حافظتي ورسمت من الذاكرة اسكتشاً للقط القماشي جالساً بتصلب شديد فوق الفراش كأنه يحرس رأس المريضة المغمى عليها، وخرج من يدي جيداً تماماً، فيما عدا خطمه. بدأ الجو في الحرارة وزادت أعشاب البتيبو من اشتعال الجو. خرجت البدينة من القاعة، حاملة الوعاء إلى المطبخ ومرت بجانبني نون أن تراني، متأرجحة فوق ساقها الثقيلتين وتاركة في الهواء عبيراً مزعجاً، مزيجاً مشوشاً من العرق ومن الزهور المفروكة.

وحين ولجت القاعة، كانت سوسانا معددة على ظهرها في الفراش، نون ملامة، وقدمها عاريتان ومضمومتان، وعيناها مغلقتان ويدها متقاطعتان فوق صدرها. اقتربت من الفراش على أطراف أصابعي وقلت أهلاً، لكنها لم ترد، وظلت ساكنة تماماً تتظاهر بأنها ميتة، بحيث أمكنني خلال برهة طويلة أن ألاحظ نون عقاب الثقل المقلق لقميص النوم الملتصق بفخذها، كما تأملت في عنقها الأبيض الطويل، حيث تتحرك تفاحة آدم خلسة تحت الجلد. مع جفنيها المغلقين، بدا محجراها أشد عمقاً وبنفسجية وسقمها أشد بروراً. وكان الفم شبه المفتوح يكشف عن بقعة حمراء على الأسنان العليا. وفوق صدرها، مشبوبة بين أصابع اليد، برزت ورقة من دفتر الملاحظات عليها رسالة لي مكتوبة بأحمر شفاف أمها :-

أيها الأمير الأحق

أعطني قبلة

لأستيقظ

قرأتها مرتين، وعاودت النظر إلى الحسناء النائمة والأسنان ذات
العلامة الدامية الخفيفة، الفم الذي يقدم رحيق الأحلام مختلطاً بإفراز
السل، وحين حزمت أمري في النهاية كنت قد ضيعت ثوان حاسمة، لأن
سوسانا فتحت عينيها فجأة ووجهت إلي تلك الابتسامة الملوية التي كنت
أعرفها جيداً. دسّت يدها تحت الوسادة وأخرجت منديلاً ملطخاً ببقع حمراء
حركته بعنف أمام عيني. إلتقطت على الفور أريج ماء الكولونيا من المنديل
وفوحاً آخر دهنيًا برائحة الفاكهة كان يجب أن أضمن مصدره، لكنني فقط
نظرت بفرع إلى بصاق الدم الجنائزي وطوحت رأسي إلى الوراء بشكل
غريزي. حدثت الدعابة على الفور. لكن الوقت كان قد فات مرة أخرى
وأخذت هي تضحك محرّكة منديلها المخادع أمام أنفي.
- ليس سوى أحمر شفاه، يا أحمرق. عبيط، غبي.

الفصل السادس

١

يكرس كيم ما بعد الظهر للتزود بالثياب من متاجر وينج أون الكبرى في طريق نانكين رود والتجول في قلب وسط المدينة. مع حشد البائعين الجوالين في زهاب وإياب محموم، تبدو الشوارع التجارية الرئيسية لشنغهاي أنهاراً من العنب النباتي، والنعناع والليمون، من الياقوت والذهب تنساب نون توقف. لم يكن قد رأى في حياته مثل هذه الحيوية المتعددة الألوان، مثل هذه الحركة المحمومة في المحال العامة، ومثل هذه الوفرة والتنوع للأصناف في المتاجر ومنصات الباعة الجائلين. وفي واجهة متجر فخمة وشاهقة الارتفاع، مزينة بشلال لا يتوقف من النجوم القرمزية، تعرض فساتين زفاف بلون وردي. وينقل جمالون^(١) مسرعون بضائع زبائنهم وسط الزحام والمرور الكثيف بحس شيطاني بالاتجاه. وإلى الشمال، على مقربة من نهر سوجو^(٢)، ما زالت هناك آثار للقصف الياباني منذ سبعة أعوام. تمر بجواره صفوف لا نهائية من العربات ذات الثلاث عجلات طافرة

(١) Coolies : بالإنجليزية في الأصل، كما يُطلق عليهم هناك..م.

(٢) Suzhou.

بالأزهار مخلفة في الهواء الرطب نضارة بها مسحة من عفن. يطلب كيم خدمات سائق ريكشا^(١) ويجعله يحمله إلى طريق شانتونج رود ليلقي نظرة على اليلو سكاي، النادي الليلي لكروجر. وهو مغلق في هذه الساعة. اسمه مكتوب بحروف صفراء على مصباح ضخم من الزجاج الأحمر معلق فوق الباب.

وعند الغروب، حينما تضاء أول أنوار المدينة، يكون كيم في غرفته يربط فوق القميص الأبيض الجديد الذي يلبسه لأول مرة أربطة جراب الإبط وبه البراونينج. يرفع ذراع أمان المسدس ثم يفحص خزانته. لا يريد مفاجآت. ويعدّها بقليل، محشورًا في بذلة إسموكنج لا تشوبها شائبة، يقود الباكار السوداء التي يملكها ليفي في طريقه إلى كاثاي هوتيل^(٢) عند التقاء طريق نانكين بالمرفأ. الرحلة قصيرة. تنعكس أضواء ممشي البوند في النهر. أرادت تشن جينج، الشديدة الأناقة في التشيبياو الحريري الأسود، الجلوس إلى جواره ليتحدثا: أي خطر بالغ الفضاعة تتعرض له هي وزوجها، ومنذ متى، ولماذا؟ لم ينس كيم توصية ليفي له ألا يذكر كروجر/ عمر كي لا يزعج تشن جينج، فيرد بإجابات مراوغة.

- أنا صديق حميم لميشيل، وقد تقاسمنا مخاطر كثيرة وبعض المثل، ولهذا فإنتني هنا - يقول كيم - لقد طلب مني أن آتي وأن أتحول إلى ظلك، وسأفعل. لكن لا تسأليني عن شيء آخر، مدام، لأنني لا أعرف أكثر من ذلك. وراغبًا في تغيير الموضوع، يضيف أن المدينة تروقه جدًا وأنه ينوي

(١) rickshaw.

(٢) هامش لم يدون (غير موجود بالبروفة).

البقاء والعيش هنا، عاملاً بالتأكيد في إحدى شركات ليفي، ويعرب عن رغبته في الحديث عن ذلك يوماً ما مع تشارلي وونج، شريك زوجها. لا يبدو أن تشن جينج مهتمة بالأمر. فقد أخرجت المرأة من حقيبة يدها وأخذت تنظر فيها، شاردة، وهي تصلح بالظفر الطويل المطلي لإصبعها الخنصر أحمر الشفاه عند زاويتي فمها. وحين تنتهي تعيد المرأة وتقول مبتسمة، وهي ناظرة إلى الأمام من خلال الزجاج الأمامي: «هكذا فإن حضرتك لا تفكر في تركي ولو للحظة واحدة». يلاحظ كيم خلسة جانب وجهها الرقيق وعينها المائلة والناعسة على نحو خادع تحت الثقل المتوتر والساكن لجفنها. «لم أقل ذلك». فتدبف هي: «أفترض أنك ستتركني أذهب وحدي إلى نورة مياه السيدات».

يأخذ كيم في الضحك ويفكر: دلالة فكاهة غريبة أكثر مما ينبغي، لا تليق بصينية، لكن باللغة الشباب والجمال، يروق لها التدل والمزاح ولا بد أنها تعلمت أن تفعل ذلك مع ميشيل... لكن تشن جينج لا تمزح ولا تدال، كما ستتاح لنا الفرصة للتحقق من ذلك فيما بعد. وفجأة، عند وصولها إلى الهوتيل، تتذكر أن لديها خبراً طيباً لتبلغه إياه: فقد خابرها زوجها من باريس ليبلغها أنه تجاوز أمس بنجاح العملية الجراحية الأولى. يفرح كيم مخلصاً، لكنه التقط ضجراً أسىء إخفاؤه في صوت تشن جينج، فكان لديها رغبة لا تقاوم في إلقاء الخبر بسرعة والانتقال إلى شيء آخر.

يقام حفل كوكتيل الكاثاي بيلدينج، الذي ينظمه أقطاب الصناعة والمال في منطقة الامتياز الفرنسية، على شرف الدرك وسلطات القطاع، حيث من المؤكد أن الشرطة فاسدة حتى قمة رأسها ومن بيده الأمر في الحقيقة هو

رجل عصابات صيني عديم الضمير يُدعى نو يويشنج^(١)، المشهور باسم نو جراند - أوري^(٢)... لكن ليس هذا وقت الحديث عنه. كنا نقول أن الحفل يجري في الصالون الأخضر الباذخ للطابق الثامن ويجمع زبدة المستعمرة الأجنبية في شنغهاي. يختلط عطر الياسمين القوي القادم من الشرفة بالعطور الراقية والبالغة التنوع للسيدات. وفي إحدى زوايا الصالون، فوق منصة وأمام الميكروفون، تغني فتاة صينية مكتسية تمامًا بالأخضر، وتمسك في يدها المكسوة بقفاز أخضر مبسمًا طويلًا أخضر بسيجارة خضراء، أغنية I Get a Kick out of you^(٣) بضوت مسنون ونظرة حواء بعض الشيء، يصاحبها على البيانو زنجي في بذلة بيضاء. يقترب أمريكي شمالي بدين أفرط في الشراب مترنحًا من المغنية مقدمًا لها كأسًا من النعناع وسط الضحكات الصاخبة.

أما تشن جينج، التي يحبها ويعجب بها الجميع، فتجيب بود على من يسألون عن صحة زوجها، وفي بعض حلقات الأصدقاء، تقدم مرافقها على أنه خواكين فرانش، إسباني وصديق حميم لميشيل وصل لتوه من باريس. لكن كيم لا يود أن يثقل عليها بحضوره وسرعان ما يتركها في صحبة أصدقائها ويقترب من البار باحثًا عن شراب. وهناك يلتقي بوونج وتسبح له الفرصة لأن يطرح عليه بعض الأسئلة المتعلقة بمستقبل عمله في شركة النسيج. يجد أن وونج على علم بطموحاته إذ يلوح له بأن من الأفضل

(١) Du Yuesheng.

(٢) Grandes - Oreilles : الأذن الكبيرة - م.

(٣) إلك تصرعني - م.

انتظار عودة ليفي لدراسة المسألة سوياً. لن تكون هناك أدنى مشكلة، ويمكنه الاعتماد على عونه: «أخبرني ميشيل أن حضرتك قد درست الهندسة وأنت، فوق كل شيء بمثابة أخ بالنسبة له.»

وفي وقت لاحق، في إحدى لحظات هذه الليلة الخانقة من ليالي يوليو، وبعد أن حدد مكان تشن جينج عند الجانب الآخر من الصالون وهي تتحدث مع اثنين من كبار المسؤولين الشرقيين، ربما بعد الإعجاب بجمالها البارد والناسي من خلال الحشد وبينما يستمع إلى أغنية تذكره بأوقات سعيدة مع أمك، يمكننا عندئذ أن نفكر في أن كيم سيستأذن بالتأكيد من تشارلي وونج وسيخرج إلى الشرفة بكأس من الويسكي ليتأمل من أعلى البرج معشى البوند والمدينة البديعة تحت الليل المرصع بالنجوم، ليتأمل المرفأ والنهر الساكن الذي تنعكس فيه أضواء النيون مثل ديدان وهج ملونة. يحس أسفل ذراعه بالضغط الخفيف لجراب الإبط بالمسدس، احتكاك مألوف يربطه بماض عنيف وبالتزام أخلاقي: قتل رجل لا يستحق الحياة وإعادة صياغة حياته هو في هذه المدينة النائية، منهياً بذلك بطلقة واحدة وإلى الأبد الضغط عند إبطه وثقل الذكريات. يقول لنفسه لكي يبتهج، إن الفرصة طيبة، وهو يضغط على الكاس المثلج في يده ويتكئ بمرفقه على إفريز برج المراقبة الرائع للكاثاي، وقد حركت مشاعره الموسيقى وعطر الياسمين، أن الحال على ما يرام تماماً هنا، يشعر المرء بأنه بالغ الشباب وما زال شديد الامتلاء بالحياة، بأنه شديد التوافق مع هذا الانعطاف الأخير لمصيره، وشديد الثقة بنصيبه وربما حتى شديد الحلاوة والوسامة في بذلته الاسموكينج، فرصة طيبة لإدارة البصر لحظة إلى الوراء على طول الطريق،

يا كيم، طريقنا البائس من الآمال المزروع بالفخاخ والأكاذيب الذي التقيت في نهايته، من حسن حظك، بالرفيق القديم ميشيل ليفي: ستري عندئذ، إذا فكرت في الأمر، أن ما خلفته وراء ظهرك ليس فقط الهزيمة التي لا تنتهي وكل تلك الآمال الضائعة، ليس فقط الرفاق الموتى بل كذلك الذين ما زال عليهم أن يموتوا، فتیان مندفعون ومتهورون من تولوز ومن نقاط أخرى في جنوب فرنسا سيعاودون بشكل قذري عبور الحدود ممسكين بالأسلحة بنفس العزيمة المجنونة التي دفعتك ذات يوم، ستري الدم المسفوح الماضي والمستقبلي، الذي ما زال يشعل عروق رجال آخرين، وستفكر بالتأكيد في دنيس وفي كارمن وهما يحاولان كذلك أن يصيرا سعداء في ركن من أركان فرنسا، وستتذكر نوالارت وبتيانكورت وكامبس وهم يتعفنون في السجن أو يعدمون، ستفكر في كل تلك التضحيات غير المجدية التي لن تسجل أبداً في أي مكان، كل هذا الكرم وكل هذه الشجاعة التي لن تصلح شيئاً في نهاية الأمر ولن تفيد أحداً، ومن يدري إن كان سيتذكركي أنا أيضاً ويتذكر تزييفاتي الصعبة، فوركات التعس ذاك بأصابعه الملطخة دائماً بالحبر، هذا الميت العائد إلى مدينة الموتى... لكن ثمة، يقول لنفسه، من هم أشد يأساً، هم أولئك الذين استسلموا فعلاً ولم يعوخوا ينتظرون سوى أن يمر الزمن ويمحو وجوههم ويأتي يوم يبتلعهم فيه النسيان في النهاية هم وأبناءهم جميعاً إلى الأبد. إذ أنكما لو كنتما معتادين مثلي على قراءة عقل كيم، لعرفتما أنه يفكر الآن بشكل خاص فيمن بقوا هنا منتظرين فرصة: من الجانب الآخر للعالم، فإن ما يود قوله لنا هو ببساطة أننا لا يجب أن نترك أنفسنا للقنوط، للحظ السيء أو للمرض، ولا حتى للدخان

الأسود لهذه المدخنة. تصبح الحياة أحياناً حملاً ثقيلاً، ومن المستحب أن يخدع المرء نفسه قليلاً، أن يربي بشكل سري أملاً ما... في هذا كله يجول خاطر كيم في شرفة فندق كاثاي ويبيده كأس الويسكي، وهو يطل على ليل شنغهاي، ويحس بالتنفس الرطب والمار للمدينة مثل فوح حيوان مستسلم وناعس، حين ينتبه إلى أنه لا يرى تشن جينج منذ برهة طويلة بالتأكيد.

لكن، يفكر، ليس من المحتمل أن يتجول كروجر هنا، ولو فعل، فلن يكون من الجنون بحيث يهاجمها وسط كل هؤلاء الناس.

تستقر يدٌ فوق كتفه وتلفت انتباهه بود: إنه لامبير^(١)، فرنسي طليّ الحديث، ومالك لمصانع حرير ومقاجر كبرى، كان قد تم تقديمه إليه قبل قليل ويأتي الآن للحديث معه؛ وعلى الفور ينضم إليهما أربعة مدعوين آخرين، في اللحظة التي يعلق فيها واحد منهم، كثير الكلام، بسخرية على الحظ الجهنمي لميشيل ليفي، المتزوج من صينيته الصغيرة ذات العيون الذهبية، المتمتعة بكل هذا الشباب والجاذبية، وعلاوة على ذلك قريبة الجنرال تشن يي، الذي يقال عنه إنه يتأهب للتقدم عبر منشوريا بقواته الشيوعية ليواصل طريقه بعد ذلك على طول نهر اليانج - تسي حتى يصل إلى شنغهاي... وكما يدرك كيم، بدأ كثيرون من الأجانب في الخوف على شركاتهم وأعمالهم في شنغهاي: إذ أن هزيمة الكومنتانج وانتصار الشيوعيين يمكن أن ينتهي بإلغاء الامتيازات الأجنبية. ورغم أن الموضوع يهمه جداً، فليس هذا هو ما يشد انتباهه، بل تعليق لا علاقة له بما يتحدثون فيه، أبداه على غير توقع أحد المتسامرين، الأمريكي الشمالي الذي أفرط

(١) Lambert.

في الشراب والذي كان قد داعب المغنية الصينية. كان الآن، محتقناً وغارقاً في عرقه، يلكز بمرفقه المدمو الواقف بجواره، وهو رجل بشعر أسود مكوي وملامح مدبية، ويقول له بصوت أخنف وفم ملوي: -

- أراهن أن تلك العاهرة الصغيرة تشن جينج فانج، منتهزة فرصة أن ليفي في باريس ليرى إن كان بإمكانهم أن يصلبوا ظهره، وبالمرة - يريف بقهقهة - حمامته كذلك، ستبحث عن العزاء من جديد بين ذراعي ذلك القبطان البحري، ذلك الكانتوني الشيطاني، سو تزو أو كيفما كان يُدعى...

قطعت القفاظة غير المتوقعة الحديث ويستعد كيم للرد عليه بصورة مناسبة حين يسبقه، على يمينه، الرجل ذو الشعر المكوي بالرنين القوي لصوته، ممسكاً باليانكي من ياقة الاسموكنج:

- ستابلتون^(١) - يقول له - أنت مهرج وسكير، اسحب فوراً ما قلته لتوك عن تلك السيدة وإلا أقسم لك أنني سأجعلك تندم.

يظهر الخوف على ستابلتون، ويسارع بالهمهمة باعتذار ثم ينسحب من المجموعة مراقباً كأس الويسكي في يده بسحنة هلع في الضوء الخافت، كأنه يرى في داخلها حشرة غريبة. وبعد قليل يفتر الحديث ويتفرق الجمع، ويبقى كيم من جديد وحيداً مع مسيو لامبير وخلال برهة طويلة يشبع بأطب فضول لامبير بصدد الوضع السياسي الراهن في إسبانيا، لكن نعيمة اليانكي السكران لا تفارق ذهنه. القبطان سو تزو وزوجة ليفي؟ هل كانت هذه العلاقة أمراً شائعاً؟ هل كان ليفي يعرف؟ ويكل كياسة العالم، يستقصي كيم، فيقول الفرنسي أنه لا يدري إن كانت الشائعة ذات أساس

(١) Stapleton.

أم لا، لكنها قد انتشرت بالطبع في شنغهاي.

بعدها مباشرة يسأل لامبير من هو المدعو الذي أنبرى بحماس للدفاع عن مدام تشن جينج، رغم أنه في قرارة قلبه، وقبل أن يجيبه الفرنسي، يعرف الإجابة فعلاً، بفضل واحدة من تلك التناغمات الغريبة لكيم مع الجانب الغامض للأشخاص:

- اسمه عمر ماينينجن، ألماني، مالك نادي اليلو سكاي كلوب وأرقى بيتي دعارة في شنغهاي - يقول لامبير، ويرف في لهجة تواطؤ ناعمة - يقال إنه شخص خطير قوي الشكيمة، يا مسيو، رغم أنه يقال أيضاً، خصوصاً من جانب السيدات، إنه رجل مهذب من قمة رأسه إلى إخمص قدمه، لكنني أعتقد أنه، في الحقيقة، شيوعي.

٢

لا أدري عند أي لحظة بدأت جولات وزيارات فوركات للميناء ولحي برشلونيتا تصبح أكثر تواتراً، بعض المرات في صحبة السنيورة أنيتا لكن بمفرده على الدوام تقريباً، ولا أدري أي أناس كان يتعامل معهم ولا كيف كان يدبر أموره، لكنه لم يكن يعود أبداً إلى البرج بدون بضع كيلوجرامات من الدقيق أو الأرز أو بضع لترات من الزيت المهرب.

وفي أوائل يوليو، بعد ثلاثة أشهر تقريباً من وصول الضيف إلى البرج، أقلعت السنيورة أنيتا عن الشراب وعن التدخين. في البداية كانت تنزعج دون سبب وتتجادل مع سوسانا، وبدا لي حتى أنها تتجنب نظرة فوركات الحولاء لكن المتكئمة على الدوام، لكن طبعها تحسن بعد ذلك وصارت شديدة الحنان مع ابنتها، ومتفهمة ومراعية لفوركات وأخذت تتضاحك حتى

مع الأخوين تشاكون، اللذين كانت تسليها كثيراً حيلهما مع بائعات الخضار في السوق من أجل الحصول على الطعام. ولن تتأخر في معرفة أن ذلك التحول كان راجعاً إلى التأثير الحميد لفوركات؛ فقد كانت قد صارت مؤخراً مغرمة بنبيذ أبيض رخيص جداً كانت تشتريه سائياً من الحانة، سم فتران بالغ القوة، كما يقول فوركات، الذي رفض حتى أن يضيفه إلى بعض الطبخات الخاصة التي كان يعدها لسوسانا بين الحين والحين. لكن ذات يوم طيب وجدنا أن الحمجانة التي اعتادت أن تتصدر مائدة الطعام، والتي كانت ترسلنا أنا والأخوين تشاكون باستمرار لملئها من حانة شارع كاربونير، قد اختفت ولم نرها بعدها. وفي نفس الوقت، كان فوركات يساعدنا في أعمال المنزل؛ كان يغير ملايات فراش سوسانا، وينظف الرماد من المدفأة ويفسل الأطباق، ودهن بالجير جدران الحديقة، وحفرها أن تروي النباتات وتعتني بها وعلمها كيف تتسلى بطبخ بعض الأطباق البسيطة والرخيصة. كانت تبدو أكثر رضى وأكثر هدوءاً في نفس الوقت، كذلك اكتسبت بعض مظاهر سيدة محترمة، لمسة معيزة في الثياب وفي طريقة المشي؛ لكن السنة السوء في الحي ظلت تنهش في لحمها سواء أراها منفلة أم لا، ودار على الشفاه تعليق حاد منسوب إلى الدكتور بارجاو كان يروق كثيراً للكابتن بلاي، ربما لأنه يثير ثورة الدونيا كونشا: «السيدة كفت عن الشراب، لكن العاهرة ما زالت تمص»^(١) مثلما كانت.

وذات مساء، وصلت إلى البرج في وقت مبكر عن المعتاد، كانت

(١) mamar الممر و tragar البلع : في اللغة العامية كتابة عن ممارسة الدعارة.. م.

سوسانا تنام القيلولة ولم تكن أمها قد ارتدت ثيابها بعد لتذهب إلى العمل.
وبعد أن تكلمت من القاعة أن فينيتو وخوان لم يصلا بعد إلى جوار البوابة،
قالت لي السنيورة أنيتا:

- دانييل حبوبي، أتصنع لي معروفاً؟ - رأيتها من العصبية بحيث
ظننت أنها سترسلني إلى الحانة من وراء ظهر فوركات، الذي كان في غرفته
.. لقد نفذ مني الأسبرين... والصيدلية ما زالت مغلقة. هل تود الذهاب إلى
الحانة لترى إن كان لديهم أسبرين... ويمكن أن تحضر لي، بالمرّة، ربع
كونياك...؟ لا، لا، أريد أسبريناً فقط.

حين عدت بما كلفتنني به، كان فوركات في القاعة وكانت هي في ثياب
الخروج، مرة أخرى على طريققتها اللامبالية والمستفزة بعض الشيء: حذاء
بنفسجي بكعب عالٍ، وجورب أسود رقيق جداً، وأحدى جونلاتها المكشكشة
ذات الألوان الفاتحة التي تروقها جداً، ويلوزة بيضاء بدون أكمام وحزام
عريض من البلكسيجلاس بلون أخضر تقاحي. أما شعرها الأشقر القصير،
المشعث قليلاً على الدوام، فقد أكد منظرها الشاب والتعبير الخبيث
لجسدها. كان على خدها بعض رماد السجائر، على مقربة شديدة من الفم،
وفكرت أنها كانت تدخن مستخفية وأن فوركات سيوبخها على ذلك؛ لكنه لم
يقبل شيئاً. قبلت جبهة ابنتها، والتقطت حقيبة اليد وقبل أن تذهب تناولت
قرصي أسبرين وقدرًا من المياه الغازية.

- منذ كلفت عن الشرب، يؤلمني رأسي - قالت... لم تعد ركبتني تؤلمني،
الآن الرأس. يا للشقاء! هل تكون المياه الغازية هي السبب؟
جالسًا على حافة الفراش، عند قدمي سوسانا المستيقظة الآن، نظر

إليها فوركات وهي تشرب المياه الغازية وهو يتسم ابتسامة خفيفة. فوق ركبتيه المتقاطعتين، كانت تتدلى يداها الطويلتان المبقعتان خاملتين كئنهما يدي سجين مفلولتين بالأصفاد، لكنهما حتى في هذه الحالة لم تكونا تبدوان محايبتين أو مستسلمتين لنصيبيهما. كان ثمة شيء يشتعل باستمرار في هاتين اليدين. انتظر حتى تنتهي من الشرب، وقال بنبرته المشجعة المألوفة: - لا يبدو عليك أي أثر للصداغ. ان رأسك يظن أن رأسك يؤامك. هذا كل ما هناك.

أخذت سوسانا تضحك ثم سعلت. عندئذ تركت أمها، التي كانت على وشك الذهاب، الكوب وحقيبة اليد فوق المنضدة الصغيرة، وهمست: «أيها الملعون»، وعلى الفور خلعت حذاءها، وأزاحت سوسانا إلى الجانب من الفراش البعيد عن مكان جلوس فوركات وتمددت على ظهرها لكن القدمين عند رأس السرير ورقبتها مستندة على حجر فوركات؛ أمسكت بكلا يديها يده اليمنى وأسندتها على جبهتها، باعنتها وأعانتها، عدة مرات، برقة، كئنهما تضع كمادات ساخنة. أفلقت عينيها وتتهت بارتياح، فتبادلنا النظرات أنا وسوسانا. - أعتقد أنها ليست اللحظة المناسبة، يا أنيتا - قال فوركات. - إذا لم أشعر بارتياح، فلن أستطيع الذهاب إلى العمل - قالت -. أنت لا تعرف كم يؤلمني.

- إنه لا يؤلمك، يا امرأة. - رفع يده قليلاً وأبقاها مفرودة فوق الجبهة ببضع سنتيمترات. ظلت هي تضغط تلك اليد بيديها، لكن فوركات حافظ على المسافة. فكرت بعدها مرات عديدة في أن فعالية العلاج ربما لا تكمن في التلامس المباشر ليديه بقدر ما تكمن في الفيض الذي ينبعث منهما،

الحرارة المحكومة أو التي لا أدري كيف يسمونها والتي يبعثها ذلك الجلد المستهلك، والتي تزيل الألم أو تخففه. استمر ذلك نحو عشر دقائق، وبدأ أن السنيورة أنيتا قد نامت. فتحت حافظتي وفحصت أقلامي، أو بالأحرى تظاهرت بذلك؛ فلم أكن في الحقيقة أريد أن يفوتني أدنى تفصيل. لاحظت بالدرجة الأولى مسافة السنتيمترين أو الثلاثة تحت راحة يد فوركات فريما استطعت التقاط تدفق الفيض، أو ربما شرراً أو يعلم الله ماذا، فلا شك أنه، في هذه الفجوة الصغيرة بين اليد وبين الجبهة، تكمن المعجزة. ورفضت سوسانا بدورها النظر إلى أمها المتعددة وتظاهرت باللامبالاة، لكنها كانت في أعماقها تستهجن ما تفعله.

الأمر المؤكد هو أن السنيورة أنيتا نهضت كأنها امرأة جديدة تماماً وغير مندهشة على الإطلاق مما حدث؛ لا يمكن أن تكون هذه هي المرة الأولى. «أترى؟» قالت. «هأنا أفضل بكثير.» سوت شعرها، وارتدت حذاها، وتناولت حقيبة يدها، ومبتسمة في سعادة، نكشت بيدها شعر ضيقها، بحركة سريعة وعفوية، ثم قبلت سوسانا من جديد، وتنهدت، وفجأة، واقفة هناك في وسط القاعة، وحقيبة اليد معلقة في كتفها وبصرها في الفراغ، شرعت تبكي في صمت، نون أن تكف عن الابتسام. لم أدب ساعتها ماذا دهأها، لكنني اليوم أعرف أن مشاعرها قد جاشت في واحدة من لحظات الامتلاء تلك التي لا بد أن الحياة قد منحتها إياها في مناسبات معدودة.

«لماذا تبكين، يا ماما؟» قالت سوسانا وهي مقرفصة على الفراش، ويصوت مشروخ رجتها. : من فضلك، لا تبكي! من فضلك!
انتهى الأمر في الحال. قالت إلى اللقاء للجميع ومضت متعجلة. لكنها

لم تكن قد بلغت الردهة حين عادت، وأمسكت بيد فوركات وأجبرته على أن ينهض ويتبعها عابرة بسرعة غرفة الطعام ثم الردهة جرياً طول الوقت حتى باب البرج، حيث ستودعه حتى المساء - كما أفترض، كما راقني دائماً أن أفترض - بقبلة. لم أر ذلك أبداً، لكن نكزى المشهد من الحيوية بحيث أنني دائماً ما أنسى أنني لم أره أبداً: الغمان، وهما يبحثان عن بعضهما ويلتقيان، واقفين كلاهما متعانقين بقوة في غيش المدخل.

وبعد ساعات، بعد أن كانت سوسانا قد تناولت كوب اللبن الضخم والساندويتش ووصل الأخوان تشاكون في زيارة وجيوبيهما مليئة بالكافور وأكياسهما بالقصص المصورة والروايات المربوطة بالخيط، بدءاً من القاعة السحرية والساكنة التي أصبحت تضيئها شمس الغروب سنعاود الرحيل ممسكين بأيدي بعضنا صوب الشرفة المضيئة في شقة تشن جينج فانج والمظلة على المرفأ وعلى نهر الهوانج - بو، تحت النظرة الحولاء لفوركات وبسحر تعويذة صوته.

٣

يكون كيم قد قضى ثلاثة أيام في شنغهاي حين يتصل ميشيل ليفي تليفونياً من عيادة فوتران بباريس ويتحدث طويلاً مع زوجته. ثم يطلب أن يتحدث لحظة مع كيم فتأخذ هي التليفون إليه في الشرفة. كيم يتصفح الصحيفة جالساً تحت مظلة، وينتظر أن تعود تشن جينج إلى الصالون ليتحدث مع ليفي : بونچور، يا صديقي، كيف حال معنوياتك، ممتازة، يقول ليفي، وأنت كيف حالك؟ بخير، لا جديد. لدى أخبار رائعة، يا كيم نجحت العملية الأولى وأنا «مبسوط» جداً؛ علي أن أعود إلى غرفة العمليات، فأمامي

الأصعب، لكن الحظ موات وأعرف أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنني قريباً جداً سأكون قد عدت إلى منزلي. والآن قل لي: كيف يسير موضوعنا؟ هل فعلت ما طلبته منك؟

- جزئياً فقط - يقول كيم -. لدي الكتاب الذي أردته، لكنني بالنسبة لكروجر لم أفعل سوى تحديد من هو، حتى الآن. هذا الموضوع لا يمكن تصفيته بون اتخاذ احتياطات كثيرة.

- يجب أن تسرع - يقول ليفي -. فلكروجر نكي ويمكن أن يشتم شيئاً. - سأخاطر بذلك - يقول كيم، ويردف -: سأقول لك كيف أرى المشكلة، يا كابتن. الآن أكثر من أي وقت يجب أن أتصرف بطريقة نظيفة، في الظلام وبدون أن أترك أثراً، لأنني فور تصفية هذا السفاح الجهنمي أريد أن أبقى هنا، كما قلت لك، وأن أعمل معك وأحضر زوجتي وابنتي... اتفقنا على ذلك، أتذكر؟ والامر يختلف لو كنت بعد أن أعطي لكروجر ما يستحقه سأخذ طائرة ووداعاً يا شنفهاي، علي أن أنسى أنني رأيتك، لا أود المخاطرة بمستقبلي ومستقبل أسرتي. يجب أن أعد خطة وأبحث عن المناسبة وبعدها أكون بعيداً عن أي شك، هل أوضحت ما أقصد؟

- يجب أن تكون حريصاً، لكن سريعاً كذلك - يقول ليفي -. فالامر لا يحتل الانتظار. ولا تترك تشن جينج تغيب عن بصرك، فأنا لا أثق في ابن العاهرة ذاك... سأطلبك مرة أخرى. إلى اللقاء وحظاً سعيداً. - أتمنى لك نفس الشيء، يا كابتن. حظاً سعيداً.

وفور أن يوضع التليفون، تخرج تشن جينج من جديد إلى الشرفة تتبعها خادمتها الوفية، التي تحمل صينية عليها مشروبات.

- هل تريد شيئاً بالياسمين، مسيو فرانش؟ - تقول الصينية الشابة مبتسمة - أم تفضل المارتيني المركز؟ أنا أعرف كيف أعده جيداً جداً. يقول زوجي إن كؤوس المارتيني التي أعدها هي أفضل ما يمكن تناوله في شنغهاي... دون أن نحسب بالطبع المارتيني الخاص جداً الذي يعده هو.

- من المؤكد أن ميشيل يفضل ما تعدينه أنت - يقول كيم -.

وبالمناسبة، هل لديك أي ارتباط هذه الليلة؟ هل ستخرجين؟

- أخشى أن الإجابة بنعم، مسيو. أنا أسفة.

- لا تقولي هذا. يسعدني دائماً أن أصحبك.

تبتسم عينا تشن جينج الذهبيتان بتحفظ تحت وقع جفن كسول، على تردد وإيقاع محسوب، يكاد يكون اليأس. لكن هذا الإيقاع الذي لا يتغير، وهذه الحسية وحرير الجفنين اللذين يتحركان ببطء، تبهر كيم.

تحتل حماية تشن جينج بالتأكيد وقتاً أكثر بكثير مما توقعه وخلال ما يربو قليلاً على أسبوعين يكون قد عرف الحياة الليلية والمتباهية لشنغهاي وكل أنواع الفضائل الشرقية والأسبوية الزاهية الألوان الممثلة فيها. تنقل أخبار المجتمع في صحيفتي نورث تشاينا ديلي وشنغهاي ميركوري بدقة حضور السنيورة تشن جينج فانج والسنيور فرانش في الحفلات والاستقبالات. كذلك يرونها أن تتردد على الكباريهات العصرية وأن تلتقي بالأصدقاء في ملهى كانوفا، وديل مونتي، وليتل كلوب أو سيروز. وأحياناً يطلبها بالتليفون زوجان من الأصدقاء للعشاء سوياً ثم الذهاب إلى السينما أو إلى الرقص، لكنها على الدوام تقريباً تفضل الخروج وحدها، أي مصحوبة حتماً بكيم، الذي اعتادت أن تمازحه حول هذا الاقتران الذي

أصبح يثير في شنغهاي من الشائعات أكثر مما كان يمكن أن يقبله زوجها لو كان موجوداً هنا.

وذاة ليلة، في حفل استقبال حاشد على ضفاف بحيرة الغرب، في هانججو، يتسلى كيم بالدعابة مع تشارلي وونج وزوجته ويغفل لبرهة مراقبة تشن جينج، وفجأة، على بعد نحو خمسين متراً، بين بحر من رؤوس المدعوين، يتبين كروجر وهو يتحدث معها تحت شجرة تنوب مضاعة. يشق كيم بعنف طريقاً بين المدعوين وقبل أن يصل إلى جوار تشن جينج ينتبه إلى أن كروجر هو الآخر قد رآه : ويدون عجلة، لكن مستجيباً بوضوح ساطع لحافز مباغت، يودع الألماني الصينية الحسنة منحنياً ليقبل يدها، وعلى الفور، يدور نصف دورة ويضيع في الزحام.

- أتعرفين هذا الرجل؟ - يقدم كيم سيجارة إلى تشن جينج، متظاهراً بعدم الاهتمام.. يبدو شخصاً لطيفاً.

- من لا يعرف عمر في شنغهاي - تقول هي.. لكنني لم أكد أتعامل معه سوى مرتين. جاء ليحييني ويسأل عن زوجي... لماذا تسأل؟ هل تعرضت لـون أن أدري لخطر بالغ؟ - تردف وفي حينها شرارة ساخرة.

بدلاً من الوقوع في أحبولة التوضيحات، يفضل كيم الاعتذار.

- أنا أسف. لكنك تفهمين أنك، إذا كنت وحيدة، فإن أي شخص يقترب

من حضرتك موضع شك بالنسبة لي...

- أتخشى أن تتركني وحيدة بين كل هؤلاء الناس، مسيو فرانك؟..

تبتسم الصينية الشابة... لا يجب أن تقلق، فأنا محاطة بالأصدقاء... والآن

هل تفضل بالذهاب إلى البار لتحضر لي كأساً من الشمبانيا؟

يرد كيم ابتسامتها ويلمس بلطف مرفقها يده.
- سيسعدني أن أصحبك إلى البار وأن أثير حسد جميع الرجال...
انظري، ها هما وونج وسولين مع عائلة نوپريه.
- يا لها من تسلية - تنتهد تشن جينج مستسلمة... لكن الأمر لك. إن
هذه الصينية المفتقرة إلى الكياسة تقسم في خشوع ألا تبتعد ولو متراً
واحداً عن حارسها... إلا إذا تجشمت مدام نوپريه عناء أن تحكي لي للمرة
المليون حكاية سهرتها المجنونة الشهيرة في باريس مع جان جابان^(١)
والكلبة لولو.

- حضرتك امرأة شريرة - يبتسم كيم.
- هل تظن ذلك حقاً؟ سأعتبر ذلك ثناء.
- ولماذا؟

- لأنني أردت دائماً أن أكون امرأة شريرة.
في جولاتها المعتادة في النوادي الليلية، لم تدرج تشن جينج ولا مرة
واحدة اليلوسكاي المملوك لعمر، مما أسعد كيم؛ انه يريد معرفة ملاذ
النازي السابق، لكن وحده بالطبع، حين تتاح له ليلة دون ارتباط.
تتاح له الفرصة ذات أحد شديد الحرارة، قبل أن يجلس في شرفة
تشن جينج المطلة على البوند، حين يبلغه دنج أن المدام تعتذر عن مرافقته
على العشاء؛ فقد أجبرها صداخ نصفي قوي على اللجوء إلى الفراش ولا
تفكر اليوم في الخروج، ولذا ترجو المسيو أن يستفيد بالليلة لنفسه على
أفضل نحو يراه.

(١) Jean Gabin.

بعد العشاء، الذي قدمه الخادم الصيني بطريقة احتفالية، ينادي كيم سائق ريكشا ليحمله إلى اليلو سكاي كلوب، في طريق شانتونج رود. المكان شديد الازدحام، ضخم وفخم، مزين بالأصفر والأحمر، وبه منصة رقص متألقة وصالة قمار. عند البار يطلب كيم ويسكي ويراقب الزبائن، بينما تعزف الأوركسترا لحن سيبوني^(١) ويرقص بعض الأزواج مسحورين. وعلى كل المناسد حول منصة الرقص يوجد مصباح صغير أحمر ووردة صفراء ذات عنق طويل موضوعة في إناء رشيق من الكريستال. كذلك تلقت انتباهه، على إحدى الموائد المجاورة لمنصة الرقص، شابة صينية شديدة الأناقة، ذات عينين ضيقتين وسيقان جميلة، تجلس وحدها: مكتسية تمامًا باللون الأحمر بثوب تشيباو ضيق ذي ياقة مرتفعة وفتحتين جانبيتين في الجولة، تنظر بلا مبالاة إلى أظافرها الأرجوانية الحمراء وتدخن سيجارة من نفس اللون، وهي جالسة أمام كوب كبير من شراب العنب.

حينئذ يرى عمر عند حافة منصة الرقص وهو يحيي واقفًا، باسمًا وهائئًا، بعض الزبائن الجالسين. الآن يستطيع كيم ملاحظته بشكل أفضل مما في هوتيل كاثاي وفي سوجو. إنه في الثامنة والثلاثين أو الأربعين من عمره، والرجل الذي يسمى نفسه الآن عمر شديد الطول، أنفه حاد ومعقوف، شارد النظرة، ورغم ابتسامته البيضاء، فإن تقطعية مرة تُصَلِّبُ فمه الكبير الجيد التحديد. حركاته ناعمة وراقية. وعند مروره بجوار الصينية التي ترتدي الأحمر، يمسك عمر الوسيم بالوردة الصفراء التي تزين مائدتها ويشمها مبتسمًا للفتاة، يقبلها على خدها، ويعطيها الوردة ويودعها بتحية

(١) Siboney.

احترام، متجهًا على الفور، وهو ينظر في ساعته، نحو باب صغير أزرق عليه «حليات» من اللاكيز والعاج ويقع عند أحد طرفي البار. يفتحه، فتظهر الدرجات الأولى من سلم مضاء، ويعاود عمر إغلاق الباب خلفه. يعتقد كيم أنه لم يره، أو لم يشأ أن يراه، لكنه نون شك يعرف جيدًا من هو؛ فبعد أن شوهد في محبة تشن جينج في كل تلك الاستقبالات والأماكن العامة لشنغهاي، لا يمكن أن يكون قد غاب عنه قيامه بوظائف الحارس الشخصي.

يمضي نصف ساعة ونظرًا لأن عمر لا يعاود الظهور، يسأل كيم البارمان هل سيعود صاحب المكان، لأنه يرغب في الحديث معه عن صفقة هامة. فيجيبه البارمان، وهو صيني له وجه حزين مستدير وشارب متهدل، بأن صاحب المكان قد اعتكف في مسكنه وأمرهم ألا يزعموه لأي سبب. مسكنه؟، يقول كيم، هل يسكن السيد عمر هنا في الكباريه؟ هنا بالضبط، مسيو، فبشقة فوق الكلوب... عملي جدًا، يصرح كيم، لكنني أفترض أن له مدخلًا آخر على الشارع. بالطبع، مسيو: في كينج لوونج، وهي حارة خلفية. إن كأسك فارغ، مسيو، أتريد ويسكي آخر؟

يهم بالرد حين يسبقه من وراء ظهره صوت بود مصطنع:
- ربما يفضل المسيو الصبغة.

يستدير كيم ببطء ويرى صينيًا بدينًا وباسمًا في بذلة زرقاء فاتحة، وقميص أسود ورباط عنق أبيض.

- أفضل الويسكي - يقول كيم.

يقدم له البارمان الكأس بينما يصر القادم المجهول:

- اغفر لي إزعاجك. هل حضرتك صاحب الفخامة المسيو فرانك؟
- نعم.

- إن نو يويشنج، رئيسي، يود التحدث مع حضرتك وسيكون هذا شرفاً كبيراً له أن تقبل تناول كأس على مائدته.

- فيم نتحدث؟ - يقول كيم.. أنا لا أعرفه.

- ألم يسمع المسيو باسم نو جراند - أوريي؟

- سمعت القليل - يقول كيم نافذ الصبر.. حسناً. ماذا يريد؟

نون أن يكف عن الابتسام، ينحني له الصينني.

- اتبعني، لو سمحت.

يدور حول منصة الرقص ويعبر صالة القمار، دائماً في أعقاب الصينني. نو جراند - أوريي جالس على مائدة وظهره للحائط، في منطقة بين صالة القمار وبين بار آخر شديد الانحمام. يرتدي بذلة بيضاء لا تشويها شائبة، وقبعة بيضاء ورباط عنق بلون بصلي. تتناقض وجنته البارزة، العدوانية، مع الهدوء الهائئ للجفنين الثقيلين والفم الذي ليس له شفتان. بين يديه قدح من الشعبانجا مغبش من فرط بدرويته. ويداه مثل كيسين من الماء الساخن. وجالساً إلى جواره، وحافة القبعة تحجب نصف وجهه المبطط المتجهم، ينزع حارسه الفلبيني ببطء بتلات الوردة الصفراء التي تزين مركز المائدة. لا يحتاج كيم إلا إلى إلقاء نظرة ليدرك أنه توفيي^(١) محترف، قاتل مأجور. يجلس الرسول على الجانب الآخر بجوار رئيسه ويظل كيم واقفاً، وفي يده كأس الويسكي.

(١) tufei.

- يشرفني أن أتعرف إليك، مسيو فرانش - يقول نو يوشنج - ألا تود الجلوس إلى مائدة هذا الخادم المتواضع؟ حضرتك تبدو مرهقًا. ربما لم تتم كثيرًا مؤخرًا...
- ربما.

- أفهم أنك قدمت إلى شنغهاي بدعوة من المسيو ليفي وفي إحدى سفن شركته الملاحية - بيتسم نو جراند - أوري متأملًا ويواصل حديثه :- الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء، أليس كذلك؟ كان باستطاعتك القدوم بارتياح شديد في طائرة...

- الطائرة تصيبنني بالدوار - يقول كيم.

- أحمًا، مسيو؟

- يمكنني أن أقسم على ذلك.

- هل كنت حضرتك تعرف أن بعض سفن شحن صديقك المحترم مسيو

ليفى تهرب الأسلحة للشيوعيين الذين يريدون الاستيلاء على شنغهاي؟

- لا أدري عن ماذا تتحدث.

- أوه، أنا شديد الأسف. ربما أعبر عن نفسي بشكل سيء، ففرنسييتي

أولية بعض الشيء - يقول رجل العصابات الصيني خافضًا عينيه. يحدس

كيم أنه يخفي وراء وسامته، وحركاته المهدبة، وجلده الرقيق الوردي،

أعوامًا أكثر بكثير مما يبدو عليه - لكن هذا أيضًا هو حال فرنسييتك،

مسيو. فأنت لست فرنسيًا، كما قيل لي.

- لقد قيل لك الحقيقة. فأنا قطالوني وإسباني، وصدقني إن قلت لك

إنني بدأت أسام من كوني هذين الشينيين. لذا فإن صبري ضئيل، خصوصًا

إزاء قاتل مأجور مثلك متكرر في زي سلحفاة عجوز. ماذا تريد مني؟

نون أن تغيض ابتسامته الخزفية، يحتسي نو يويشنج رشفة من
الشمبانيا ويقول :-

- لا تكن مندفعًا هكذا، يا صديقي العزيز. هل تسمح لي بسؤال؟ لماذا
أتيت إلى شنغهاي؟

- لو قلت لك لشراء قبعة، كما قالت شنغهاي ليلي^(١) عام ١٩٣٢، فلن
تصدقني.

- حضرتك لديك حس دعابة غريب - يبتسم نو جراند أوريي -. يجب أن
نفهم بعضنا. لنرى... لماذا لا يجلس صديقي المحترم إلى مائدتي ويقبل
كنسًا من الشمبانيا؟

- أحب الشراب وحيدًا.

- لنندع جانبًا افتقارك إلى اللياقة. على أية حال، أريد أن أقدم لك معروفًا.
- لنرى.

- علي أن أقترح عليك أن تغادر شنغهاي.

- لا تحلم بهذا.

- لم لا، مسيو؟ ما هذه الطريقة في الكلام؟ - يبتسم نو ابتسامة واسعة
- الحلم شيء حسن. أوصيك به.

- أنا لا أحلم أبدًا أحلام يقظة.

- لا أعتقد. ما كنت لتصل إلى شنغهاي ما لم تكن تفعل. حسنًا، على

الأقل، أتحب أن تتعشى معي؟ لدينا حساء ثعابين، وجنود لوتس وجولاي^(٢)،

أتعرف ما هو؟

(١) Shanghai Lily.

(٢) Ju lai.

- لسان الخنزير. لا، شكرًا.

- أرى أنك قد أحرزت تقدمًا كبيرًا في لغتي... في النهاية، هل ستقبل نصيحتي الطيبة، مسيو؟ - أصبح صوته الآن أكثر خشونة.
- لا تتعب نفسك.

- في هذه الحالة يجب أن أحذرك: ستقع في مشاكل، مسيو.
- ليس من عابتي الدخول في مشاكل - يقول كيم ببرود -، لكنني إذا فعلت، فأعلم أنني أمضي حتى النهاية.
الآن تعزف الأوركسترا^(١) لحن أمابولا، وفجأة، من بين أرق طيات الذاكرة، يسترجع كيم لوهلة أمك وهي ترقص بين ذراعيه ببطء شديد وكأنها نائمة، ورأسها مستند باسترخاء على كتفه: إنها أغنياتها الأثيرة وكانت تدندن بها باستمرار، إنها نوع من التعويذة ضد معاكسة القدر والنذر السيئة. وفي هذه الأثناء، يراقب دو جراند - أوريي سحنة كيم بانتباه ويردف بصوت رقيق:

- سأقول لك ماذا ستفعل، مسيو فرانش. ستأخذ طائفة وتعود إلى فرنسا غدًا دون تأخير، عن طريق اليابان.
- قلت لك إن الطائرات تصيبنني بالدوار.

- إذن اذهب في مركب. ثمة ألف طريق لمغادرة شنتغهاي، مسيو، والمهم أن يفعل المرء ذلك بقدميه بدل أن يكون عليهم أن... يدفعوه - يعاود الابتسام وتكاد عيناه تنغلقان تمامًا - أففهم؟
- لم كل هذا الاهتمام بأن أذهب، يا دو؟

(١) Amapola.

- لنقل إن في شنفهاي أكثر مما يجب من الشيوعيين.
- هل هذا ما يعتقد عمر؟
- لا أدري ماذا يعتقد هذا الجنتلمان المحترم - يقول نو، وتتلاشى
ابتسامته - فليس صديقي.
- حقاً؟
- يمكن أن تسأله.
- إذن، فمعلوماتي غير صحيحة.
- فعلاً - يقول نو - حسناً، مسيو، ما رذك؟ هل ستضع نصيحتي في
اعتبارك؟
- لدي خطط أخرى. ولا يدخل فيها إضاعة وقتي مع أمثالك
- يقول كيم. ويردف: - جيا اكسي جن زو^(١)
وهو تعبير يُقال في الصين حين يحاول أحد خداعك من خلال كوميديا.
- تشانج شو^(٢) - يرد عليه نو - حياة مديدة، مسيو.
يلقي كيم نظرة أخيرة على التابعين اللذين يحميان نو ويوشننج،
ويستدير نصف نورة ويعود إلى البار عابراً صالة القمار ومحاذياً منصة
الرقص، متنوفاً آخر ألحان أمابولا والعطر الفواح الذي لا يذبل لشعر أمك
الاشقر. يدفع ثمن الويسكي ثم يغادر اليلو سكاي كلوب.
يقرر العودة إلى المنزل سيراً على الأقدام وحين يصل تكون الساعة قد
بلغت زهاء الثانية والنصف. كانت تشن جينج قد أعطته قبلها مفتاحاً، حتى

(١) Jiaxi zhen zu.

(٢) Chang shou.

لا يحتاج إلى إيقاظ دنج، الذي ترك أنوار الصالون والشرفة مضاعة، مثل كل ليلة. وفي غرفته، وبينما يخلع ملابسه، يفكر كيم في دو جراند - أوديني: ماذا وراء تهديده؟ وأي مصالح يخدم، ومصالح من؟

الجو شديد الحرارة وقبل أن يأوى إلى فراشه يدخل تحت الدش، ثم يعبر الصالون ملتفًا في برنس ويخرج إلى الشرفة ليدخن سيجارة. يسمع ضجيجًا خلف ظهره وحين يلتفت يجد دنج، يقف في احترام وصمت، مترددًا خلال بضع ثوانٍ.

- هل يحتاج المسيو إلى شيء...؟ - يقول الخادم الوفي أخيرًا. يراقبه كيم بانتباه. يسأله عن السيدة، فيخفض دنج عينيه ويقول إنها نائمة منذ انصرف المسيو.

- هل تعشت؟ - يسأل كيم.

- لا، مسيو، لم تشأ أن تأكل شيئًا.

يظل دنج موجهًا بصره إلى الأرض، متفكرًا. يبدو أنه يريد أن يضيف شيئًا، لكنه ينسحب أخيرًا.

ينام كيم نومًا سيئًا وينهض عند الفجر. من النافذة يرى شمسًا حمراء كبيرة تبزغ من البحر. وبعد أن يتناول شايًا في المطبخ يظن أنه نسي السجائر ليلة البارحة في الشرفة ويذهب للبحث عنها، لكنها ليست هناك؛ يعود إلى غرفته ولا يجدها هناك أيضًا. في هذا الذهاب والإياب يعبر الصالون القسيح أربع مرات، وفي كل مرة، يتوقف بضع ثوانٍ ناظرًا إلى كل ما حوله: الأرائك المنجدة والمساند الحريرية، البيانو الضخم، الصوان الضخم وبه المراوح وتمثيل اليُشب والزجاج، النباتات ذات الأوراق اللامعة

الخضراء والستائر العالية؛ يفعل ذلك بإحساس غامض بحضور جديد، بعاطفة نافرة كامنة عن قرب لكنه ما زال لا ينجح في تبيينها، بالإحساس الحي بأنه إزاء شيء لم يكن موجوداً في الصالون من قبل. البيانو مفتوح ولوحة مفاتيحه عارية، وصامته وفي نفس الوقت بليغة إلى حد أنها تبدو وكأنها ترغب في إعلان ذلك...

يחס كيم أن قلبه ينبهه قبل عقله. لم يتبين بعد موضوع قلقه، لكنه يحدس أنه الآن حقاً سيلتقط الإشارة، ربما لأنها هذه المرة أكثر من إشارة أو إنذار بالخطر، إنها تعبير عن عاطفة وما هي ذي، فوق البيانو بالضبط: الورد الصفراء ذات العنق الطويل التي لم تكن موجودة حين وصل البارحة والآن، وقد نوت قليلاً، وصارت على وشك فقدان تلك النضارة وذاك اللون الشديد الحيوية اللذين كانا بالأمس ينبعثان منها على إحدى موائد اليوسكاى كلوب، تميل في كأس مستدق من الزجاج وكأنها تريد النظر إلى نفسها في السطح اللامع للبيانو الضخم، يتساقط منها العبق الأخير والغموض الأخير.

٤

كان الليل وعطر الورد قد اخترقا القاعة دون أن ندري ونهضت لأضيء النور. لم تكن زهرة النسيان الزرقاء، أيها الغلامان، وليتها كانت! بل كانت زهرة خيبة الأمل الصفراء... وهنا توقف فوركات عن حكايته كأن الضوء الكهربائي قد قطع فجأة خيط ذكرياته ونهض من على حافة الفراش، ومشى بضع خطوات جيئة وذهوباً مطرق الرأس بشكله الشبيه بغومانشو، ويداه مختلفتان في كميته وملتصقتان ببطنه، ثم ربت رأس سوسانا وخرج إلى الحديقة.

عاد بعد برهة، لكنه قبل أن يدخل، من عند الباب ويداه خلف ظهره، أمرني بأن أطفئ النور. فعلت فدخل ويداه مرفوعتان، مظهرًا راحتين مكسوتين تمامًا بالنور، تلتصعان معلقتين في الظلام كأنهما راحتا شخص آخر.

- وأنا كمان! - قالت سوسانا متحمسة - وأنا كمان!
- افتحي يدك، - وضع فوركات في يدها بعناية ثلاثًا من ديدان الوهج -
أتريدين أن تصبحي شبحًا في الظلام؟ ادعكيها برقة شديدة على وجهك، وهكذا، ستصيرين شبحًا لبرهة.
- لبرهة فقط؟ - قالت هي.

- الأشياء الجيدة لا تدوم طويلًا، أنت تعرفين.
برز وجه سوسانا من الظلمات كأنه قناع مضيء، عندئذ مضى فوركات إلى المطبخ وتركنا وحيدتين؛ تلك الليلة كان يود مفاجأة السنيورة أنيتا، التي كانت على وشك العودة من السينما، بطبق آخر من أطباقه الخاصة.
- تعال - قالت سوسانا بصوت خافت، مقرقصة على الفراش -، قرب وجه العبيط هذا. هيا، لا تخف، اجلس إلى جوارى...

جلست على الفراش ودلكت هي ديدان الوهج في وجهي وصدري بحركات سريعة، فاتحة أزرار قميصي، كانت الديدان باردة وتثير الدغدغة، ثم فكت سوسانا أزرار قميص نومها وأدخلت الأصابع الغريبة الملتصعة بالفوسفور عند مستوى قلبها تاركة على الجلد ومضات عابرة من الضوء. ودون أن تدير بصرها عني، اقتربت مني أكثر زاحفة على ركبتيهما فوق الفراش، وظلها مقوس إلى الخلف، ومتوتر، وتلكأت يدها المشتعلة تحت

قماش قميص النوم لتدعك ثديها . كان وجهي قريباً جداً من وجهها ، الذي أخذ وميضه الفوسفوري الشبحي يخبو بسرعة ويحطني على التصرف منتهزاً فرصة نوع لا أدريه من التَّقَنُّع ، والمجهولية أو الإفلات من العقاب . وشعرت بتنفسها المضطرب ويتنفسني كذلك ، لكنني كنت مبهوراً بالدرجة الأولى بالثدي النوراني الذي يكشف عن الإبط وسمعت بالكاد وشوشة صوتها :-

- هل تحب أن تقبلني...؟ إذا لم تفكر كثيراً في ميكروبياتي ، أمكنك أن تقبلني . نعم تحب ، يا عبيط . لكن قبلة عميقة ، هيه؟ رداً جحش وأكثر من جحش!

عشت من جديد ألف مرة ذلك الوميض الفوسفوري وذاك التوقد في الظلام ، ذاك المزيج المريض من الجنس المقنع والمرض العضال والخجل ، ودائماً ما تجتاحني نفس الحسرة ، نفس الشك : فلست أدري إن كانت سوسانا هي التي سمحت لي بمجرد لمس شفيتها أم أنني أنا الذي لم أرد الذهاب إلى أبعد من ذلك .

بالطبع كنت أشتهي أن أقبلها ، وأن أخلع ملابسها وأريت على نهديها وفخذيها المحمومين ، وكنت مستعداً ، ما دام لا مفر من ذلك ، أن ألتقط العنوى من ريقها ومن نفسها وأن أنال نصيبي من الميكروبيات... لكنني بالتفكير في ذلك فقدت مرة أخرى بضع ثوان ثمينة ، وتخشب ، فلاحظت هي ذلك وأبعدتني بيديها .

- حسناً - قالت - الآن اذهب - وعاديت الاستلقاء بين الملاعات . كانت بقايا من ضوء لا تزال في وجهها وفي يديها ، انطفأت تعاماً على الفور .

- ما أقل ما تكوم - قلت لكى أقول شيئاً، وأنا تعيس.
- نعم، قليلاً جداً.

- غداً، إذا أردت، بحثت لك عن المزيد من ديدان الوهج في الحديقة لنلون بها أنفسنا مرة أخرى...
- نعم، غداً - قاطعتني - لكن الآن أضى النور واذهب.

٥

ذات مناسبة، سمعت الكابتن بلاي يحكي في أحلام يقظته عن مهنته الأصلية المحبطة، مهنة النشال الراقي، مهنة أولئك الذين يحركون «مناكيرهم» في عربات الترام والمترو بكل الحذر وكل البراعة اللذين يجعلان من المهنة فناً حقيقياً. قال لي إن يده ما زالت تحتفظ بذاكرة لمسية معينة، بحنين غاف لحافظات النقود الجلدية العبثنة بالساعات الساخن، لأنه في صدر الشباب قام بتدريبات وتلقى دروساً نظرية من الخطيب الأول للدونيا كونشا، وهو رجل بارع من مورثيا^(١) سكن بعض الزمن في الحي، وانتهى الأمر بالكابتن إلى أن سرق منه ليس حافظ نقوده، بل خطيبته...

حسناً، لم أصدق الحكاية تماماً، مثلما في العديد من المناسبات، لكن ذات صباح وأنا أتبعه متثاقلاً في نواحي كان كومبت^(٢) وريح داغثة تضرب ظهري وحافطة التوقعات تحت إبطي، أتحت لي الفرص للإعجاب بشكل عابر بمهاراته. ذلك اليوم، كان الكابتن يفتح ضمادات نظيفة وكان رأسه المدبب المرتفع، بشعره النافر عند شوشته، يبدو كجزرة بيضاء. ولا أدري لماذا، ربما

(١) murcia مَرْسِيَّة عند الأندلسيين، تقع في إقليم أليكانتى جنوب شرقى إسبانيا - م.
(٢) Can Compte.

لإضفاء لمسة رومانسية على تتكره المهلهل في هيئة من أصيب في حادث،
كان منذ يومين يربط نراعه بكوفية رمادية قديمة معلقة في رقبتة.

كنا قد بلغنا الجزء الأخير من شارع ليجاليداد، حيث كانت المصاييح
مكسورة بإلقاء الحصى عليها ولوحة اسم الشارع غير قابلة للقراءة،
انتظرني الكابتن حتى لحقت به، وأسند يده على كتفي وظل ساكنًا لبرهة
ينصت إلى وشيش الريح في أشجار النخيل. حينئذ فرملت سيارة بعنف إلى
جوارنا، وأخرج السائق رأسه من نافذتها، ويعد أن تأمل، بالغ الاندهاش،
هيئة الكابتن، سأل إن كان شارع ليجاليداد قريبًا. كان رجلًا معتلًا، ذا
أنف أفطس، وشفاه غليظة وشعر أسود ناعم مدهون بالبريانتين. كان يرتدي
سترة رياضية أنيقة زرقاء شديدة الشبه بسترة عسكرية، بكتافيات عالية
وأزرار ضخمة، مفتوحة عند الصدر الكثيف الشعر وتظهر منها مجموعة من
أقلام الحبر الرائعة مشبوكة في الجيب الداخلي. أجابه الكابتن إننا بالضبط
في الشارع الذي يبحث عنه، وأدهشني أن يفعل ذلك بالقطالونية. إنها المرة
الأولى التي أسمعه فيها يتكلم بلغته :

- Justament ens trobem en el carrer que busca, senyor, es
aquest...^(١)

قاطع الرجل بجفاف:

.. أنا لا أفهم لغة الكلاب، يا هذا. كلمني باللغة المسيحية.

- Que diu, senyor?^(٢)

(١) أنت بالضبط في الشارع الذي تبحث عنه، يا سيدي، إنه هذا...

(٢) ماذا تقول يا سيدي؟

- أجب بالإسبانية، حين تُسأل! - لاحظ الذراع المربوط للكابتن، والبيجاما المخططة والمعطف، والضمادة والنظارة، وأردف متهكمًا :- من أين خرجت بحق الشياطين بهذه الهيئة؟ هل هربت من غرفة عمليات جراحية أم من مستشفى مجانيين؟

- No n'has de fotre res, gamarus. ^(١)

فهم الكابتن، وأنا أيضًا، أننا إزاء شخص لا يعرف ولا يريد أن يعرف كلمة واحدة من القطالونية. ترك الرجل فرملة اليد وبحركة نشطة أكمل فتح زجاج النافذة، مصممًا :-

- حدثني بالإسبانية، أقول لك، يا أحق! أو أقسم لك أنني سأجعلك تفهم! لنرى، أين يقع شارع ليجاليداد اللعين ذاك؟!

افتتر ثغر الكابتن بلإي عن ابتسامة ودية بين الضمادات وانحنى باحترام أمام نافذة السائق الحائق، وفي هذه اللحظة عرفت أن الحماسة قد بدأت. كنت قد تأخرت في التقاط إشارات الخطر: لازمة عصبية، والرأس المائل قليلًا، ونحنة من المعتاد أن تسبق تأملًا عميقًا، وتوترًا عضليًا أو خشخشة للعظام تعتقد حواسي أحيانًا أنها تلتقطها، فكان العجوز المجنون حين يفرد ظهره تنبهني طقطة فقراته إلى الحماسة الجديدة الوشيكة. وفي الحقيقة، لم يكن واضحًا لدي أبدًا ولم يهمني كثيرًا إن كان ما يحرك الكابتن، خصوصًا في المواقف المعاكسة، هو دافع لاعقلي بالمعنى المحدد، ذلك الشيطان الذي يحمله داخله، أم أنها عادات عقلية ملازمة للهزيمة، نوبة الغضب الأخيرة لروح منتقمة ضالة خارت قواها. في تلك

(١) ليس هذا من شأنك، يا أحق.

المواقف، كنت أكتفي بالبقاء واقفاً إلى جواره، صامتاً ومتوقفاً. الآن حدثت عيناه المحتميتان خلف النظارة الداكنة في هدفها في صدر السائق: ولا بد أنه فكر، إذا كانت الأقلام في هذا الجيب، فالمحفظة في الآخر.

- نعم، يا سيدي، لا مؤاخدة، قال الكابتن بأكثر الأصوات خضوعاً ..
إنني أتكلعها بشكل سيء جداً. ولا يتعلق الأمر باللهجة، لا، فالمرء لا يحاول حتى أن يقارن نفسه بسيد من مدينته.^(١) إنه بناء الجملة، أتعرف؟، التدفق الطبيعي للغة...! أما أنني حمار! لا تلتفت إلي...!

- خلاص، اللعنة، لنتته من الأمر! قل لي بحق جهنم أين شارع ليجاليداد مرة وخلصني، إن كنت تعرف، أيها العجوز الخرف، ثم اتعب إلى الجحيم! ..
طبعاً أعرف! انظر، خذ سيادتك أول شارع على اليمين فترى على الفور ميداناً، هناك استدر مرة أخرى إلى اليمين وسوف تصل إلى طريق الخنزيراليسيمو،^(٢) دياجوناو سابقاً، ثم استمر سعادتك إلى اليمين طوالي وسوف ترى تمثال القس سينتو فرداجير، وهو شاعر عامي وانفصالي مشكوك في موهبته، كما تعرف حضرتك...

- هيا، هيا، لا تضيع عليّ المزيد من الوقت!
- حسناً، ثم من هناك على طول ولا تتوقف حتى تتجاوز بيدراالبيس، ومن هناك ستري حضرتك يافطة تقول سان باوبيليو، أو بالأحرى سانت بوى، وأصل مسافة كيلومترين آخرين وستجد نفسك في شارع ليجاليراد، لا يمكن أن تتوه...

(١) العاصمة مدريد كما تنطق بلهجة أهلها - م.

(٢) لقب الجنرال فرانكو - م.

بينما يتحدث، أسند الكابتن ذراعه المربوط على النافذة واليد الأخرى على سقف العربة. وفي لحظة معينة نقر بأصابعه على الصاج. كان الصوت مثل صوت قطرات المطر فرفع السائق العنزعج بصره لثوان. كانت كافية. تحركت اليد الخاملة المعلقة بالرباط بسرعة خاطفة نحو الجنب الأيمن للسائق، بالسبابة والوسطى مفتوحين على هيئة منقار، وبسرعة البرق، انتقلت محفظة منتفخة من الجاد البني من هناك إلى الجيب العميق لمعطف الكابتن، حين كان يريث:

- حقيقي أنك لا يمكن أن تتوه.

- أترى، كيف أنكم تعرفون كيف تتحدثون كما يأمر الرب؟ - ابتسم الرجل هازئاً وهو يدير مفتاح التشغيل... الموضوع هو أنكم لا تريدون، من وضاعة أصلكم، اللعنة.

- أنا شديد الشرود، اعذرني - اعتذر الكابتن، أسفاً - منذ لا يريد الحديث بلغة الامبراطورية؟ وأنا بالذات تروقني اللغات، الإنجليزية، الفرنسية... - يكفيننا ويزيد لغة واحدة! - لم يستطع إدارة المحرك... إنك ما زلت تتحدث بكلم، لكن ستزول اللكنة منك مع الزمن.

- مع الزمن، نعم يا سيدي، هذا ما أرجوه - هز الكابتن رأسه بخضوع... إننا نفعل ما نستطيع، نعم يا سيدي، مع الزمن. لا تنس: طوالي حتى سانت بوي، لن تتوه.

- اسمع، أنت بذك خفيف، يا جد. قبل أن أذهب أريدك أن تصنع لي معروفاً آخر - نظر إلى الكابتن بعينين ساخرتين ومشفقتين... حقيقي أنني استملطتك، يا أحرق، لنر، كمر معي: dieciseis jueces comen higado^(١) كيف تقول هذا؟ قلّه بسرعة.

(١) القصد هو التهمك على عدم قدرته على النطق الصحيح لحروف س وث كثيرة وقريبة من بعضها. مثلاً تقول في العامية المصرية: قميص نفيسة نشيف، لسه مانشفشى - م.

- إنه بيت شعر وطني لجوان ماراجال.
- لم أكن أعرف. هيا. قله.
- إنه يفقد الكثير بالترجمة. وهو يشير إلى رجل علقوه مشنوقاً في جبل
مونتسيرات، أنت تعرف، حيث المورينيتا...
ينفذ صبر الرجل، وهو يضحك. أخيراً دار المحرك.
- ترجمه لي، هيا، يا مهرج!
- نعم، يا سيدي، تحت أمرك. ستة عشر قاضياً ياكلون كبدة مشنوق.
وله بيت آخر جميل جداً بنوره، هذا الشاعر ماراجال:

elastics blaus suats fan fastic

وهو مهدي إلى الجيش الألماني المجيد.
- ترجمه إلى المسيحية، يا أهبل.
- أحزمة زرقاء غارقة في العرق رائحة...
- أنت شخص ظريف، رغم كونك قطلونياً. هيا، عسى أن تنال الكثير
من الصداقات، أيها العجوز المخبول.
- أطلق ضحكة مخشخشة، كما أطلق قدمه من فوق الفرامل فانطلقت
السيارة بعنف. وقبل أن نراه يترك شارع ليجاليداد وينعطف عند الناصية،
جذبني الكابتن من يدي وتسلسلنا في الاتجاه المضاد. قال، أرسلناه إلى
سابع أرض.
كان في المحفظة مائة وخمسون بيسيته. أعطاني الكابتن الخمسين،
وحظر عليّ إنفاقها في السينما وفي البلياردو. «اشتري ورق رسم لكي ترسم»،
قال، «والباقي لأمك، فهي في أشد الحاجة إليه».

في الليل حكيت الأمر لأمي فأشفقت على الكابتن، وقالت لي إنها
سترجو السيدة العذراء أن تمنح العجوز صحة جيدة، ووضوحًا في ذهنه،
وعمرًا مديدًا؛ وأن ما فعلناه ليس طيبًا. أن نرسل ذلك الرجل المسكين إلى
مسافة بعيدة هكذا، يا للفضاعة. لكنها احتفظت بالنقود عن طيب خاطر.

الفصل السابع

١

ظلت تعذبني ذكرى ديدان الوهج المدعوك في جسدها وبقعة أحمر الشفاه على أسنانها، وزهرة فمها السامة وهي تتفتح ذاك اليوم الذي تظاهرت فيه بأنها ميتة، وأحسست بأن شعوراً بالخجل والحزن ينمو في داخلي.

وبعد ذلك بأسبوعين سنحت لي الفرصة للحصول على العفو. لن تتجاوز أيام الأحد التي خرج فيها فوركات من البرج ذاك الصيف خمسة أو ستة أيام، دائماً بصحبة السنيورة أنيتا ودائماً، فيما عدا المرة الأولى، في الصباح؛ وفي مرات خروجه الأخرى كان يذهب وحيداً ويحضر أشياء للطعام. إذا كان اليوم يوم أحد، كانا يذهبان معاً إلى الحفلة الصباحية لسينما روكسي وفي عدد من المرات، في وسط الأسبوع، إلى الحمامات الشرقية في شاطئ برشلونيتا. كانا يعودان حاملين بطيخة أو كيلو جراماً أو اثنين من بلح البحر أو الشعرية المبططة^(١) وكان فوركات

(١) عجينة مثل الشعرية يصنعها الفلاحون بجعل العجينة مبططة ثم تقطعها إلى شرائع رفيعة - م.

يصنع المايونيز ثم يدخل شديد الوقار والاحتفال إلى القاعة مقدماً لسوسانا صحيفة كبيرة من بلح البحر المطهى على البخار، وعندها تتنادي سوسانا الأخوين تشاكون عبر الحديقة وتاكل جميعاً حول الفراش.

لم تعد أمها تتركها وحيدة في المنزل أبداً، فلم يكن فوركات يوافق على ذلك. كانا يخطرانى بخروجهما في المساء السابق فأبقى لمصاحبتهما، بعد أن أبلغ الكابتن بلاني.

و ذات أحد كنا فيه وحدنا، وبعد أن مزقت مرة أخرى رسمي لأنه لا يعجبها، قرفصت سوسانا في الفراش واقترحت أن نقوم بزيارة تفتيش إلى غرفة نوم الضيف.

- لا يجب أن تمشي حافية - قلت لها بينما نصعد إلى الطابق الأول في السلم الحلزوني.

كانت غرفة فوركات ضيقة ومظلمة، وبدأت في نظافة ونظام دقيق. كان هو نفسه يرتب الفراش ويمسح غرفة الحمام الصغيرة، التي كان بابها مفتوحاً. على المنضدة الليلية الصغيرة كان هناك كوب ماء مغطى بطبق قهوة صغير، وحبّات أسبرين، وطفاية سجائر نظيفة وعلبة سجائر ماركة إيديال. لم نكن قد رأينا فوركات أبداً يدخل في البرج، ولا حتى في الحديقة، ولا بالطبع في القاعة أمام سوسانا. وكانت حقيبة الكرتون القديمة تحت السرير.

- هل نفتحها، لنرى ما بداخلها؟ - قالت سوسانا.

جذبت مقبض الحقيبة وفتحتها سوسانا، المقرفصة إلى جوارى، فانبعث منها عطر فاغم وبري، هو الرائحة التي لا تخطئ ليدي فوركات. كان

بداخلها خليط من قصاصات الصحف الفرنسية، وخرائط وكراسات دعاية لوكالات سفر، وكراسات أغاني من ذات الخمسة ملايين، وكتاب نون غلاف تصفحته الأيدي عنوانه الحملة من أجل الخبز، وأغلفة اسطوانات أجنبية عليها أغنيات بالإنجليزية والفرنسية وفي ركن الحقيقية، ملفوفاً في بلوفر أسود قديم يلف بدوره قطعة جلد شمواء صفراء شديدة النظافة، ظهر مسدس صغير ذو ماسورة قصيرة، لا يلمع ومن الجودة بحيث بدا غير حقيقي.

- هل هو لعبة - قالت سوسانا.

- ماذا تقولين - وزنته في يدي.. أياكون محشواً؟

انزعته مني سوسانا، ولفته بسرعة في جلد الشمواء وفي البلوفر ووضعت من جديد في الحقيقية، وانتقلت إلى فحص قصاصات الصحف. كان أغلبها أخباراً صادرة من باريس، ومن شنغهاي، وجميعها بالفرنسية، وكان ثمة صورة لمتسابق دراجات كبير الأنف، هو فاوستو كوبي^(١)، على قمة ممر جبلي تغطيه العاصفة الثلجية وعلى صدره يتقاطع إطارا دراجة ووجهه يكسوه الطين، مثل شبح في وسط الجليد. وتحت كوفية متأكلة وجدنا جواز سفر عليه صورة فوركات لكنه صار باسم خوسيه كاربوه بالأجير، وداخل جواز السفر، ورقة مطوية عليها ملاحظة لكيم مع توقيعه، تقول: «أنا مدين لصديقي ف. فوركات بمبلغ هائل هو مائة وخمسون فرنك (١٥٠ف)، وكاس من الكونياك وشلوت في مؤخرته لإقراضه النقود لشخص قليل الحياء مثلي: جواكيم فرانك. تولوز، مايو ١٩٤١» كذلك وجدنا جراب أقلام قديم

(١) Fausto Coppi.

ملطخ بالحبر يحتوي على بعض العملات الأجنبية وتذكرة لمترو باريس. رسالة، ولا صورة، باستثناء صورة متسابق الدراجات المجتهد... أصابتنا خيبة الأمل والارتباك. ألم يقل فوركات إنه لم يمسك مسدسًا أبدًا؟ هل هذا هو متاع رجل ارتحل ورأى نصف العالم، رجل مثقف ودارس، فوركات المغامر العابر للأطلنطي، كما وصفه الكابتن بلاي؟ فقط يحمل كتابًا يبدو من زمان غابر.

أما أكثر ما استرعى انتباهنا فهو ثلاث قوارير فيرموت موضوعة في ركن الحقيبة، بسدادات فلين ومعلومة بسائل عكر، له خضرة خفيفة. نزعنا سوسانا سداة إحدى القوارير وشمعنا محتواها وخدانا ملتصقان، عندئذ اختلط العبق الدافئ لشعرها ونفسها المحموم بالرائحة الفريدة ليدي فوركات.

- ماذا يكون ذلك؟ - قالت سوسانا بتقطعية نفور، وسارعت بإغلاق القارورة. كنت بتأثير دافع مفاجئ، قد طوقت خصرها بذراعي، وحيز أدارت وجهها لتتظر إلي، توقفت عند شيء خلفي لم تكن قد رأت من قبل وتغير تعبير وجهها: كان الباب المفتوح لغرفة الحمام يظهر الثوب البنفسجي ذا الشرائط الحريرية، معلقًا على الحائط، بجوار الكيمونر الأسود وبيجاما فوركات.

ظلت لبضع ثوان ساكنة تنظر إلى ثوب أمها.

- اتركي هذا ولننصرف - قلت قاصدًا القوارير، التي ظلت إحداها في يدها - لن يتأخرا في العودة وسوف يضبطاننا...
- وماذا يعني هذا - قالت - الأمر سواء بالنسبة لي.

حينئذ، وبدا لي استجابتي وحرارة قاع الحقيبة لتترك القارورة بجانب الآخرين، أملاً في دبرقة وسحبت يدي بعنف وكأن حشرة مختبئة هناك قد قرصتها، انداد الدم أحمرًا كثيفًا من طرف إصبعها الخنصر.

- مُصري المبري - قلت وأنا أفحص قاع الحقيبة. وجدت سكين حلقة كان قد برز من جرابه... انظري. إنه هذا. سأضع لك كحولاً.

- لماندا. لم تنتهي أموت نزعًا وأستريح - قالت سوسانا وهي تضغط إصبعها كما لو كانت تريد عصره... يا ليت.

- لا تتزلي هذا - لففت الإصبع مؤقتًا في نيل قميص نومها، وظللنا كلانا مقرفين على الأرض بجوار السرير وعيناها تبحثان من جديد عن ثوب أمها البتة سجي في غرفة الحمام. طفر الدم من نسيج قميص النوم فأمسكت يدها، ركشفت الأصبع، ورفعته إلى فمي دون أن أتيح لها وقتًا لرد الفعل وأخذت أنص. كانت مجرد لحظة: نظرت إلي مندهشة، وبينما كنت أمص، كانت أصابع يدها الأربعة الأخرى المرتجفة والملتهبة تتحسس برفق وجنتي من أعلى إلى أسفل في إيماءة راق لي أن أفسرها على أنها تربية. جعلني ذلك من العدوى والعاطفة نفسها أغلق عيني، لكن الدم الدبق بدأ بحرارة يتملك حاتي ويافوخي: لم يكن يهمني أن أموت مصدورًا بينما تنتظر هي إلي على هذا النحو وأصابعها الحارقة تنزلق فوق جلدي. لكنها على الفور أبعدت يدها وقالت:

- ماذا تفعل، يا ولد؟ أتريد أن تصيبك العدوى؟

- لا يهمني.

- يا نصاب.

- أقسم لك.

- أنا يهمني... نهضت وخرجت مُتَعَجِّلَةً من غرفة النوم. أغلقت الحقيبة، ودفعتها تحت السرير وتبعث سوسانا هابطاً الدرج بينما أحس بأن دمها الدافئ والخلويذوب في فمي، بالحمى الخبيثة للرغبة، واحتياجها للرقعة وفزعني ومخاوفي الخاصة.

٢

مستلقية على ظهرها في الفراش، ذراعها اليمنى مثنية تحت رقبتها، والوجه البالغ الشحوب ملتفت نحوي وناظر إلي بلا مبالاة، نائية وتحت عينيها هالتان داكنتان، وفي شعرها قرنفة صفراء والقط القماشي جالس شديد التصلب يرقبها خلف رأسها، واللحاف السماوي متدل بإهمال رومانسي ومحسوب من حافة الفراش حتى يلمس أقدام المدفأة الحديدية التي تحمل القدر الذي تنصاعد منه أبخرة الكافور، وخلف كل هذا النافذة الزجاجية الضخمة ووراءها الصفصافة الباكية في الحديقة، وفي الخلفية إلى أعلى، المدخنة القاتلة، مشرفة على مشهد متهدم ومبطل، تنقياً بخانها الكريه الأسود الخائق فوق البيت الزجاجي حيث ترقد الطفلة المريضة...

سانجاً ومرعباً على هذا النحو كان الرسم الذي فرغت أخيراً من تلوينه ووافق عليه فوركات بعد أن نصحني ببعض اللمسات؛ تحولت القرنفة من الأصفر إلى الأحمر، واكتسبت الجبهة المحتضرة، والوجنتان الذابلتان، والقدمان العاريتان لسوسانا وميضاً عاجياً خفيفاً. لم أتمكن من وضع الخوف في تلك العينين الجميلتين، الشديديتي المرح أحياناً، وهنأت نفسي على ذلك. وبالكاد وجهت إليه سوسانا نظرة احتقار.

وبالمقابل، أظهر الكابتن الرضا وسارع بالاحتفاظ به في حافظته مع رسالة الاستنكار والتوقيعات. أربعة عشر توقيعًا كانت هي كل ما حققناه حتى لحظتها، لكنه كان واثقًا من أن الرسم الذي يمثل المصدورة المسكينة في معاناتها سيصل إلى قلب المواطنين ملتصقًا تضامنهم.

شرعت على الفور في العمل في الرسم الآخر وفكرت أن أجعله شديد الشبه بالأول في كل شيء باستثناء شكل سوسانا المستلقية في الفراش؛ فقد كانت هي تريد أن تظهر في هيئة حاملة ومرتدية تشيبياو أخضر ضيق جدًا. لكن لا الوضع الناعس ولا الرداء الفرائبي طاوعا أصابعي؛ كنت أبدأ الرسم ثم أمزقه المرة بعد المرة، يومًا لأنه لا يعجبها واليوم الآخر لأنه لا يعجبني أنا. ورغم ذلك، فإن سوسانا، في ذلك الثوب الحريري الذي ما زال سيء الخطوط وبلا ألوان تقريبًا، المعلق حتى العنق وشبه المجعد، بدأت تبدو مثل صينية حقيقية وكان في الرسم شيء لا يمكن تحديده يروقني حقًا، ويرجع بالطبع إلى توليفة عرضية للألوان أكثر مما يرجع إلى مواهبني في الملاحظة وبراعة يدي: الآن بدا أن النومة ذات الفقائيع التي تنتشر من فوهة المبخنة، الدخان الأخضر المسود المعلق فوق الرأس المستلقي لسوسانا، يهدد فعلاً أحلام المسافات البعيدة والحرارير الشرقية التي يوحى بها وضع الصبية المصدورة وفستانها. وفي تلك الأيام بالضبط قالت لي هي أن فوركات على علم بسفينة بريد إنجليزية، هي منشكين ستار^(١)، تبحر مرتين في العام من ليفربول نحو شنغهاي وتتوقف في برشلونة في أكتوبر وفي أبريل.

(١) Munchkin Star.

- حواف الجونلة ليست هكذا - احتجت مرة أخرى عندما عرضت عليها الرسم - أنت ت اخترع الفستان، يا ولد. هاتان الفتحتان يجب أن تكون حوافهما مستديرة...

- لا شيء من هذا - قلت - لقد رأيته في الأفلام والحواف هكذا. اسألي فوركات.

قذفت اللوحة على رأسي، وبللت منديلها بماء الكولونيا ودلكت صدرها ووجهها، ثم أمسكت أوراق اللعب وبدأت تلعب دورًا منفردًا فوق لوحة السلم والشعبان على حجرها.

- إلى متى يتأخر - قالت بعد برهة - كلما ازداد الحر، كلما أطلال القيلولة. ألا تظن أن من الواجب إيقافه؟ لماذا لا تصعد لتري؟ - سيفضب يومًا ما.

- دع هذه الأقلام واصعد لتحضره، هيا - أصرت سوسانا - الوقت متأخر جدًا، لا بد أنه راح في النوم... من فضلك، يا داني.

لم أصادف أبدًا باب غرفته مغلقًا، لكنني كنت أطرق بأصابعي وأنتظر في الردهة. أحيانًا يكون نائمًا على ظهره مرتديًا سروالًا داخليًا، ويداه الغامضتان مشتبكتين في هدوء فوق بطنه، وأحيانًا أخرى كنت أجده واقفًا وقد خرج لتوه من الدش، ملتفًا في الكيمونو الرائع الأسود ولايسًا صندله ذا النعل الخشبي، ممرًا ببطة فرشاة على شعره المكوي وناظرًا إلى نفسه برضا في مرآة الدولاب.

- ظننا أنك ما زلت نائمًا...

- من الذي ظن ذلك؟ - قال - سوسانا أم أنت؟

- حسنًا ... كلانا .

- حسنًا .

ألقى الفرشاة فوق الفراش، استدار مبتسمًا ووضع يده الضخمة والدافئة فوق كتفي موجهًا إياي نحو السلم الحلزوني لنهبط معًا، وأنا في المقدمة، ثم لنعبر الردهة المظلمة باتجاه القاعة المشمسة. وحين دخلنا، كانت سوسانا مضطجعة تسوي حاجبيها بملقاط في مرآة اليد. في هذه اللحظة دقت ساعة غرفة الطعام أول دقة فتماكت في الفراش كأن زنبركًا يدفعها، طوحت بالملقاط والمرآة ونظرت إلى أبيها في الصورة على المنضدة الصغيرة. وقبل أن يعيدنا فوركات إلى الفجر المشبوب الذي يصبغ بالدم نهر الهوانج - بو وزجاج واجهات البوند، ويُسعل وردة صغيرة صفراء في صالون تشن جينج فانج، أغلقت سوسانا عينيها وظلت ساكنة تمامًا خلال بضع ثوان أمام صورة كيم. وبينما تنتهي لقوها الدقات الست، أخذ الراوية الأحول، الجالس الآن على حافة الفراش، يتنحنع ليجلو صوته ويتأمل بجهامة، هو أيضًا، في الوردية.

٣

واقفعا بجانب البيانو، يمسك كيم الوردية وينسظر إليها نظرة وسواسية كأنه سيحل مفتاح اللغز في بتلاتها المتراخية بفعل الحرارة وفي ضوئها الأصفر الخامد. ليلة البارحة كانت هذه الوردية تزين إحدى موائد الليل سكاي كلوب، وحين تركت هنا، في هذا الكوب، كان هو قد نام بالتأكيد.

يستجوب الخادمة أبي ولا يستخلص منها شيئاً واضحاً. يتظاهر دنج، بدوره، بأنه لا يعرف شيئاً كذلك، لكنه لا يصمد أمام نظرة كيم ويقول بخجل ولون اقتناع إنه ربما كانت الخادمة السيامية... بعنف يجر كيم الخادم من خناقه.

- دنج، أنصت إلي جيداً. أنا مسؤول عن الأمن الشخصي لمدام تشن وسأقوم بعملتي برغمك وبرغم أي شخص كان، بما في ذلك هي. من أجل صالح سيدتك قل لي ما تعرفه أو ألقني بك إلى التماسيح، أيها الصينى الملعون... أنا لا أهزل. البارحة أوت المدام إلى فراشها بصدا ع نصفى وقالت إنها لن تخرج. لكنها خرجت. أليس كذلك؟ رد!

يؤمن دنج على ذلك، مرعوباً:

- نعم. بعد ساعة تقريباً من خروج حضرتك... أجرت مكالمة تليفونية، وارتدت ملابسها ومضت. وجعلتني أعد بالآ أقول للمسيو...

- في أي ساعة عادت؟

- متأخراً جداً. بعد الخامسة...

يقول إنه استطاع أن يراها عند وصولها لأنه لم يستطع مصالحة النوم، وأن الخوف من أن يحدث شيء سيء للسيدة قد أخرجه من فراشه، في تلك الساعة. أنه كان قد فهم من أول يوم أن المسيو فرانش، قد جاء من فرنسا مبعوثاً من مسيو ليفي لحماية مدام تشن من خطر ما، وأنه لا يرغب في شيء سوى المعاونة، لكن المدام أمرته البارحة بالتزام الصمت بصدد خروجها وكان عليه أن يطيع، رغم أنه ندم بعدها. وأنه عندما وجد أن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد انزعج وكان على وشك أن يوقظ المسيو ويقص عليه

ما حدث، حين وصلت المدام، عند عبوره الصالون، وفي يدها وردة وطلبت منه كوب ماء، وضعت فيه الوردة ووضعت فوق البيانو؛ أنه تنفس الصعداء عند رؤية المدام، وأنه ما كان ليغفر لنفسه أبداً لو كان قد حدث لها البارحة شيء سيء.

يوضح كيم لدنج الضرورة المطلقة، قبل أي اعتبار آخر، للسهر على أمن مدام تشن: كل تحركاتها، خصوصاً تلك التي تريد هي إخفاؤها، يجب إبلاغها له في الحال.

- إن يتكرر هذا، أعدك - يقول الخادم - لكن من فضلك لا تقل للمدام أنني قلت لك...

- اتفقنا، يا دنج، يمكنك الذهاب.

تنبئ الوردة فوق البيانو ويظل كيم ناظراً إليها بضع ثوان. لا يروقه ما حدث على الإطلاق ويقرر الانتقال إلى الفعل. لكن خلال ثلاث ليال متوالية، لا تخرج تشن جينج من المنزل. تستقبل زيارة إحدى صديقاتها وبالليل، حبيصة غرفتها، تدخل في محادثات طويلة بالتليفون مع باريس. خلال الصباح تشغل نفسها بعناية فائقة بالأمور المنزلية مع الخدم وفي المساء تقضي ساعات طويلة وهي تقرأ في الشرفة.

وعند معرفة أن كيم يود الحصول على زوج من الكيمونو الحريري، يظهر تشارلي وونج ذات مساء مستعداً لمصاحبته إلى متجر زوجته في شنفهاي القديمة، بالقرب من مسرح جريت وورد. تقول له تشن جينج إنها اليوم أيضاً لا تفكر في الخروج، ورغم ذلك يعطي كيم تعليمات دقيقة لدنج: «إنا خرجت السدة، فاطلبنى في متجر مدام وونج».

تعاونته سوو لين، زوجة وونج، على اختيار أثواب الكيمونو وتتقاضى ثمنها سعيدة وبأسعة نون أن تمنحه أدنى تخفيض، لكنها تهديه واحدًا آخر - سيهديه كيم فيما بعد إلي، هو هذا الذي أرتهيه - وعند الخروج من المتجر يُلمح وونج لكيم، بطريقة لبقة وغير مباشرة، ألا يتردد في القول إذا أحس ذات مرة بأنه وحيد في شنفهاي ويريد الاسترخاء مع غليون من الأفيون والتمتع بصحبة أنثوية في جو لطيف... يشكر كيم العرض ويرفضه، لكن في نفس هذه اللحظة، والاثنان متوقفان عند تقاطع كثيف المرور، يرى كروجر وهو يترجل من سيارة بيضاء مكشوفة ويدلف في باب يتدلى فوقه فانوس ضخم من الزجاج وأكاليل حمراء من ورق الحرير.

يشير كيم إليه ليراه وونج :

- أليس هذا الجنطلمان الشديد الأناقة هو عمر الشهير؟
- بالضبط - يقول تشارلي وونج - لقد دخل هناك لتوه باحثًا نون شك عن إحدى تلك التسلية اللطيفة التي اقترحتها عليك للتو، يا صديقي العزيز
- هل هو أحد بيوت الدعارة التي يديرها؟
- لا. إنه مكان لتدخين الأفيون، رغم أنه أيضًا...
- انتظر - قاطعه كيم متوقفًا مرة أخرى على الرصيف - هل حضرتهك وهذا الرجل تتعاملان؟
- حسنًا... بين الحين والحين - يبتسم وونج بشقاوة - إنه شخص معتاز ومفيد بمعنى كثيرة.
- وهل المكان ملكه؟
- أعتقد ذلك. أتود الدخول لنلقي نظرة؟

- يسعدني أن أتعرف بعمر. هل يمكنك تقديمي إليه؟
- بالطبع - يقول وونج.

مكان تدخين الأفيون هو نوع من خلية نحل مضاعة بشموع ملونة يبدو فيها كل شيء، الأرائك والستائر المنزقة ذات الرسوم الملونة، والغلايين والصينيات وعليها أطقم الشاي، والخدم الذين يتحركون في سرية والمدخنون المضطجعون، كأنه يطفو في جو مغيش ومعطر يربت على الأصداغ والجفون مثل الأصابع الدافئة والماهرة لامرأة. يستقبلهما حسيني عجوز عارضاً عليهما ركنًا مريحًا وغلبيونًا، لكن وونج يقول له أنهما يرغبان أولاً في الحديث مع السيد عمر وربما رغبا في شاي بعدها... وفي هذه الأثناء، يتقدم كيم. بعض الزبائن، منطرحين على جنوبهم فوق نسيج خشن أو واضعين أيديهم على رقبتهم، يستمتعون بحلم عميق، بينما يتناول آخرون الشاي أو أقذاح الخمر الساخنة.

يضطجع عمر ماينينجن على مرفقه فوق أريكته، ويده على خده ويراقب بما يشبه الضجر كيف تقوم شابة صينية مقرفصة عند قدميه بإعداد الغليون وتُدفئه فوق لهب الشمعة.

يلحق وونج بكيم ويقدمه إلى عمر، الذي يعد له يده بأدب لكنه لا ينهض.
- إذا رغبتما في أي خدمة خاصة - يقول عمر ناظرًا إلى وونج -، فما عليكما سوى طلبها...

- هذا لطف منك - يقول كيم - أردت فقط أن أحييك. لقد قيل لي إنه لا يمكن معرفة شنغهاي حقًا بدون معرفة الهر^(١) ما ينينجن.

(١) her : السيد بالأمانية - م.

.. وأنا كذلك كنت أود معرفتك، يا سنيور فرانش - يفاجئ عمر كيم
بالحديث بإسبانية سليمة إلى أبعد مدى - كما ترى، فإنني أتكلم لغتك.
- أعرف أنك عشت في أمريكا الجنوبية عدة أعوام.
- مؤكد. وماذا تعرف عني أكثر، يا سنيور؟ يبتسم الألماني.. هل
تعرف مثلاً أنني أحسدك، فحضرتك رجل اليوم، أو بالأحرى، رجل الليل.
فمنذ وصلت إلى شنغهاي تشاهد في كل مكان بصحبة السيدة تشن جينج
فانج. لن تقول لي إن هذا ليس امتيازاً نادراً، ليس هدية من ربة الحظ.
- الحقيقة أنني لا أستحق كل هذا الحظ - يقول كيم وهو يرد ابتسامته
.. هناك ببساطة صداقة قديمة مع زوجها. أفترض أن حضرتك تعرف.
ينظر إليه عمر ملياً بضع ثوان ثم يمسك الغليون الذي تقدمه إليه
الصينية الشابة بكلتا يديه.
- في هذه الحالة - يقول دون أن ينظر إليه.. فإن صديقنا ليفي رجل
محظوظ مرتين. وبالمناسبة، يا وونج، متى سنذهب إلى هانججو لصيد
البط؟
- حين تشاء.
- هل تحب الصيد، سنيور فرانش؟
- البط ليس نقطة ضعفني - يقول كيم، ويراقب رهافة ودقة يدي الألماني
وهما تمسكان بغليون الأفيون.. رغم أن الأمر يستوي لدي، في ساعة
الصيد. أعتقد أن هناك مثل صيني يقول: لا يهم أن يكون القط أسود أو
أبيض، المهم أن يصطاد عصفور الكناريا.
يستريح عمر في أريكته ويبتسم ابتسامة خفيفة:

- إن قط المثل لا يصطاد عصفور كناريا، سنيور فرانش، بل فأراً.
فأراً عادياً. والآن، يا سادتي، أرجو المعذرة... أتمنى أن أراك ذات ليلة في
نادي الليلى، سنيور فرانش، سيكون من نواحي سروري الشديد أن أدعوك
إلى بعض الكؤوس.
- لن أتخلف.

بعد خمسة أيام بلياليها لم تتحرك فيها من المنزل، تقرر تشن جينج،
في يوم جمعة حار، عند انتهاء العشاء، الذهاب إلى سينما متروبول فيرافها
كيم. يشاهدان فيلماً صينياً مصوراً في شنغهاي بممثلين صينيين وعنوانه
سبرينج ريفر فلوز إيست^(١)، شيء من قبيل نهر الربيع ينساب شرقاً. لم
يفهم كيم شيئاً مما يدور على الشاشة، لكنه التقط هارمونية النظرات وعطراً
معيناً للعواطف. وعند الخروج من السينما، تقترح هي تناول شيء في
السيك هات^(٢)، النادي الليلى الأنيق حيث يمكن الرقص تحت النجوم وحيث
تأمل في الالتقاء بسو لين مع زوجها وأصدقاء آخرين.

وبعد نصف ساعة، وبينما تستقر تشن جينج على إحدى موائد السيك
هات مع زوجة وونج يحوطها معجبون نون تحفظ، يقتاد أحد أصدقاء
المجموعة كيم إلى البار ويقدمه إلى مهندس إسباني قضى اثني عشر عاماً
في الصين يعمل في شركة إنجليزية للأقمشة القطنية ولها مصانع في هونج
كونج وفي شنغهاي. اسمه استيبان كليمنت كوماس، وهو رجل ودود مليء
بالحيوية، وله نفس عمر كيم وتنتاب الاثنين دهشة فائقة عند تقديمهما إلى

(١) Spring River Flows East

(٢) Silk hat

بعضهما: فقد درسا كلاهما في مدرسة هندسة النسيج في تيراسا في نفس
الدفعة. يود كيم الاحتفال بهذا اللقاء ويدعوه إلى كأس، يحتسي كليمنت
المارتيني وقد بلغ الكأس الثالث، ويطلب هو ويسكي بالصودا ويسترجعان
أيام المدرسة، بعدها يشير كيم إلى صداقته مع ميشيل ليفي وآماله بالعمل
في شنغهاي.

تجذب تشن جينج، الجالسة مع أصدقائها على مائدة قريبة من البار،
أنظار كليمنت.

- يا لها من امرأة غير عادية، ويا له من مزاج - يقول معجباً - هل كنت
تعرف أنها في سن السادسة عشرة اغتصبها اليابانيون واحتجزوها في
بيت دعارة في سوجو من أجل المتعة الخاصة للقوات؟ حين عرفتها، منذ
عامين، كانت مجنونة بقطان بحرية تجارية يعمل الآن عند زوجها...

- القبطان سو تزو - يقول كيم - لقد أحضرتني سفينة إلى شنغهاي.
- حكاية غريبة. لقد انتزعها صديقك ليفي حرفياً من بين ذراعي ذلك
البحار وتزوجها. وقد تساءلت دائماً كيف بحق الشيطان استطاع ذلك.

بعد نصف ساعة، تقترب تشن جينج من البار وتقترح على كيم، ما
دامت هذه ليلة خاصة بالنسبة له، حيث التقى بأحد مواطنيه ويقضي وقته
على خير حال، لماذا لا يبقى ما شاء من الوقت ويتركها تذهب مع عائلة
وونج في سيارتها...؟

وقبل أن تنتهي من الحديث، كان كيم قد استشف تلك الشرارة
المحيرة في عينيها العسليتين واتخذ قراره بسرعة :-
- أتريدان الذهاب الآن؟

- نعم، أنا متعبة - تقول تشن جينج - سيتركني تشارلي أمام باب المنزل.
 - عيني بأن تذهبي إلى الفراش مباشرة.
 - أعددك - تبتسم بتعطيلية استسلام ناظرة إلى صديق كيم - يعتقد
 السنيور فرانش أن سلوك هذه الصينية المسكينة الوحيدة المولدة لا يليق
 بامرأة متعقلة... إنه أسوأ من زوج غيور!
 تويعهما ضاحكة وبعد قليل تفادر الكباريه في صحبة تشارلي وونج
 وسورلين. يطلب كيم من البارمان الويسكي الثاني ومارتيني آخر، ويشعل
 سيجارة كليمنت وسيجارته وينظر في ساعته: من الضروري انتظار مرور
 ساعتين قبل الشروع في العمل.
 يقدم له استيبان كليمنت، الذي يبدو أنه مطلع جيداً على الحياة
 الاجتماعية للأجانب في شنغهاي، ملخصاً لمغامرته الشخصية: في عام
 ١٩٣٣ ترك منصبه في مصنع نسيج أبيه في ساباديل وذهب إلى إنجلترا
 بعقد مع شركة في مانشستر مهتمة بنوع من المكوك كان هو قد طور، ولم
 يتأخر الإنجليز في إرساله إلى الشرق الأقصى لتجديد آلات النسيج في
 مصانعها؛ ذهب أولاً إلى اليابان ثم إلى هونغ كونج، وفي أغسطس ١٩٣٧،
 حين كان اليابانيون يقصفون شنغهاي، كان هو يتخذ إجراءات إقامته هنا.
 كان في فندق بيس هوتيل^(١) وما زال يتذكر أن الأوركسترا كانت تعزف لحن
 لأكوكاراتشا^(٢) حين سقطت القنابل الأولى... يقول، كانت أوقاتاً صعبة، لكن
 الأوقات القادمة الآن ليست أفضل، يا صديقي: فحين ينفتح الطريق أمام

(١) Peace Hotel.

(٢) la cucaracha : لحن راقص شائع في إسبانيا - م.

القوات الشيوعية للجنرال تشن يي حتى نهر اليانج - تسي وتتقدم على طول النهر، ستكون الصين الوطنية قد خسرت الحرب في الشمال، ورغم الوقت الذي قد تتأخر فيه المعركة النهائية، فإن نهاية الامتيازات قادمة. وقد بدأ الأقطاب الأجانب في شنغهاي يرتجفون...

- انظر حواك - يواصل كليمنت -، انظر إلى هؤلاء الناس الذين يمرحون بجنون حتى الفجر، هؤلاء الأشخاص الذين يترنحون في ضوء القمر منقوعين في الشعبانيا ومشروبات الكوكتيل المتفجرة، لاحظ منصة الرقص المزحمة بأمركيين وأوربيين لا يكفون عن الدوران والمزيج من الدوران وعن الشراب مثل اسفنجات كي لا يفكروا في كل ما سيفقدونه لو لم يصلح الرب وتشانج كاي - شيك الأمور. تخيل، يوجد هنا يانكيون وفرنسيون أبحروا في يخوتهم الرائعة في نهر اليانج - تسي حاملين في ضيافتهم ت - ف، سوونج، أهم مصرفي في آسيا وشقيق مدام تشانج كاي - شيك... لن يفيدهم ذلك في شيء. انظر إليهم جيذاً، يا صديقي فرانك، تأمل هؤلاء الأزواج الأنيقين الذين يرقصون مبتهجين، قصيري النظر ومتكبرين في سحابة أحلام يقظتهم، إنه مشهد فريد ورائع ربما لن يعود يُرى أبداً في شنغهاي. - إنه يسبب الدوار قليلاً - يعلق كيم بابتسامة.

لكن رؤيته تستحق العناء. فتحت الضوء المُعشى للأبصار للأضواء الكاشفة، تحولت منصة الرقص إلى شعلة مختلجة. وأمام الأوركسترا تغني المغنية الصينية الجميلة والهشة أغنية جودباي ليتل دريم، جودباي^(١) بصوت متراخ لطفلة مزكومة. لا مبالياً في البداية، لكن انبهاره يتزايد رويداً، وعيناه

(١) Goodbye Little Dream, Goodbye. وداعاً حلمي الصغير، وداعاً - م.

منقوشتان خلف دخان السيجارة، يجول كيم ببصره في هذا المشهد البراق وغير الواقعي، الحديقة المضاعة تحت الليل المرصع بالنجوم والخائق، والنضارة اللاذعة لأعشاب السياج وهي تشتعل، مرسله سهامًا فضية إلى السماء أزواج العشاق الذين يطوقون خصور بعضهم ويتبادلون القبلات سائرين ببطء في الضوء الخافت والسادة الوسيمون والوحيدون الواقفون فوق العشب في بذلات الاسموكتنج البيضاء وفي يدهم الكأس، منذهلين للحظة وسط الضوء الرصاصي القريب، ساكنين مثل تماثيل من الجص تتأمل هجرانها في موضع منسي. لكن نظرة كيم ليست متواطئة، ويؤرقه لا يكاد يتأثر بالانطباع: فهذا اليهاء المختلط، وهذا الضوء وهذه الموسيقى تخفي القصة المعروفة نوميًا، التاريخ المكرور للهجرانات، والخيانات، والوداعات. لم يكن في كل هذا شيء لم يكن قد رآه هنا معنا قبل الحرب، لا شيء على الإطلاق يستحق الحفاظ عليه من الإعصار الثوري الذي يقترب؛ باستثناء الحب والصداقة وحقائق القلب الأبدية. والحظة قصيرة، تكشف لكيم الآن أيضًا مستقبل محطم، عالم ما بعد الموت، وبين الأعشاب يلعب فئات زجاج كأس مكسور، أو ربما مكعبات ثلج ينوب، مثل نجوم صغيرة مكسورة.

- لكنت أنت - يردف مواطن سايابيل مقاطعًا تأملات كيم - ليس لديك ما

تخشاه ولا ما تفقده.

- هكذا؟ لماذا؟

- لأن زوجة كيم ليفي قريبة للجنرال الأحمر تشن يي، وحين يستولي هذا

على شنقهاي، فالمؤكد أن صديقك سيستخدم نفوذه للحصول على امتيازات معينة. فرانش، أقسم لك أن أجرك مؤكد، على الأقل خلال بضع سنوات.

- يرشف كيم رشفة من الويسكي ويفكر. ثم يقول :-

- هل تعرف عمر ماينينجن، صاحب اليلو سكاي؟

- ليس كثيرًا.

- ماذا تعرف عنه؟

- إنه رجل سمعته مشكوك فيها. لكن هذا لا يعني شيئًا في شنفهاي.

وقد أكد لي البعض أنه كان ضابطًا لامعًا في الفيرماخت^(١) عرف كيف يتقاعد في الوقت المناسب.

يسأله كيم إن كان يعتقد أن ميشيل ليفي يُهرَّب الأسلحة في خدمة الشيوعيين. فيسلم كليمنت باحتمال ذلك:

- لقد حدثك عن علاقته بالجنرال تشن يي.

- وماذا تقول عن تلك الدمية التي يدعونها نو جراند - أوديسي؟

- حذار من تلك الدمية. إنه أحد زعماء عصابات الثالوث. أتعرف ما

يعني هذا؟

- أتخيل. نزع من المافيا.

- إنه زعيم عصابة الكوينج بانج، إحدى أقوى الجمعيات السرية

وأكثرها نفوذًا. رغم أنني أفترض أنه هو الآخر قد انتهى الترف بالنسبة له... سيكتسح الشيوعيون كل هذا الخراء، فيما أرجو.

- هل تعتقد أنه يعمل لحساب عمر؟

- لا أعتقد. لقد أدار نو يويشنج طائفته في خدمة صناعيين وماليين،

معروفين جيدًا، زبدة الامتيازات الأجنبية، مقابل تسامح معين. إنه يسيطر

(١) Wehrmacht : آلة الحرب. اسم الجيش الهنري - م.

على تهريب المخدرات بمباركة الشرطة وبالتأكيد بدولارات صديقك ليفي...
انظر، لا تدخل في هذه الفوضى، هذه نصيحتي لك. أما عن عمر ماينينجن
فهو قناص، لا منتم^(١) يبحث عن مصلحته. سمعت أنه يفكر في تصفية
أعماله هنا والانتقال إلى ماليزيا ليتاجر في الكاوتشوك.

يشرب كليمنت كؤوس المارتيني الواحد تلو الآخر بتعجل محسوب،
وفق رد فعل عصبي يجعله ينظر في ساعته بين الحين والحين. وفي الثانية
والنصف، وبشكل غير متوقع وبعد أن وضع نفسه تحت أمر كيم في كل ما
يحتاجه، يودعه بحرارة متمنياً له حظاً سعيداً.

يتعجل كيم الانتهاء من كأس الويسكي بهدوء وبعدها بقليل يسير وحيداً
في بكين رود ثم في كوكين رود. سبب له الحديث مع استيبان كليمنت كآبة
شديدة؛ يحس من حوله بمجهولية المدينة ومجهولية الغد، لكنه في هذه
الليلة، على الأقل، يعرف أين يذهب وماذا ينتظره. يمشي مسرعاً وبعد وقت
قصير يستعيد ثقته في نفسه، ليس لأنه قد شرب أكثر من المعتاد قليلاً ولا
لأنه قد قرر الانتقال إلى الفعل، بل بدافع رغبة حميمة في تجاوز القنوط
الذي عبر عنه كليمنت: لم يكن يستطيع، لم يكن يريد تصديق تنبؤاته
المشؤومة. تلك الأحلام الآخذة في الفرق لن تجذبه معها في سقوطها.

في كانتون رود، وعلى ضوء مصباح، يتأكد من خزانة البراونينج -
يلاحظ المقبض الأبرد من المعتاد - ويشعل سيجارة. ينعطف في
شانغتونج رود. تحلق إعلانات النيون شبحية وسط الليل. يدخل كيم اليلو
سكاي كلوب.

(١) outsider . دخيل، لا منتم. بالإنجليزية في الأصل - م.

في مناسبة واحدة فقط، استطعت عبور خدعة بولاب الملابس الأسود والوصول إلى المخبأ الذي أحياناً ما يلجأ إليه الكابتن، على فترات متباعدة الآن، للتخلص من زوجته فيما أعتقد وليس لتغذية شياطينه الخاصة. إنه كرار صغير كان غرفة حمام وهو الآن مزيج بالاصص والصناديق الخشبية المزروعة بالجيرانيوم والقرنفل، وبه سرير نقالي، وكروسي، ومنضدة ليلية صغيرة فوقها جهاز من الخشب بكابلات وأسلاك وبطاريات متأكسدة، بدا حيواناً خطراً، لكنه لم يكن سوى البقايا المتهاكلة تماماً لجهاز راديو نقال. وفي قاعدة المرحاض وفي الشطافة، غير المستعملين كليهما، والمسدودين بالطين، كانت تنمو أغصان مشتبكة وارقة من أخضر زاه، ومن الحوض المتشقق يتدلى حتى الأرض نسيج مطرز من نبتة صريمة الجدي المزهرة. كانت تظهر في كل هذه الزينة النباتية المتعجلة اليد السمينة والمرهفة للبتيبو. كانت شمس حامية لكنها منقطعة، حين تفسح لها السحب طريقاً، تدخل من نافذة صغيرة تطل على خرائب شارع ثرينيا، ويمكن منها رؤية أسطح الحي، وأبراج كنيسة العائلة المقدسة على البعد، وأبعد منها، البحر.

دخلت ذلك اليوم ملاذ الكابتن لأن زوجته طلبت مني ذلك، لأعاون العجوز على إخراج السرير النقال الذي أصبح غير مستخدم بألواحه التي غزاها القمل، والتي يجب تطهيرها. وجدت الكابتن جالساً على الكروسي يتحدث في ميكروفون ضخم عتيق في يده كأنه حوض غسيل بدون سلك ولا يتصل بشيء. لم يندهش لرؤيتي لكنه سكت ووضع تلك التحفة على المنضدة. أخذنا، حسب تعليمات الدونيا كونيشا التي توجهها لنا من غرفة

الطعام، على الجانب الآخر من الدولاب الذي أفرغته هي من الملابس، نخرج السرير أنا والكابتن ثم نهز الألواح في الشرفة حتى يقفز القمل كله، الذي تحرقه البتيتيو بعناية بورق جرائد. أنكه المجهود الكابتن وراوطني الأمل في أنه سيمتتع هذا الصباح عن جولاته بحثاً عن التوقيعات، لكن لا.

حين خرجنا إلى الشارع، متأخرًا عن بقية الأيام، كانت السماء قد تليدت وتساقط الرذاذ وسط حرارة خانقة. لم أستطع إقناع العجوز بالعودة إلى المنزل. وبعد محاولتين فاشلتين لطلب التوقيعات بين سكان شارع كونجوست، أشفق الكابتن علي ودعاني إلى تناول كوب من المياه الغازية في حانة كان جهاز الراديو فيها مفتوحًا فوق منصة البار. - صباح الخير، يا سادة - قال عند دخوله ..

هل يمكن أن تكونوا قد استمعتم بالصدفة إلى التعليق السياسي المثير للاهتمام، والجيد التوثيق، والذي جاء في حينه والذي أنبغ للتو على موجة EAJ 15 راديو لاسالود المستقل؟

كان هناك أربعة زبائن، ثلاثة عند المنصة وواحد جالس بجوار براميل النبيذ، أجابوا على صباح الخير وليس على السؤال. كرر الكابتن السؤال، ممتدحًا المعلق الإذاعي.

- نعم، يا بلدي - قال أحد الزبائن - لقد سمعناه جميعنا.

- وما رأيكم، أيها السادة؟ إنها خطبة عصماء، حسب علمي المتواضع.

- إنها خراء.

- لسمع، يا هذا، لقد أعجبتني - قال شخص مهذار - هذا المعلق ثرب

اللسان.

- هيا، لا ترخوا له الحبل - نصيح صاحب الحانة خافضاً صوته.

- هذا المعلق أحمر النزعة، يا كابتن، لكن ما أجمل حديثه.

- يسعدني أنه أعجبكم - قال الكابتن.

- كما قلت لك، يا بلای، إنه خراء - أصر الأول.

أقترح عليك أن تعيد النظر في رأيك - قال الكابتن متمهلاً... لأن الأمر يتعلق بتحليل واضح وجسور للوضع المحلي والدولي - ولن تجد في أي إذاعة أخرى، ولا بالطبع في أي جهاز من أجهزة صحافتنا المكمة، تعليقاً أشمل، وأدق، وأشجع حول الوضع الراهن السياسي والعسكري لأوروبا المحطمة...
- حقاً، يا بلای - حرك المحاور الآخر الدعابة بسحنة ملولة - ماذا يعرف هؤلاء.

- اقترح صاحب الحانة تغيير الموضوع، فقد كان الهوس الإذاعي للكابتن يجعله عصبياً - وظللت أشرب كوب المياه الغازية. كانت الحانة عشاً للظلال، وقرب البراميل، كانت تفوح رائحة زعفران خفيفة.
تقدم رجل ضئيل كان ينتصب بهشاشة أمام كاس النبيذ الأحمر، محدقاً النظر فيه، وأمسك حافة المنصة بيديه الصغيرتين المحمرتي المفاصل وقال :-

- ما يعجبني أنا هو برنامج تاكسي كي. Taxi Key.

- أنا لا أدري لم الشكوى، يا بلای، اللعنة - تدخل الجالس بطريقته السمجة، وهو يغمز بعينه لمصاحب الحانة - ففي الحقيقة لم يتوفر أبداً كل هذا السلام وكل هذه الرفاهية في هذا البلد.
هز الرجل الضئيل رأسه متفكراً وبرطم :-

- الرفاهية. أه، نعم، الرفاهية... قال ذلك كأن الأمر يتعلق بنبيل معتنق رفيع القدر، تذكر لتوه مذاقه وعبقه بأعين مغلقة... نعم حقًا. هذا السيد، نورأس المعصوب، معه حق.

- وأنت ما أدراك، مع كل النبيل الأحمر الذي تحمله في جوفك - قال السمين.

- حسنًا، وأنت... أنا أشرب نبيلًا بالصودا، يا سيدي.

- أنت تسخر مني.

- أيها السادة، من فضلكم - انتزع مني الكابتن الحافظة وتوجه إلى الرجل الضئيل، الذي أفرغ لتوه كأسه دفعة واحدة - حضرتك جديد هنا. هل يمكنني أن أطلب منك توقيعًا صغيرًا على هذه الوثيقة الهامة التي تستهدف إصلاح ظلم؟

لسبب ما شعر ذلك الرجل بالفخر والتميز ووقع، لاويًا رقبتة وناظرًا إلى السمين من فوق كتفه. دفع الكابتن ثمن مياهي الغازية ونبيله الأبيض وعدنا إلى الشارع تاركين الزبائن في الداخل يرغبون ويزبدون من جديد، أو لعلمهم يتجادلون فيما يتجادلون فيه دومًا بنفس الكلمات المستهلكة دومًا.

كان يدفع الكابتن ذلك اليوم شيء غير محدد، إلحاح أعنى، وابتعدنا كثيرًا عن المنزل عابرين خرائب من تربة رمادية ومتكلسة، وأكوام من القمامة التي يتصاعد منها الدخان. تركنا ورائنا ميدان مصارعة الثيران وفجأة، وسط قفر، ومائلة ميلًا خفيفًا فوق بركة سوداء، رأينا عربة سكة حديد هدنة وجوانبها ممزقة ومثقوبة برصاص الرشاشات. كانت قطعنا القضبان اللتان ما زالتا تمسكانهما، واللتان لم تعودا قادرتين على حملها

إلى أي مكان، هما بقايا السكة الحديدية القديمة التي كانت ذات حين تخترق هذا السهل المترب الذي تتناثر فيه الأعشاب والرمم الجاف. كانت عربة درجة ثالثة عتيقة بمقاعد ذات ألواح خشبية وبعض الزجاج السليم في النوافذ. بدأت تمطر بقوة فاقترح الكابتن أن تلوذ بالعربة. على السلم المتهاك كانت تنمو الأشواك والحُفَاء، وفي الداخل، كان صعلوك ذو عينين صافيتين وجلد مسود يجلس بجوار نافذة ويسند جبهته على الزجاج وذقنه في كفه. كان يمكن أن يكون نائمًا أو ميتًا، وبدا أنه هنا منذ الأزل، يراقب من حوله ثورة أرض مذبوحة وخربة.

- ألى أين يتجه هذا القطار، أيها الرجل الطيب؟ - سأل الكابتن بلاي، فلم يكلف الصعلوك نفسه حتى بالنظر إلينا. تأملت في شفتيه الفتيتين المرسومتين بوضوح، والمزمومتين وسط قذارة الوجه. وكالعادة، لم يكن الكابتن ليتخلى عن المحادثة بسهولة؛ ربت بود على ركبته وأردف: أقسم أنه نفس القطار الذي كان في السابق يذهب إلى تولوز عن طريق بورت - بو. إذا كان هو، فنحن ماضون في طريق طيبة، يمكن أن تنام في هدوء...

انتهت زخة المطر ولمعت الشمس من جديد، أخذت أستحث الكابتن على الذهاب من هناك حين أظلمت العربة بغتة، بدا أنها قد دخلت نفقًا، ومالت قليلاً فوق البركة، وهي تطقطق. قلت للكابتن أننا قد وصلنا فتبعني دون أن ينبس، منطويًا على نفسه وبالع تعب. انتابني الخوف.

- هذا الرجل يبدو ميتًا - قلت حين ابتعدنا عن هناك.

- وماذا يهم - قال الكابتن - إن الموتى يتعلمون كيف يحيون على

الفور، أفضل مما نفعل.

- لنعد، يا كابتن. لقد مضينا بعيداً جداً.

ظل برهة صامتاً، متفكراً، ثم قال :-

- المسألة أنه جانح. لنر هل نتبين الأمور جيداً.

في شارع أرختونا توقف، طلب مني الحافظة وفحص قائمة الموقعين المحتملين. مضينا في طريقنا، لكن الكابتن لم يعد إلى الحافظة، وحملها تحت إبطه. وعند ناصية شارع سورس مع لاوريل بدأ يشكو من وهن وألم في ركبتيه.

- لا أسري ماذا دهاني اليوم - زام وهو يستند على كتفي. أحس أن مفاصلي مثل أسلاك شائكة ورأسي يدور. ما كان أثقل ذلك السرير اللعين، لقد هدني... سيكون من الأفضل أن ندخل هذه الحانة.

كنت مشغولاً بشواغلي وقد أذهب الحر عقلي.

- وفضلاً عن ذلك - أريد الكابتن، لدي من جديد شعور بأن هذه المدينة قد شيدت فوق أراض مفرغة وملغومة، وأنا جميعاً سننتطير في الهواء من لحظة إلى أخرى... وهكذا فإنتي بخير والحمدلله^(١)، هذا الصباح، اللعنة.

- أعتقد أننا يجب أن نعود إلى المنزل، يا كابتن - قلت له حين كنا ندخل إلى الحانة. فأنت لا تبو على ما يرام.

- لا بد أنها الشيخوخة المبكرة.. توقف بجوار سكير وحيد جالس على مائدة وواصل حديثه :- أترى حضرتك، يعتقد الكثيرون أنني عجوز قبل الأوان. نعم، أنا محطم، لكن ليس هذا هو الأمر. لقد كنت دائماً سابقاً لأواني. والمسألة هي أن الشيخوخة المبكرة قد اقترنت لدي مؤخراً مع الصبا المتأخر، وانظر، ثمة أيام لا أصلح فيها لشيء. وعلاوة على ذلك، لم يعد لدي من يحك لي ظهري.

(١) بمعنى . لا يُحمد على مكروم سواه - م.

استرحنا برهة في الحانة، أشعل الكابتن نصف سيجارة واحتسى كأسًا من التبيذ الأحمر. ولم أرد أنا شيئًا. وعند خروجنا عبرنا الشارع بحثًا عن ظل أشجار الأكاسيا وجلس الكابتن على حافة الرصيف المقابل، بجانب بالوعة، ليربط الرباط الذي يضم حذاءه الممزق. عندئذ انتبه إلى أنه قد نسي في الحانة الحافظة بالتوقيعات والرسم، فطلب مني الذهاب لإحضارها. تركته جالسًا هناك وذهبت لأحضر الحافظة، لكنها لم تكن على منصة البار، ولا رآها صاحب الحانة ولا الزبون الوحيد في تلك الساعة. وأكد صاحب الحانة أن العجوز المتجنون لم يكن يحمل أي حافظة حين دخل. ظلمت أفكر، وطلبت كوب ماء لو سمحت وتلكأت برهة، مهنئًا نفسي على ضياع الحافظة اللعينة: لم يعد علي أن أطرق المزيد من الأبواب، لم يعد علي أن أمضي صاعدًا وهابطًا السلالم وممثلًا نور الأحمق أمام غريباء وأنا أقرأ بصوت مرتفع رسالة الاحتجاج الهائلة...

خرجت إلى الشارع من جديد ورأيت جالسًا في نفس الموضع، ورأسه مائل، وساقط بين ركبتيه، وأصابع يده اليمنى مشتبكة في الرباط الذي فكه من الحذاء. كان خيط متعرج من الماء القذر برغوة الصابون ينساب بجوار قدميه حتى فم البالوعة، التي كان يبرز منها عفن كالح وأشعث من الوردات البيضاء. قبل أن أصل إلى جواره كنت قد عرفت أن الكابتن قد مات؛ حدثت ذلك بغتة حين لاحظت، كلما اقتربت، يده الخاملة المشتبكة في أحبولة الرباط والخصلة النافرة من شعره الأبيض تحركها نسمة خفيفة، هي راحة مفاجئة أو شبح خرافي للهواء الذي لم يعد لا جلده ولا قلبه يحسان به.

جريت لأبلغ صاحب الحانة، الذي خرج ودخل من جديد وطلب الصليب الأحمر بالتليفون. إلى جانب الحانة كانت مدرسة دينية للأطفال اليتيمات

واقتربت راهبتان، رسمت إحداهما علامة الصليب على جبهة الكابتن أما الأخرى، البالغة الصبا، فقالت ربما لم يكن قد مات بعد، لكنني كنت أعرف أنه قد مات. ناظرًا إليه هناك منكفئًا على نفسه ورأسه مائل بعناية فوق البالوعة، كأنه يلتقط وسمعه مرهف ذلك الانتشار البهين والصامت للغاز، نفس الغاز الشبحي والقاتل الذي غزا جمجمته ذات يوم عند ضفاف الإبرو، بدا مستغرقًا أكثر من أي وقت مضى في تأملاته ويتشمم في نفس الوقت العطر العفن للأزهار والمجاري، رائحة ورود ذابلة وموت لا شك أنها كانت ستدفعه إلى استنكار مظالم وإساءات فهم جديدة. ففي نهاية المطاف وأنا اليوم أعرف ذلك، لم يكن بين ذلك الغاز الشبحي الذي يخرج من البالوعات ليغرقنا في السبات وبين اقتناعه الشجاع بالوجود الواقعي لذلك الغاز، سوى سوء فهم بسيط. ذات مناسبة قال لي إن كل الشطحات التي يلومونه عليها وأشكال الجنون العديدة التي ارتكبها في هذه الحياة لم تكن سوى تدريبات وتوبيعات لجنون واحد ووحيد... لم ينجح أبدًا في ارتكابه، لأنه لم يعرف بالضبط أين يكمن.

كالعادة، لم أتر ماذا أفعل فجلست إلى جواره وأتيتُ ربطَ رباطِ حذائه. بعدها وصلت عربة الإسعاف، فمددوه على نقالة وحملوه إلى المستشفى بينما جريت أنا لأبلغ النونيا كونشا.

أما الحافظة الضائعة، فلم تظهر أبدًا. ولو كان الكابتن قد عاش ليعرف ذلك، فالمؤكد أنه كان سيظن أنهم سرقوها منه وكان سيحدث فضيحة بجلاجل. وأنا أعتقد أنه فقدوها في الشارع، وأنه إذا كان أحد قد التقطها وفتحها، فلن يبذل هذا الأحد بالكاد سوى ابتسامة مشفقة على عريضة الاحتجاج، وعلى التوقيعات القليلة المتضامنة وعلى رسمي الساذج، قبل أن يلقي هذا كله من جديد.

لكن شيئاً لم يضع. فعلى نحو ما، بعد كل هذا الدوران في شوارع الحي
معاً وبعد احتمال خطبه العملة، ورغم خجلي وشعوري بالخزي وموتي من الرغبة
الدائمة في تركه ملطوفاً والفرار جرياً إلى البرج، إلى حضن الأحلام، استطاع
العجوز المخبول أن يعينني بنفحة من ذلك الفيروس الذي كان يفترس نهته،
وأحياناً ما كان يخيل إلي أنا أيضاً أنني أشم عفن الغاز في البالوعات وأبتلع
الخراء الأسود الذي تيقبه المبخنة والذي يصلب رقتي سوسانا، ولهذا السبب
بالتحديد، خلال الأسبوعين الآخرين اللذين قضيتهما معه نجوب الشوارع،
شاركت على قدر طاقتي في المعركة الخاسرة للعجوز الممتلئ حماساً.
هكذا، مع مرور الزمن وبون أن أنتبه تقريباً، أخذ المشهد الحيوي
لطفولتي يتحول شيئاً فشيئاً إلى مشهد أخلاقي، وعلى هذا النحو ظل
منقوشاً في ذاكرتي إلى الأبد.

٥

حضرت الجنازة بعض الأشباح الشاحبة التي كنت أعرفها جيداً، ظلال
حانات بائسة، هم أولئك المحاورون الصامتون للكابتن الذين تحملوا بصبر
رواقي خطبه المضجرة وهم يجرعون نبيذاً لاذعاً مستندين على المنصات
وعلى البراميل العتيقة لكثير من حانات جراثيا، ولاسالود، والجيناريدو. كذلك
شوهد فوركات في الكنيسة، بصحبة السنيورة أنيتا، وحضر هناك أيضاً
الأخوان تشاكون وبعض جيران الدونيا كوتشا^(١)، التي كانت أُمي تعاونها.
وتولي أمر الإجراءات في المستشفى وعند الحانوتي وكذلك رعاية الدونيا
كونشا في كل لحظة، خبير علاج أقدام من إكسترامابورا عرفته أُمي من
(١) إقليم في غرب إسبانيا - م.

المستشفى، وهو شخص يُدعى براوليو، كانت قد دعتا للعشاء في المنزل ذات مرة؛ وقد شكرت له أمي ذلك كثيرًا ومنذ ذلك اليوم أظهرت له إعزازًا خاصًا.

وذا ليلة عند وصولي إلى المنزل لم تكن أمي موجودة ووجدت بجانب العشاء قصاصة تقول لي فيها إنها في سينما روكسي مع براوليو ومع شارل بواييه^(١)، وضحكت من المصادفة، لكنني لست واثقًا من أنني قد فرحت. في تلك الفترة كان يزعجني قليلًا ميل أمي إلى تجريد الماضي والمستقبل من المعنى، مستبدلة إياه بالانشغال بالحاضر، وشعور بيئي أكثر برودة باستمرار، والحرارة العابرة لبعض الصداقات في الحي أو مع براوليو هذا. أدت الراديو، وجلست أتعشى وتذكرت الكابتن بلاي مائلًا على حافة الرصيف في شارع لاوريل، والريح تهز عوفه الأشيب فوق الرأس المتدلي، وقلت لنفسني إنه ربما في اللحظة الأخيرة نال حظ أن يفكر، ولو خلال ثانية عابرة، لا في منزله الذي كان سجنًا ولا في كونه شاه الصبورة والمنهكة، ولا كذلك في الابنين الميتين اللذين لم يكونا لينتهيا من السقوط ولا من الموت في شبحهما المتواتر الرجوع بجوار ضباب الإبرو، بل في الشيء الوحيد الذي كان يملكه حقًا ويدركه حقًا على أنه يخصه بون جدال، في الحافظة المهترئة التي كان يرجو استعادتها والتي كان يعتقد أنها شهادة بليغة ضد العار وضد الاستسلام والتي لم تكن سوى متنفس لحنقه، فقدان للذاكرة، الوعي المحطم بخزي آخر يفضل الكثيرون نسيانه.

(١) Charles Boyer.

الفصل الثامن

١

يتأهب كيم لمواجهة قدره.

فور دخوله اليلو سكاي كلوب يتسلل دون أن يلفت الانتباه إلى طرف
البار ويظل واقفاً هناك برهة، في الظلام، ظهره مستند إلى التنين الأصفر
الملتف حول العمود وعلى مقربة شديدة من الباب الأزرق المؤدي إلى
المسكن الخاص لعمر. المكان يعج بالحركة وما من مكان على البار، ولا هو
يبحث عن مكان، إذ يفضل ألا يراه البارمان. يلاحظ ساقياً يحمل صينية
مشروبات ويتجه نحو الباب الأزرق، يراه يدفع الباب بعرفقه ثم يختفي
صاعداً الدرج، فيأخذ مكاناً إلى جوار الباب وينتظر. على الجانب الآخر من
منصة الرقص المزخمة الفارقة في الأضواء الحمراء تنتهي الأوركسترا من
عزف لحن قبلني كثيراً^(١) وتبدأ على الفور في عزف كوتتيننتال^(٢)، وفجأة، من
جديد، من بين الانعطافات المرححة للحن الذي انطوى، ذات يوم صار بعيداً،
على الكثير من الأحلام له ولأنيتا، على الكثير من الآمال بالامتلاء في الحب

(١) Bésame mucho.

(٢) Continental.

وفي المغامرة، تتبعث ذكرى كباريه آخر، ذكرى ملهى - راقص يقع في رملة قطالونيا ويسمى بالضبط شنغهاي، في برشلونة الشتائية لعام ١٩٢٨ تحت القنابل؛ هناك، ذات ليلة نال فيها كيم تصريح خروج من المعسكر، اشترى من غجرية ساحرة ونصابة، كانت تمضي من مائدة إلى أخرى تقرأ الطالع، شالاً حريريًا مطرزًا زائفًا لأنيتا واستبدل سترته العسكرية الجلدية الجديدة تمامًا بعقد ذي حبات زجاجية... ظن أنه ثمين القيمة.

يظهر الساقى من جديد بالصينية فارغة فيدلف كيم من الباب الصغير ويصعد نون صوت الدرج الشديد الميل المفروش بالسجاد، تحت ضوء بنفسي خافت. يدهشه ألا يصادف أحدًا في طريقه، ألا تكون هناك حراسة. يبلغ بسطة ذات بايين، أحدهما مغلق؛ والآخر يؤدي إلى صالة صغيرة متقشفة ووراعها إلى سلسلة من الأركان الصغيرة المزينة بالأزرق الباهت والمكدسة بلوحات الحفر، والحفر على الخشب، والرقاق واللوحات المشغولة بالحرير وعليها أشكال بالحبر الصيني والألوان الرقيقة، وبالكتب المكومة نون نظام، وتمائيل العاج واليشب، والستائر المنزقة والأرائك... يسمع غير بعيد خشخشة متواصلة، كأنها خشخشة المكوكات التي تصنع التطريز والتي أبهجت ألعاب طفولته المنفردة في حديقة جدته في ساباديل، لكنها أكثر رقة وخفة. وعند نهاية طريقه، وقد أصبحت يده داخل طيات الجاكete وأصابعه تلمس مقبض البراونينج، يصل إلى صالون تغمره الظلال بملحق وردي تحميه ستارة من الغاب مرسوم عليها رأس نمر يكشف عن أنيابه. يلتقط كيم الرائحة الهائلة للأفيون ويتقدم الآن مخترقًا نفثات من الدخان الأزرق المعلق في الهواء مثل غازات معطرة، تتحرك شرائط الغاب في الستارة برقة بفعل مروحة

وتخشخش وتبدو رأس النمر وقد اكتسبت حياة، يتقدم نحوها بخطوات مطاطية وحازمة حتى تظهر، بفتة، يد متقلصة وسط رأس النمر وتقسّمها إلى نصفين ويبدو خلفها عمر مرتدياً كيمونو، حافياً وشعره منكوش وهو ينظر إلى كيم بمزيج من الغضب المكبوت والمفاجأة غير الكاملة.

وخلفه، ينهض شخص بحذر وسط الغبش المائل للاحمرار لعش من الوسائد الناعمة، والملاحظات المنكوشة وحلقات الدخان البطيئة، شخص يعرف كيم، قبل أن يراه، من يكون: تشن جينج فانج.

٢

لست أنري إن كنت أقص جيداً. هذه هي الأحداث وهذه هي القدرية التي حركتها، المشاعر والجو اللذان دفعا المفامرة، أما وجهة النظر والتفاصيل الصغيرة، فمن يدري. كانت لفوركات موهبة جعلنا نرى ما يرويه، لكن حكايته لم تكن موجهة إلى العقل، بل إلى القلب، ويداً من الشهادة الأصلية والمتعجلة بالتاكيد التي التقطها من شفتي كيم نفسه والتي لا بد أنه أعاد خلقها لنفسه من يدري كم مرة، أولاً في ملأه الموحش والمريرة تولوز وبعدها هنا، كي يستطيع أن يهدي إلى سوسانا يوماً بعد يوم طبيعته الحزينة منها بكل هذه الصرامة الجغرافية وكل هذه الدقة المحيية في الأسماء، والأجواء والعواطف، هذه المكيدة التي جرت بالصدفة والتي حملت كيم من ملأه في جنوب فرنسا إلى مخدع دافنى ملتهب بالأفيون وبالخيانة قد قطعت رحلة بالغة الطول ومليئة بالمصادفات بحيث يكون من المستحيل ألا يعدى الخيال الذاكرة، مازجاً التقلبات المعاشة بالتقلبات الحلمية.

لذا فإن الكلمة، اليوم مثل الأمس، لفوركات.

حدثني عن حقه لرؤيتهما معاً وعن عزمه على الإجهاد على العاشقين في موضعهما، لكنني أعرف جيداً أنه يبالغ، أنه استسلم لدافع غير تأملي: فكيم ليس قاتلاً. إنه يريد أن يوضح تماماً سبب أفعاله، لماذا أتى وياسم من، ثم يتصرف وفقاً لذلك، وفضلاً عن ذلك، فإن السلوك الهادئ للألماني ونظراته، المتعالية والمستسلمة في نفس الوقت، كأنما كان يعرف أنه سيأتي هذه الليلة وكان بانتظاره، دفناه إلى أن يكون أكثر من حذر. تشن جينج خلف عمر، ما زالت تنهض؛ تلف حول جسدها كيمنونو مرسوماً عليه أزهار لوتس وقمها الذي صار الآن شاحباً ينفث مثل جرح في الظلام، كأنه سيعاود البروز من بين صفحات الكتاب.

- حسن جداً - يقول عمر بمرارة هادئة. الآن يمكنك إبلاغ ليفي.

- ليس بعد، يا كروجر. أولاً...

- أنا لا أدعي كروجر.

- أولاً يجب أن أنهي عملاً بدأت في فرنسا المحتلة في أبريل عام ثلاثة

وأربعين. في ليون بالتحديد.

يفك أزوار الجاكّة، ويأيساء ليست سوى انعكاس لأخرى، يرفع يده حتى إبطه، لكن ليس للإمساك بالمسدس. على أية حال، يعتقد عمر أنه فهم: -

- عمل يتلخص في القتل.

- لم يكن أمامنا غيره خلال السنوات العشر الأخيرة - يقول كيم - مثل

حضرتك، يا كولونيل.

- عن أي كولونيل تحدثني...؟ لماذا تدعوني هكذا؟

تقف تشن جينج فجأة بين الاثنين، ملقية نفسها على عمر كأنها تود حمايته بجسدها. تنتظر إلى كيم بعينين فزعتين وتقول: -

- إلى ماذا تلمح؟ من هو كروجر؟

- ليقول لك هو - يرد كيم - هيا، يا كولونيل. تشجع.

- لا أدري عم تحدثني - يقول عمر.

- لا يحول كيم نظره عن تشن جينج.

- أسأليه من هو، يا مدام.

تنتظر الصينية الشابة إلى عمر ثم تعود لتنتظر إلى كيم: -

- أنا أسألك أنت، مسيو فرانض. من هو كروجر؟

يخمن كيم أن ثمة شيئاً لا يتلام هنا؛ أنها ربما كانت ساعة الخيانة، لكن، خيانة من؟ يجيب بصوت رتيب، ليس فيه أدنى انفعال: -

- إنه الرجل الذي عذب زوجك. هيلموت كروجر، كولونيل الجستابو. ارتكب فظائع في قبرو بميدان بلكور، في ليون، حيث كان مركز قيادته. هناك لم يستطع القضاء على ميشيل ويبدو أنه يحاول ذلك الآن...

- أنت مجنون - يقاطعه عمر - من أين جئت بمثل هذه الفرية؟

لكن كيم لا ينظر إليه، بل إلى تشن جينج: ينتظر تكتيبيها أو إهانتها، بينما ينقبض فمه في إيمامة تفكير. إنه متوتر، لكنه يريد أن يظل رأسه بارداً. يتبين عمر هذا المزيج المؤقت من الصلابة والشك في هيئة كيم، ويتفحص عينيه قبل أن يحدثه بإسبانيته ذات اللهجة الأرجنتينية الناعمة: -

- ليس لي ماضٍ شديد النظافة، يا سنيور، إذا كان هذا ما تود معرفته؛ وقليلون جداً من لهم مثل هذا الماضي إذ أننا خارجون من حرب. لكنني أؤكد

لك أنني لست الشخص الذي تدعيه. اسمي هو هانز ماينينجن، لم أخفه أبدًا وبهذا يشهد جواز سفري الأرجنتيني. لكنني معروف في شنغهاي باسم عمر. وفي عام ثلاثة وأربعين كنت جنديًا في الفيرماخت وكنت في وارسو، ولا أريد أن أحكي لك ما كانت القيادة الألمانية تجبرنا على فعله هناك... وقد نقلت إلى الدار البيضاء مع الحرس الشخصي لأحد الكولونيلات، لكنني كنت قد رأيت ما يكفيني وفرت. أنا هارب، يا صديقي، ولم أكن في فرنسا أبدًا. عشت عامين في بونيوس أيريس ثم في تشيلي، قبل أن أجيء إلى هنا. أنا لست الرجل الذي تبحث عنه. إنك تخطئ بيني وبين آخر، وترتكب خطأ فادحًا...

- ليس ثمة أي خطأ، يا حبيبي - تقول تشن جينج، وتلتصق به. ثم تبحث عيناها الضارعتان عن عيني كيم.. لقد افترضنا أن زوجي قد بعثك لتراقب خطواتي، لكنني لم أعلق أهمية على ذلك... الآن أفهم أن قصده لم يكن ذلك فقط، أن ما يتسلط عليه هو شيء أكثر من نوبة غيرة، شيء أشد فظاعة بكثير... قال لك ميشيل أن عمر هو ذلك السفاح البغيض، وهكذا برر موته. لكن عمر ليس هو الكولونيل كروجر، مسيو، إنه عشيقتي فقط، وكان زوجي يعرف هذا جيدًا حين طلب منك أن تقتله، قائلاً لك إنه بمثابة تهديد لي... قتل عمر، لا كروجر، هو ما أراده، إلى هذه الدرجة من الوحشية حملته الغيرة. هل تفهم الآن؟

من أسفل يصل الصدى المكتوم للأوركسترا والصوت التحيل والأخف للمغنية الصينية. ودون أن يستطيع تحويل عينيه عن الوجه الشاحب لتشن جينج، مُدركًا في الصلاة الهادئة لصوتها الحب والتكريس للرجل المائل إلى جوارها والذي تلقى بنفسها عليه رغبة في حمايته، يلتزم كيم الصمت برهة

ثم يدور ببطء، يبدو أنه يفتش بعينه عن شيء، ربما منفضة سجائر، لأنه قد أخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة. هيئته تثير الارتباك لأنه يبدو بارداً ومقتصداً، كإن لا شيء مما قاله له علاقة به، بينما في الواقع يجتاحه العنف سرّاً. يحاول أن يستحضر من جديد في مرآة عقله وميض اليأس في النظرة المراوغة لليفي خلال حديثهما في تلك الغرفة البيضاء والتي لا تشوبها شائبة في عبادة فوتران، يحاول أن يلبس رفيقه قناع الخيانة، لكنه لا يرى سوى مقعد في كرسي بعجل يعذبه الألم وتطارده الوحدة والخوف من الموت.

- ولنفس السبب - تواصل تشن جينج - طلب منك الاستيلاء خفية على كتاب كنت قد أهديته إلى القبطان سو تزو عند نهاية علاقتي معه، قبل زواجي... أنا أعرف أنك حصلت على الكتاب لأن القبطان قد أخبرني. في هذا الكتاب إهداء خاص جداً إلى سو تزو، وهو أكثر من إهداء غرامي، يا مسيو، إنه جياش وشديد الجسارة - تعترف الصينية الشاب بنوع من الكبرياء - أراد زوجي دائماً امتلاك هذا الكتاب، كانت هذه فكرة تعذبه... كل هذا شديد الحزن وساخراً نوعاً ما، لكن الأمر على هذا النحو. ليس ميشيل مريضاً في جسده فقط، بل إنه مريض في روحه. أنا أعرف أنه كان وطنياً شجاعاً ومثالياً، رجلاً شريفاً في بلاده، وكان بالنسبة لي، في بداية زواجنا، زوجاً كريماً ورقيقاً، لكن تدهوره البدني، والانطراح في الفراش والغيرة، وقبل كل شيء الذكرى الوسواسية بالنسبة له لعار عانيت منه في مراهقتي، أخذت جميعها تسمم عقله شيئاً فشيئاً... أفهم، يا مسيو؟
يُمسكها عمر برقة من كنفها ويجبرها أن تجلس وأن تهدأ. ثم يستدير الألمانى نحو كيم ويقول: -

.. كذلك لا يجب أن تخطئ فهم نواياي. لقد اشتريت مزرعة مطاط في ماليزيا وأريد أن أخذ تشن جينج معي. لا شيء يبقينا هنا، فسوف يتغير كل شيء خلال وقت قصير ولا نريد لا هي ولا أنا أن نرى هذا التغيير. شنغهاي الغد ليست لنا.

اكن نظرة كيم الفاحصة تظل مثبتة في تشن جينج، وتواجه هي تلك النظرة دون أن يطرف لها جفن. ثم يدير لها ظهره بعنف، أو بالأحرى، يستدير نحو نفسه متسائلاً عن ظل غريب من الماضي، عن شبح ولاء اسمه كيم فرانش أحضره من بعيد جداً إلى هنا ويتصل الآن من حسن نيته اللعين. هكذا إذن، فإن ذلك الرجل الذي كان هو يعجب به ويحترمه، كان يستخدمه لأغراض إجرامية وفائدة الشخصية ليضع قناعاً على مشكلة عاطفية ومنزلية، هي في جوهرها مسألة لعينة البساطة: شفاؤه من خيانة زوجية. لا يدري هل ينطلق في الضحك أم ينخرط في البكاء. أما أشد ما يؤلمه فهو أن ليفي، سواء فقد صوابه أم لا، قد فعل ذلك تحت غطاء ذلك المثل الأعلى الذي وجد بينهما متضامين في النضال من أجل الحرية والعدالة، ذلك الحلم الذي رافق كيم طيلة حياته وملاً بالمعنى كل فعل من أفعاله، والذي حمله حتى شنغهاي مهدداً مستقبله بطريقة مرعبة ومخاطراً بحياته، ليطرأ في النهاية ملقى على عتبة فخ في مواجهة عاشقين غير تقليديين على الإطلاق، مسممين وأملين، وثلاثتهم يلاحقهم المخطط المسعور ليفي....

فلنتوقف، مرة أخرى، أيها الشباب، أمام كيم ولنتأمل في أسلوبه في مواجهة الظروف المعاكسة، ولنلاحظ إيماءاته البسيطة والقاسية أمام

الهزيمة، طريقته المحبطة في إدارة ظهره لسرايات الحياة ولعقاب المثل الأعلى. فعن اقتناع بأن الكلمات لم تعد تجدي، وخصوصاً كلماته، يرفع بسبابته حافة القبعة قليلاً فوق جبهته، كأنه يتخلص من محاكاة زائفة لا شخصية، ثم يميل مستغرقاً على منفضة السجائر فوق المنضدة الصغيرة المدهونة، يسحق السيجارة بعناية فائقة، وينظر إلى العاشقين بابتسامة يشوبها شيء من عدم التصديق، ليست موجهة إليهما، بل إلى نفسه بالتأكيد، ومستديرًا نصف نورة يمضي من حيث أتى.

وما زالت الليلة تخفي له مفاجأة أخرى. فبعد أربعين دقيقة، حين يدخل الصالون المضاء والمهجور لمنزل تشن جينج، سيدق جرس التليفون. ستكون المكالمات من عيادة فوتران على مشارف باريس، حيث الساعة هناك الآن السابعة مساءً، والرسالة بالغة الإيجاز: «نأسف لإبلاغكم أن مسيو ليفي قد توفي في غرفة العمليات خلال إجراء جراحة دقيقة....».

لكنه الآن، بينما يوغل في الليل الخائق عبر كيوكياتج رود في طريق عودته إلى المنزل، لا يعرف كيم تلك بعد وتفكيره بعيد جدًا عن باريس وعن احتضار صديقه المكيا فيللي. يصل نون تعجل إلى ممشى البوند ويتوقف لينظر إلى الانسياب البطيء والساكن للهوانج - بو وهو متكئ بمرفقه على السياج فوق المرفأ المعتم. لا يرى ما ينظر إليه، إن كان ينظر إلى شيء. لا يرى تحت أنفه في هذا الموضع بالضبط، الدوامة التي تنفتح مثل عين مسهدة في وسط المياه القذرة النائمة، دوامة صغيرة يحدثها تيار عميق وعنيف للنهر، تبتلع بصورة تسبب النوار كل ما يطفو منجرًا حولها. على نحو مشوش، يحس كيم بأنه لم يعد هناك وقت لأي شيء تقريبًا، ربما

باستثناء العودة إلى المنزل... لكن، أي منزل؟ ما هو منزلي، أين منزلي؟ من المرفأ يصل إليه رذاذ متواصل ومتعب وعطر مائع لمخلفات زيتية ولأزهار متعفنة، لمشاغل النهار المنصرمة. تتزلق ثعابين لامعة من الضوء فوق سطح النهر وتنعكس متماوجة على الجوانب المشحمة للزوارق، بينما في عمق المياه، تتوالى أمام كيم، الواحد وراء الآخر، يحملها التيار غير المحسوس والطيني، وجوه الرفاق الذين ماتوا أو فقدوا في الدوامة الدامي لسنوات عشر، ويعاود قراءة أسمائهم في اللوحة المغمورة للذاكرة ويحس في بعمه من جديد بذلك الدوار من الوعود التي همستها الحياة لكل واحد منهم ذات يوم ليس ببعيد، والتي لن تتحقق أبداً. يتصاعد من النهر صمت غرقى ثقيل ويحاول هو متضامناً للمرة الأخيرة أن ينظر في المياه العكرة، أن يمتزج معهم وأن يفرق ويختفي هو أيضاً، لكنه لا يحس بشيء؛ ربما لم يعد هناك وقت حتى للتأمل. طوال كل منغاه المحموم تأمل كيم نفسه في مرآة الماضي بطريقة متواطئة، حتى قرّر ذات يوم أن يحطم تلك المرآة وينظر في مرآة المستقبل معك، ومع أمك ومع زوج من الأغنيات لا تفارق الذاكرة، لكنه الآن يعتقد أن الوقت قد فات....

حينئذ يبدأ المطر في التساقط بقوة فوق المرفأ وتنضح أشجار البوند الوارفة عطراً كثيفاً يمتزج بعطن الهوانج - بو. وقبل أن يواصل كيم طريقه، يرفع يده إلى قلبه وإلى المسدس في جراب الإبط، من يدري إن كان ينتوي أن يطوح بالاثنتين إلى مياه النهر الداكنة، رغم أنني أقسم أنه يود فقط أن يتخلص من المسدس، فاهدئي إذن، يا طفلي، فالحكاية لا تنتهي هنا، مازح فوركات غامراً سوسانا بعينه الحولاء وممسكاً يدها بحب....

الفصل الثامن

١

من الشارع أو من الحديقة، أو ربما من مكان أقرب، من يدري ربما من قلب الربيع ذاته الذي صارت سوسانا تلمحه في أحلامها، أو ربما من المغامرة التي كنا لا نزال مشتبكين في أحبولتها في المدينة النائية والخيالية، المؤكد أن رائحة مباغثة لأرض مبتلة قد اخترقت القاعة فسكت فوركات. كان أصيل يوم أربعاء، آخر أيام أغسطس، وكانت غريبة تلك الرائحة لأن السماء لم تكن قد أمطرت ولا بدأت السنيورة أنيتا في ري الحديقة؛ فقد كانت مشغولة في المطبخ حين دق جرس الباب.

لم نكن قد رأينا أحداً يعبر بوابة الحديقة لأن شيش النوافذ كان مسدلاً. من باب المدخل بلغنا صوت رجل يتحدث مع السنيورة أنيتا، وعند سماعه، شحب فوركات بشكل ملحوظ، وأفلت يد سوسانا ونهض من على حافة الفراش ليجلس على المنضدة الصغيرة، حيث بقي شديد السكون ناظراً إلى رسمي الذي أصبح مكتملاً تقريباً. كنت جالسا على الجانب الآخر من الفراش ونهضت أنا أيضاً، رغم أنني لا أبري ما دفعني إلى ذلك.

- هنا رجل يبدو أنه يعرفك - أعلنت السنيورة أنيتا من غرفة الطعام، وهي تتقدم الزائر. لم يرفع فوركات بصره عن الرسم وأضافته هي بصوت يشويه بعض الحذر :- يقول إن اسمه لويس دينيسو وأنه قادم من فرنسا ...
لم يكن قد دخل القاعة بعد حين خفض فوركات رأسه ووضع يديه ببطء شديد فوق المنضدة الصغيرة حاجبًا بهما رسمي، كأنه يود أن يتشبه به في وجه لفحة ربح متوقعة أو ربما أن يخفيه عن نظر الدخيل، أن يحميه من الكراهية واليأس اللذين أحضرهما إلى هنا واللذين أدركهما هو فور سماع صوته.

- أهلاً، يا فوركات - باليد اليسرى في جيب الجاكتة، ومتحركًا بسلاسة مدروسة، اقترب قائمقام كيم في تولوز وربت على ظهره.
بعدها مباشرة حيا سوسانا وسأل عن صحتها بود، قرص ذقنها وقال لها إنها جميلة جدًا وأنه يعرف ذلك بالفعل من والدها. حركت سوسانا الهواء بالمروحة الحرارية ونظرت بوقاحة وفضول إلى القادم الجديد، الذي لم يكذب يتوقف أمام حضوري. صديق لابنتي، قالت السنيورة أنيتا، التي كانت قد بدأت ترفع الشيش بتعجل ويشيء من العصيبة. وفي الحديقة تباطأت شمس أغسطس الأخيرة.

أول ما لفت نظري في دنيس كان أنه لا يبتسم بفمه، بل بعينه؛ كان في عينيه وميض عكر، مرضي، وكانت على نحو ما تصنعان علاقة مأكرة وشديدة الحسية مع الفم المتألم الضخم، المرسوم جيدًا. أعتقد أنني لم ألتقط تمامًا في ذلك اليوم تفاصيل شخصه تلك، التي هي أشد التفاصيل دفنًا في هيئة باردة ومتباعدة لا يمكن أن تكون قد غابت عن اهتمام

سوسانا، بل فيما بعد، حينما صارت الدراما الحميمة التي أتت به إلى
البرج مسألة شائعة؛ كانت تلك عيون وفم رجل يمتلكه هاجس، تملكه حمى
تنهشه. منذ حدثنا فوركات عنه سوسانا وأنا، جاعلاً إيانا نرى على نحو
بالغ الحيوية عرجه الأنيق وحركاته المزهفة عند وداعه لكيم في تولوز، بعد
تشحيم مسدسه وتعنى حظ سعيد له، ظلت الشخصية الأنيقة ولقبها في
وعينا يحدثان فينا انبهاراً غريباً.

كان يرتدي بذلة بلون أزرق داكن ذات جاكطة بمربعات ورباط عنق
داكن يحاكي جلد الثعبان، وكان أصغر سنّاً مما كنت قد تخيلته، أو يبدو
هكذا، مليحاً، بهالات تحت عينيه، رشيقيّاً، وأنيقيّاً أناقة من يريد أن ينال
الإعجاب، متكلفة ومرحة.

حافظ فوركات على صمته الغريب وتوقف دنيس أمام الكيمونو الصيني
ذي الأكمام الواسعة والنقوش على الظهر.

- مرحى لفنان برشلونيتا التافه - قال - كم أصبحت مرفهاً. قيل لي
إنك هنا، تتطفل كالمعتاد، لكنني لم أحسبك قد وطئت مركزك هكذا وبكل
هذه الرفاهية.

- وأنت...؟ - قاطعه فوركات بون أن ينظر إليه، وصوته محتبس في
البلغم. تتحنن، وبعد فترة توقف، وكأنه قرر فجأة الحديث عن شيء آخر،
أردف - متى وصلت؟

- منذ أسبوعين - بكلتا يديه في جيوب البنطلون، أسند دنيس ظهره
على الكافذة الزجاجية وفتش عن نظرة السنيورة أنيتا، التي كانت قد جلست
على حافة الفراش، لكن ما أردفه بدا موجهاً إلى فوركات - هل يدهشك

ذلك...؟ حسنًا، لندخل في المهم. ماذا تعرف عن العرس كيم؟ هل بلغتك أخبار عنه، أنت أو العائلة؟

نظرت السنيورة أنيتا وابنتها إلى فوركات في انتظار إجابة أو على الأقل علامة استغراب. لكن فوركات لم يرد، عندئذ غرست سوسانا عينيها اللامعتين في دنيس، وطوحت المروحة على الفراش، واحتضنت القط القماشى إلى صدرها وقالت بأشد الأصوات غضبًا: -

- لماذا تتحدث عن أبي على هذا النحو؟ ألا تعرف أنه بعيد جدًا...؟

- طبعًا. بعيد جدًا. لكن أين.

قبل أن تجيب سوسانا، نظرت إليه بشك، نظرة مليئة:

- إنه في شنغهاي.

- حقًا؟ - تظاهر دنيس بالدهشة وفتح عينيهِ عن آخرهما - اللعنة، إنه

بعيد حقًا! نعم بعيد! ولماذا لا يكون في بكين، أو في بغداد، أو في داهية؟ من الذي حكى لك هذه الحكاية، يا أميرة؟ - عاد ليتفحص متهمكًا صمت فوركات ثم نظر إلى أم سوسانا - وأنت ماذا تقولين، يا سنيورة؟ أتعقدين أنت أيضًا أن ابن القحبة هذا قد ذهب ليختبئ في مكان بعيد هكذا؟ الحقيقة، أقسم أن كارمن... - عند هذه النقطة انشرخ صوته وبدأ أن هذا قد ضايقه، فقد ثقته وتحسس رأسه وتنحنج بقوة غير ضرورية - حسنًا، إنها لا تكاد تعرف القراءة والكتابة وأعتقد أنها لا تستطيع تحديد هذا المكان على الخريطة، لكنها تعرف أنه بعيد جدًا، على الجانب الآخر من العالم، وأظنها لا تريد العيش بعيدًا جدًا هكذا... لا، لا يد أن هذه دعابة. أنت ماذا تظن، يا فوركات، أيها البعوضة الميتة؟ أم أنك تفضل الاستعباط؟

إن هذا حقًا لشخص غريب - أريد مستعيدًا ثقته بنفسه وموجهًا كلامه الآن إلى السنيورة أنيتا - هذا الشخص الذي تربته، يعرف اليونانية واللاتينية... كم يعرف هذا الأخ!

نظرت السنيورة أنيتا إلى دنيس بفزع.

- عم تتحدث؟ - قالت بصوت ليس صوتها - لماذا أتيت حضرتك إلى منزلي؟

- اسألي فوركات. إنه يعرف لماذا أتيت.

لم يرد فوركات فشرح دنيس ببرود ويون أننى مرارة، بصوت هامد قد امتزج بالقدرية: جاء ليعرف أخبار كيم، ليعرف إن كانوا في هذا المنزل المبارك يعرفون أو ينتظرون أخباره، إن كانت زوجته تعتقد، ليس أنه يمكن أن يعود إلى جوارها ذات يوم، فقد كان هذا قليل الاحتمال دائمًا، وأصبح الآن مستحيلًا بالتأكيد، بل إنه سيتذكر ابنته على الأقل ويأتي ليراها، أو ربما يكتب ليسأل عن أخبارها؛ إن كان فوركات أو غيره يعرف مقره في مكان ما من قطالونيا أو ربما في قرية ضائعة في جنوب فرنسا، كما يفترض هو، في أي مخبأ لعين يتقاسمه مع كارمن وابنها منذ ما يقرب من عامين... كان يتحدث بصوت متمهل وناظرًا إلى فوركات، لكن كلماته واحتقاره الدفين كانا موجهين إلى السنيورة أنيتا وإلى ابنتها: إنه لا يدري كيف ولا أين بدأت الخدمة، لكنه قد جن من تصورها ألف مرة خلال ألف ليلة بلا نهاية. أن ذلك لا بد قد حدث وقت الرحلة الأخيرة لكيم حاملًا نقودًا لها ولوالديه، «نقود لم يتلقاها هؤلاء أبدًا، أفترض أنك لم تكن تعرف ذلك أيضًا»، أضاف متفحمة فوركات، لكنه يعتقد أن كل شيء بدأ قبل ذلك

بكثير لأن كيم كان ينام دائماً في منزله في أورتا حين يسافر سراً إلى برشلونة، وكانت كارمن تعيش هناك وتطعمه وتعد له الفراش... منذ متى تفاهما، أو تحابا، هل منذ المرة الأولى التي أوتته فيها؟ ومن الذي خطا الخطوة الأولى، من الاثنين انتهز الفرصة ونفخ في جمره هذه الفورة الغرامية التي قلبت كيانهما وحملتهما إلى حيث لا يدري سوى الرب؟ هل سعى هو إليها، هل أغواها بإحباطه الكئيب الذي كان يدفعه في تلك الأيام، أم كانت هي، في احتياجها الشديد إلى الحنان وإلى الدفء ولو لليلة واحدة...؟ أم أنهما قد تحابا حقاً وبون شفاء، بون رغبتهما وعانيا من تلك الخيانة اللرفيق...؟ لكن ما أهمية هذا الخراء. فبعد اعتقال نوالارت، وبيتانكورت وكامبس، ومن يدري إن كان هو نفسه قد وشى بهم، أم أنك لم تكن تعرف هذا أيضاً؟ حسناً، في نفس تلك الليلة أعدا الحقيبة بعجلة وعبرا الحدود مع الطفل، كما كنت قد طلبت من كيم وتوقعت ورجوت، لكنهم لم يصلوا أبداً إلى تولوز، ولم أرهم بعدها أبداً...

كان دنيس يتحرك بسلسلة متسلسلة وصارمة وبدا واثقاً من نفسه، ومتوافقاً مع جانبيته ومع طريقته الباردة، لكنه من حين لآخر لم يكن يستطيع كبح الإيماءة الحانقة، النظرة العدائية للمنفي لزم من طويل والذي عليه أن يتعلم العيش مع ماضٍ مريبٍ حُكِمَ عليه بالوحدة.

- لكنني لا أرضى بفقدانها، والرب يعلم.. واصل، دافناً يديه في جيوب البنطلون، كأنه قد تجمد.. لقد فتشت كل إقليم الميدي، من مارسيليا إلى تارب ومن تولوز إلى بريينيان، فكان الأرض ابتلعتهم. والحقيقة أنني لا أعرف إن كانوا قد عبروا الحدود... يمكن أن يكونوا قد بقوا في قرية من

قرى جبال البوانس، أو ربما في مدينة كبيرة بحيث لا يمكن العثور عليهم أبداً. وأملّي الوحيد هو أن يتصل بك - ووجه إلى سوسانا نظرة حزينة ومتصالحه، أن يكتب لك أو يأتي لرؤيتك. نعم، أنا واثق أنه سيفعل يوماً ما، وذلك اليوم سيكون قريباً لأراه... إنه يحبك كثيراً. دائماً ما كان يتحدث عن طفلة روحه. رغم أن الحقيقة - وإفتر للمرة الأولى عن ابتسامة كثية -، أنك لم تعودى طفلة. لكن ابني لويس ما زال طفلاً، ولم أستطع رؤيته إلا في الصور...

منذ بعض الوقت، لم يكف فوركات عن النظر إلى سوسانا. أما هي، فكانت جالسة في الفراش وظهرها شديد التصلب، تضم بين ثراعيها القط الأسود وعيناها منكستان. وفي أوقات مختلفة، بينما كان دنيس يتحدث، تمنيت لو تنظر إلي لكنني لم أفعل. حاولت تخيل المشاعر التي تجتاحها في هذه اللحظة وارتعبت.

كانت أمها تذرع الغرفة بعصبية من جانب إلى آخر وثراعاها متقاطعتان، وحين سمعت دنيس، توقفت أمام فوركات وفي عينيها ضراعة: - وكنت أنت تعرف كل هذا؟ تكلم! هل كنت تعرف؟ هل يمكن أن توضح موقفك، لو سمحت؟! - مالت نحوه مسندة يديها على المنضدة الصغيرة وكررت السؤال بلهجة غاضبة، شبه هستيرية، لكن الأمر انتهى بها إلى التراجع وجلست مطرقة الرأس في المقعد الهزاز الأبيض. وأرذفت، بصوت لا يكاد يبين: - لو سمحت...

لم يقل فوركات شيئاً، لم يحول عينيّه عن سوسانا ولا يديه عن الرسم، حيث بدا أن الدخان الكثيب والساخج الاختلاج للمبخنة يريد أن يتسرب من

بين أصابعه المبقعة، بينما يحاول هو اجتازه في فوهته الورقية. وخلال
برهة طويلة لم يرمش له جفن. منكفئاً على ذاته، ومتوتراً، بدا أنه ما زال
ينتصت إلى تلك الأصوات القادمة من مجال الخيال ويحس بأنه في أحبولة
موقف يتملكه من هناك ولم يكن قد توقعه، في أحبولة خيط عنكبوت من
ابتكاره، ضمن حدود غير المحسوس الذي يزين أكنوبة العالم. تحولت
نظرتة القوية الحولاء في لحظات إلى نظرة مراوغة لا تكاد تلمس شيئاً مما
حوله، باستثناء المريضة، لكن ما كان يشع منها لم يكن الندم ولا الخجل،
بل الحزن. أسأل نفسي اليوم، قيم كان يفكر، وهو مستقر كما كان عندئذ
على اليقين بأن كل شيء عابر ويستوي، القناع والوجه، الحلم والصحو،
بينما هناك في القاعة التي بدأت تغزوها أولى ظلمات الليل كنا نحس جميعاً
بتنامي الصمت الذي يدينه. بألم وارتباك متزايدين، كانت السنيورة أنيتا
تتضرع إليه أن يقدم تفسيراً.

- دعيه وشأنه - اقترح دنيس، دون أدنى حشجة في صوته -. ماذا
سيقول، الشيطان البائس.

أما يداه المفرودتان فوق المنضدة، والمنهمكتان على ما يبدو في
حماية رسم سوسانا، فقد تراعى لي أنهما مجردتان من ذلك الاحتراق
الداخلي الذي كان يحركهما ومن سلطتهما الغريبة على عقل وجسد
السنيورة أنيتا، واليوم أظن أن المحتال العظيم، كان يعرف طول الوقت، في
أعماق قلبه، أن علاقته بهذه المرأة السانجة والسيئة الحظ والقابلة للأذى لن
تدوم إلا بقدر ما تدوم الشعلة الواهنة التي تضيء حلم سوسانا، بقدر الوقت
الذي تستغرقه الفتاة في اكتشاف أن النانتوكيت لم توجد مطلقاً وأنها لو

كانت قد وجدت فلا يمكن أن تكون سوى سفينة محطمة وصدئة تتعفن الآن في إحدى الترسانات العطنة للبرشلونية، حيث يروق لي أن أتخيل أنه رآها عرضاً ذات ليلة ضبابية من ليالي الشتاء بينما كان يتجول على غير هدى بين المرافئ لا يدري ما يفعل بحياته وبذكرياته، وأنه في هذا المكان بالضبط، جالساً على أحد مراسي الميناء في مواجهة هذه السفينة الشبح التي برزت من الضباب، بدأ في نسج حبكة هجومه السلمي على البرج وخطط العنكبوت العاطفي الذي سيوقع في أحبائه الأم والابنة... أراه خلال ذلك الربيع، في الأيام السابقة على وصوله، وهو يغسل الصحون ويخدم في حانة الميناء المملوكة لأخته المتزوجة وفي أوقات فراغه ينظر من خلال زجاج البار إلى مقدمات السفن الراسية أمامه ويرسم مسار النانتوكيت في بحار الذاكرة، ويروقني أن أعتقد أن الكيمونو والهدايا التي أحضرها إلى سوسانا قد حصل عليها من بحار آسيوي سكر هناك ذات ليلة أو لفت انتباهه من فوق سطح سفينته بفانلته الملوحة بالشحم وعينيه المشقوقتين ليقدّم له مبتسماً «طقم» أقلام حبر أو تبغاً أشقر، أو مجموعة من بطاقات البريد الغرائبية لشنفهاي وسنغافورة أو تلك المروحة الحريرية الجميلة مقابل زجاجة من الروم أو الكونياك، يهرّبها هو من الحانة...

لم تكن السنيورة أنيتا قد فرغت من لومه على صمته العنيد، حين لاحظ نيس قلق سوسانا: -

- ماذا هناك؟ - قال لها، وربت رأسها مطرقاً بلسانه: - أكيد أنك كنت تنتظرينه، أكيد... أما زلت تعتقدين أنه سيأتي ليأخذك؟ أحقاً تعتقدين ذلك، يا «أمورة»؟ يؤسفني أن أقول لك هذا، لكنني أقسم أن كيم لم يفكر جدّياً

أبدًا في أخذك معه، رغم أنه اعتاد الحديث عن ذلك: لا أنت ولا والدتك. أما أمك فقد كان قد نسيها فعلاً حين عرفته، لم يكن يذكرها أبدًا. بالنسبة له لم يكن ثمة وجود إلا لدكتاتورية فرانكو وقطالونيا والحرية، ولا شيء سوى ذلك... صمت وفرك جفنيه بإيماء إجهاد، ثم لمحت عينه المُنْتَقِمَة تنور من جديد في الفراغ: لكن هذا كان من قبل. ربما يفكر الآن كثيرًا في ابنته العزيزة.

جلستُ مرة أخرى على حافة الفراش، على الجانب الآخر من حيث كانوا جميعًا، ولم أتأخر في ملاحظة يد سوسانا بين طيات اللحاف تبحث عن يدي وتضغط عليها بقوة، بينما اقترب منا دنيس مشعلًا سيجارة، وبدأ، وقد تملكه فجأة فضول هائى وقاس، يسألها ماذا بحق اللعنة ظننت هي أن أباه يفعل في شنغهاي، ماذا سيذهب للبحث عنه في اعتقادها لاجئ لم تعد له جنور في أي مكان ويملؤه الحنق مثل كيم، ومثله هو شخصيًا، وإذا ما كانت لا تزال بعد ما جرى تود اجتماع شملها معه. لم ترد سوسانا على أي سؤال من أسئلته ولا حتى نظرت إليه؛ وانتبهت أنا إلى أنها لا تريد، ولا تستطيع الحديث عن ذلك. لكنه أصر، هيا نضحك قليلًا، فجميعنا بحاجة إلى ذلك، قال، هيا، يا مفلّتي، احك، ولما رأيته ملاحقة على هذا النحو قررت الحديث نيابة عنها، أو بالأحرى نيابة عن كلينا. بصوت يشويه اقتناع هش جدًا، لكن بصلابة عزيمة ما زالت اليوم تجعلني أشعر بالفخر، ذكرت التحالف بين ميشيل ليفي وكيم في باريس، ورحلة النانتوكيت والمهمة الخاصة في شنغهاي، وحراسة تشن جينج والمغالطة الخائنة من جانب زوجها، واهتم دنيس، الذي كان ينصت إلي متسلّيًا وإحدى ساقيه على دعامة الفراش ونراعه متقاطعتان فوق ركبته،

ببعض التفاصيل وبتقلبات معينة وجعلني أكرر أسماء القبطان سوتزو، وكروجر، عمر، وديويشنج، وتشارلي وونج... انتابني شعور، بينما أكرر الأسماء دون رغبة، بأنني أشي بها، بأنني أنس شيئاً. بدا لي أنني أنبش في جرح فوركات، الذي نظرت إليه عدة مرات طالباً عونه، منتظراً أن يدافع عني، لكنه بدا أنه لم يعد موجوداً. وكانت ضحكة دنيس بالغة القرابة، فقد كان يبتلعها، كانت صامتة، حتى صرخت سوسانا أن كفى، فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم، وانطرحت على جنبها على الوسادة مديرة له ظهرها، معانقة قطها ووجهها باتجاهي وعيناها مفتوحتان لكنهما لا ترياني، ونظرتها مصوبة إلى عالم قد فقد الشفافية والكلمة.

مال دنيس فوقها نادماً وربت شعرها مغمضاً بكلمات اعتذار، بينما كانت السنيورة أنيتا تقول لفوركات وقد صارت أكثر هدوءاً، تكاد تكون متألّمة من أجله: «لكن، الرسالة، وطاقات البريد...»، وذلك أيضاً كان على القادم الجديد أن يوضحه: «يا امرأة، هذا أبسط شيء في الدنيا؛ لقد قلّد خطه وإمضاءه، كان دائماً بارعاً مع الريشة والقلم. فنان حقيقي.».

لم يعد يدخل عبر الزجاج سوى قدر ضئيل من ضوء النهار والآن، بينما لا زال دنيس يربت برقة ظهر سوسانا ويهمس في أذنها شيئاً، انمحت تقاطيع الوجه المرید ولم يكن يضيئها من حين لآخر سوى لهب السيجارة. وبدون أن أنتظر أن يأمرني فوركات، كما فعل مرات عديدة في نفس هذا الوقت، أضأت النور فنهض هو أخيراً ببطء من المنضدة الصغيرة وأبعد يديه عن الرسم. مر بجوار السنيورة أنيتا وتوقف عند باب القاعة، استدار وظل ينظر إلى ظهر سوسانا؛ بدا أنه سيقول لها شيئاً، كان واقفاً هناك

ورأسه منتصب ويداه مختلفيتان في كمي الكيمونو وتحرقت أنا شوقاً لأن يقول لها شيئاً، ولو كان مجرد تصبحين على خير، لكن ما فعله هو أن أدار رأسه قليلاً ليتبادل مع الدخيل نظرة متعبة وودية، وميضاً خفيفاً من الإعزاز القديم أو من الحلم الأخوي الذي اقتسمناه ذات يوم، ثم نظر إلى السيجارة التي يتصاعد منها الدخان والتي بين شفتي دنيس.

- التدخين هنا ممنوع - قال بصوت مستحث وصارم، وبون أن يضيف على ذلك شيئاً اختفى داخل المنزل.

وبعد بضع ثوان من التفكير، وذراعاها مشتبكتان ومرتبكة لا تزال، خرجت السنيورة أنيتا وراءه. وبعد قليل سمع صوتها وهي تسبه وتصرخ. جذب دنيس نفسه من سيجارته ثم ألقاها على الأرض وداسها، ثم عاود الانحناء على المريضة ووضع يده على كتفها.

- هيا ننسى كل هذا، ممكن؟ - قال - حاولي، فأنت تستطيعين ذلك. هذا الرجل ليس سوى مخلوق حكايات بانس...

بعدها توقف عندي وخلصه لكن بنوع من الحدة، أشار لي برأسه أن أذهب. تظاهرت أنني لم أفهم، وعلى الفور قال: - وأنت امضي، يا صبي. فالوقت متأخر.

كان الرسم غير المكتمل لسوسانا، ذلك الذي أرادت أن ترسله إلى أبيها ليراها وهي مضطجعة في الفراش مرتدية التشيبياو الحريري الأسود وتحت تقاطع دافئ لأضواء تتخلل الزجاج، ما زال فوق المنضدة الصغيرة مع علبة الأقلام، والممحاة، والمبراة. وضعت كل شيء في الحافظة، وتمكنت من قول «ليلة سعيدة، يا سوسانا»، ومضيت.

غادر ناندو فوركات البرج في الصباح التالي. رآه الأخوان تشاكون يخرج بحقيبه الكرتون القديمة والمعطف مثني فوق ذراعه، فالتقيا عليه تحية الصباح وسألاه إلى أين يمضي، لكنه اكتفى بالنظر إليهما. عبر الشارع والسوق تحت سماء واطئة ورمادية وإخفتي عند ناصية شارع ثرينيا. علمت أنا في المساء. توقعت أن أجد خوان وفينيتو جالسين أمام البوابة، كالعادة، لكنهما كانا قد نقلنا منصتهما إلى الرصيف المقابل. - إنه ذلك المدعي الذي جاء بالأمس - قال خوان -. إنه في منزل سوسانا.

- لقد طردنا من هناك، يقول أننا نتجسس على سوسانا - أضاف فينيتو -. وأراد أن يعرف إن كان لدينا تصريح من البلدية بإقامة منصة في الشارع، العرص... لكن، ماذا ظن هذا الرجل؟ من هو؟ يا داني؟ - صديق لوالدها. هل عاد قبل أو بعد ذهاب فوركات؟ - بعد ذهابه.

- أعتقد أن هذا القواد يظننا سنتجسس عليه - قال أخوه. كان شيش نوافذ القاعة مسدلاً. في هذه الساعة، لا بد أن تكون السنيورة أنيتا جالسة في شباك تذاكر سينما مونديال. طرقت الباب ففتح دنيس مشمرًا كمي القميص، والسيجارة بين شفتيه ورباط العنق مفكوك ومعلق من رقبتة مثل ثعبان ميت. كان شعره الأسود الضارب إلى الزرقة من النعومة وجودة التصفيف بحيث بدا مستعارًا. قال لي إن سوسانا ليست على ما يرام وأنها لا تريد أن ترى أحدًا خلال أسبوعين أو ثلاثة على الأقل.

وربما أكثر، وهكذا فشكراً على اهتمامك وسلام، يا غلام. ثم أغلق الباب في وجهي.

حاولت مرتين أخريين بنفس النتيجة دائماً: سوسانا بحاجة إلى الراحة. وفيما بعد عرفت أن دنيس لم يكن يسكن في البرج لكنه يأتي كل يوم وأنه اعتاد التوقف في السوق لشراء فواكه وأحياناً سمك لإرضاء السنيورة أنيتا وابنتها. وذات مساء في أوائل سبتمبر كان الجو فيه شديد الحرارة خرج من البرج بالفانلة، وعبر الشارع وهو يحرك الهواء بصحيفة ويبحث فينييتو ليشتري برطمان بريانتين وبرطمان مساج ماركة فلويد، وأعطاه بقشيشاً جيداً. وذات يوم آخر خرج بزوج حذاء ذي لونين لكي يحمله له إلى محل إصلاح ليضع له نصف نعل، وكان البقشيش سخياً كذلك.

في تلك الأيام، عند فجر يوم اثنين كئيب، استهللت خجلاً معطف عمل رمادي طويل اشتريته لي أُمِّي وبخلت كصبي متمرن في ورشة شارع سان سلبادور، ومنذ ذلك الحين كنت أقضي أغلب النهار وأنا أجوب برشلونة متشعلقاً من سلم الترام، أسلم مجوهرات لمتاجر أو لزبائن خاصين أو أوصلها إلى صاغة ينقشونها أو يرصعونها، دائماً بحافتها الخضراء ورائحتها التي تشبه «بوية» سُخِّنت تسخيناً شديداً. وعلى عكس ما اعتقدته أُمِّي عندما اختارت لي هذه المهنة، فلن أبلغ أبداً درجة أن أصمم بروشاً أو خاتماً، لم تكن براعتي المفترضة في الرسم ضرورية ولا مطلوبة على الإطلاق، لكنني في المقابل أستطيع القول إنني في سن الخامسة عشرة كنت قد عرفت المدينة شبراً شبراً بكل شوارعها وكل ميادينها، بكل خطوط ترامها وكل محطات المترو فيها، من الحي الصيني حتى حديقة جويل ومن

سانتس حتى بويلنوا. وعندما لا تكون هناك مشاوير فإنني أكون تحت أمر الثلاثين عاملاً في الورشة الجالسين على ثلاث مناضد ضخمة، أو كنت أظل واقفاً ويداى خلف ظهري بجوار المسؤول الأكثر سرعة وخبرة، متأملاً كيف يتحكم في المنشمار الدقيق جداً، وفي المبارد وصاروخ اللحام. سببوم التدريب عامين وكان الأجر الأسبوعي خمسة عشر بيسيته، ورغم أن المهنة ستروقني، فقد ظننت في البداية أنني لن أتحمل حتى أسبوعين.

لكن مضى شهران تقريباً نون أن أنتبه وعند نهاية أكتوبر، ذات ليلة دعت فيها أمي من جديد صديقها خبير الأقدام للعشاء، حبست نفسي في غرفتي وأنهيت من الذاكرة رسم سوسانا. أظن أن ذلك كان طريقة لأن أكون معها في القاعة من جديد، أن أراها من جديد: مستلقية في الفراش، كانت مثل تمثال صغير من الخزف داخل صندوق من الزجاج، يحاصره النخان الأسود للمدخنة والغاز الشبكي الذي يشكل هاجساً للكابتن بلاي. راقني الرسم وقررت أن أحمله إليها. لم أكن متأكدًا أنها ستقبله، كما أنني كنت أخاطر بأن تقول لي اذهب إلى الجحيم مع الرسم، لكنه كان نريعة لزيارتها. ذهبت يوم أحد في الصباح متوقفاً أن تفتح لي الباب سوسانا نفسها أو أمها. كان الأخوان تشاكون ومنصتهما قد غادرا الرصيف المقابل منذ زمن. رأيت المقعد الهزاز الأبيض في الحديقة، بجوار منضدة صغيرة من الخيزران عليها مجلات ومنفضة سجاثر.

فتحت لي السنيورة أنيتا، وفي يدها المرتعشة كأس نبيذ حوافه مصطبغة بأحمر الشفاه، عصبية لأقصى درجة وسعيدة جداً برؤيتي. احتضنتني بعتاب ودي لأنني نسيت طفلتها المريضة المسكينة ثم تعلق

بذراعي، وغمغمت «دانييل والأسود» بصوتها المصطنع وعدنا نعبر معاً الردهة المظلمة ذات السقف المرتفع المنقوش والقذر، النفق الطويل الذي كان في الأيام المشمسة ينتهي بانفجار للضوء. لكنها فجأة، في منتصف الطريق، توقفت ورأسها فوق صدرها وأسندت يدها على الجدار، ساكبة النبيذ من الكأس؛ وبينما تنزلق أطراف أصابعها على الجدار، كأنها تتحسس نقشاً بارزاً على سطحه، أخذت تبكي في صمت، ظننت أن سوسانا ربما انتكست في مرضها... استدارت نحوي، مبتسمة قليلاً بعينيهما الزرقاوين الزجاجيتين، ووضعت يدها على صدري وقالت: «تعال كلما أردت، يا بني»، قاذفة في وجهي نفساً ينضج برائحة النبيذ. أحسست أن الوحشة المتقلصة للإيماء، وأصابعها المتشبثة الآن بقميصي، تشل قدرتي على الرد. عندئذ بذلت هي جهداً لتمامك نفسها وقالت: -

- أنا بحاجة إلى بعض البقنونس. سأطلبه من جارتني - ويخطوة غير ثابتة، رافعة الكأس إلى فمها، انزلت عبر الردهة مثل شبح ودخلت غرفتها.

٣

كانت قد عانت من انتكاسة، وتجاوزتها. لكن على أي نحو: لم تبد أنها نفس الصبية، لم تكن هي نفسها. كان شعرها اللامع الأسود مضمومًا في ضفيرتين سميكتين ومفروقًا في المنتصف تمامًا بعرق فوق جبهتها، التي تحفها بوائر معقوفة نافرة صغيرة ويلتمع فيها بعض العرق، ورغم الضفيرتين والشعرات المعقوفة الصغيرة، بدت أكبر: العينان غائبتان أكثر، والوجه أشد سمرة وامتلاء بالزوايا، والشفتان كأنهما متورمتان. كانت تجلس في الفراش مرتدية بلوفر رجاليًا واسعًا رماديًا فوق قميص النوم،

ركبتها مرتفعتان وساقاها مفتوحتان تحت الملاعة الرقيقة، وكانت يداها بين فخذيها وكل انتباهها مركز في تحريك صندوق صغير مسطح، هو لعبة بها كرات بحجم قطرات اللعاب يجب إدخالها في بعض الثقوب، لم تتركه لحظة واحدة طوال وجودي هناك. نظرت إلي بجانب عينها وردت على تحيتي بمحاكاة تهكمية للغة الحكايات المصورة: -

- أه، أهلاً، من لدينا هنا؟

- قالوا لي أنك لا تريد رؤية أحد...

- أكيد. لم أعد أنكر.

- هل أنت أحسن؟ هل زالت عنك الحمى؟

- يقولون أنني مثل وردة. ها.

- هل ما زالت لديك شمرطات...؟

- أقل باستمرار - قاطعتني نافذة الصبر -، والآن أخرجُ إلى الحديقة.

لاحظت أن المنضدة الصغيرة لم تعد عليها صورة كيم بقبعته المائلة ومبتسماً للمستقبل. كانوا قد أشعلوا المدفأة، لكن لم يكن عليها أي قدر يغلي بالكافور.

- أتعرفين أنني أعمل الآن؟ - قلت لها - الآن ليس لدي إجازة سوى

أيام الأحد.

- حسناً، أيام الأحد ومساء السبت، أليس كذلك؟

- مساء السبت يكون علي تنظيف الورشة.

- مَرَحَى. هكذا فإنك الآن جواهرجي - قالت وهي تدير الكريات في

الصندوق. وهل يروقك العمل؟

- كلهم يقولون أنها مهنة جيدة.

- أه، هكذا؟ وأنت ماذا تقول؟

- لا أقول شيئاً.

لم تعاود النظر إلي منذ دخلت. كان الصنوق الصغير الذي توازنه بين ساقها أكبر قليلاً من علبة سجائر معدنية ماركة كرافن، لكنه كان من البلكسيجلاس وسمطحه شفاف؛ كانت الكريات تدور فوق بحر متموج وذبرجدي به أسماك قرش فاغرة أفواهها، وكل فم هو ثقب يجب إدخال الكريات فيه. سألتها من أهداه إليها، فلم ترد.

- لم أره من قبل أبداً - قلت - هل هو لعبة جديدة؟

- طبعاً. ألا ترى؟ ما زلت كما أنت بطيئاً وأحمقاً، يا داني.

جلست إلى جوارها على حافة الفراش، وملت لأرى أفضل.

- أنهيت رسمك - جعلت الحافظة تنزلق من إبطي وهممت بفتحها - ألا

تريدين رؤيته؟

- اللعنة ثم اللعنة - قالت كأنها تكلم نفسها - بقيت كرة واحدة ولا تريد

أن تدخل... أنت ورسومك، يا ولد. أنت عبيط.

- ظننت أنه سيعجبك...

- ها! - قاطعتني - مرحى للفنان. كان يجب أن ترسمني بطريقة

أخرى، يا رجل، ألا تنتبه؟ نعم، بطريقة أخرى... - عصبية لأنها لا تتجج في

إدخال الكرة في الثقب - سيجعلني أضحك، اسمع. لماذا لم ترسمني وأنا

أبرز، نعم، أ أبرز خرية طيبة تحت مدخنة ضخمة تفرز هي الأخرى خراء

طيلاً، ويزنحي يروح على مؤخرتي، أو الأفضل أن يكون صينيًا، هه؟ ماذا

تظن؟ ألا تعتقد أنه سيكون أفضل؟ - حولت عينيها عن اللعبة لتتظر إليّ وأردفت بابتسامة خفيفة وينبرة أرق: - مزقه، يا عبيط. لماذا نريده؟
- إنه يعجبني.

- إنه يعجبه! - عاودت تركيز انتباهها في اللعبة وبعثت: - مرحى إذن!
- نعم، أعرف... لكثك جميلة جداً في الرسم. انظري إليه. من فضلك.
- أنا أهديه لك. وهيا اذهب. أنت ولد مضحك جداً.

وانقلبت نحوي ضاحكة تريد أن تضربني بالحافطة، لكنني أمسكت يدها في الهواء فتوقفت، مسندة رأسها فوق كتفي. ومثل مرات أخرى عبدة كانت فيها شديدة القرب مني، خلال أمسيات الصيف المنصرم تلك في صحبة فوركات، بدا لي أن الهواء المالح للبحر الذي استحضرنه مرات عبدة قد عاد للاشتباك في شعرها وأنها للحظة قصيرة بقيت متفكرة وأسبلت مرة أخرى جفنيها لتمسك بضوء من بعيد، بترجيع حلم؛ ظننت أنها قد تنتهي بقبول الرسم وقبول إخلاصي. لكنها فجأة أطبقت على معصمي مرفضة فوق الفراش، فتركتها تفعل؛ سقطت على ظهري فركبت هي فوق بطني، دون أن تقلتي.
- أترى؟ - قالت - الآن أنا أقوى منك.

أطبقت فخذيها على جنبي واهتزت قليلاً فوق بطني كأنها تمتطي جواداً، فظلمت أنا ساكناً. انسدل شعرها على وجهي، وبين هذه الخميطة السوداء، في نظرتها العابثة والناعسة، رأيت للحظة خاطفة التماع شرارة قسوة. وعلى الفور ترجلت من فوقني وانتحت جانباً، دفعتني خارج الفراش فسقطت الحافطة على الأرض. «اذهب»، قالت من جديد. انحنيت لالتقط الحافطة وعند نهوضي رأيته واقفاً عند عتبة القاعة.

كان دنيس يربط جلدة الساعة حول معصمه الأيسر، وأكمام قميصه الأبيض مشمرة وشعره المشدود جيداً ممشط بالبريانتين. لن أعرف أبداً إن كان في زيارته للبرج يختبئ من خطر حقيقي، إن كان ما زال ثمة أمر بمطاردته والقبض عليه أم أنه كان هناك من باب السماجة، من باب الصعلكة، كما كان فوركات قبله. لكن كل إيماءاته وأوضاعه التي تكون أحياناً شديدة التكلف، وكذلك طريقته في المشي، ناظرًا دائماً أين يضع قدمه وينظراته الخاطفة المختلصة، كانت تشي بعلاقة طويلة ومكتملة مع العمل السري. فحس السرية، كما كان لي أن أجرب بعد ذلك بسنوات، هو شيء مكمل للأحلام ويشكل أسلوباً، طريقة للوجود مكتفية بذاتها وحتى شكلاً من أشكال «الفندرة». لكن رغم أن دنيس كان يستحق تقديراً معيناً بسبب ذلك، بسبب المثل العليا التي كان قد تشاركها مع كيم ولأنه جلب إلى البرج الحقيقة الحقّة، كاشفًا القناع عن فوركات، وفاضحاً دجله، فإنني لم أستطع في ذلك الحين الامتناع عن التفكير في أن تلك الحقيقة الحقّة قد أُلقت بفوركات إلى الشارع، ولهذا فقط لم أطلق ذلك القواد منذ اللحظة الأولى.

- ها قد سمعت، يا غلام - تقدم بعزم شديد نحو الفراش وكان علي أن أبتعد لأفسح له طريقاً. وناظرًا إلى سوسانا أردف: الطقس جميل اليوم وهذه ساعة الشمس بالنسبة لك، إذن، انهضي! - بضربة واحدة أزاح الملاعة، وأمسك اللحاف المتكرومش عند قدم الفراش، ولف به المريضة وحملها إلى الحديقة. تركسته يفعل وعيناها مغلقتان ومطوقة عنقه بذراعها.

بقيت هناك لحظة مذهولاً أنظر إليهما يخرجان، وأرى أظافر سوسانا الحمراء وأصابعها المتشابكة حول رقبتة، وشفتاها تلمسان حنجرتة البارزة، ثم خرجت أنا أيضاً إلى الحديقة، لكنني لم أسر معهما، ولم أتبعهما حتى الركن المشمس، وراء الصفصافة، حيث وضعها برفق في المقعد الهزاز الأبيض، ولف ساقها بالحاف وشوشها. اتجهت نحو البوابة بون وداع وحين كنت أفتحها، وحافظتي تحت إبطي وأنا ألعن الدخيل بصوت خافت، عاودت النظر إليهما. كانت سوسانا تتشمس في المقعد ملفوفة في الحاف، ودينيس، الجالس على الأرض تحت الشجرة، ينظر إلى أعلى محدقاً في الأغصان المترامية. وخلفه، بجوار الجدار الذي يهته فوركات بالجير، كان ركن السوسنات الزرقاء، واللبابة المتربة، ونباتات الياسنت تتمطى بكسل تحت الظل المشووم للمدخنة. بعدها، أغلق دينيس عينيه.

دائماً ما أتذكره في هذا الوضع، برأسه المستند على جذع الصفصافة ويداه خلف رقبتة، وأربط بينه وبين الرغبة المعذبة التي لا تلين والتي لا بد أنها كانت تتملكه عندئذ، الجنون البارد الذي لا بد أنه كان يحكم كل أفعاله؛ ولو كان الأذى الذي سيسببه عامداً، فإنتي أقسم أنه تعمدته في هذا الركن الهادئ من الحديقة بينما يحرس راحة الصبية المصنورة، في ظهيرة مشمسة مثل هذه.

هبطت شارع كاميلياس ورأيت السنيورة أنيتا عائدة إلى المنزل على نفس الرصيف وممسكة في يدها المرتعشة باقة من البقدونس كأنها طاقة رقيقة من الأزهار. كانت قادمة من البرج المجاور مطرقة البصر، تهز شعرها الأشقر القصير، ومرت بجانبني بون أن تراني.

بعد ذلك بزمان طويل، حين اعتقدت أن لا شيء له علاقة بالبرج يمكن أن يهمني، عرفت أن سوسانا قد شفيت تمامًا، وأن أمها أصبحت سكيرة مسكينة لكنها ما زالت تحتفظ بعملها كعامله تذاكر في سينما موندريال وأن دنيس يملك بارًا في شارع ريوس روساس، ويتفق الكثير من النقود ويلبس مثل مانيكان. لم يكن أحد يشك في الأمر عندئذ ولا أنا بالطبع، لكن عُرف فيما بعد أن موارده تأتي من تحصيل إتاوات من مناضلين جمهوريين قدماء ومن القيام بهجمات على مؤسسات تجارية.

في فبراير ١٩٥١، بعد ثلاث سنوات من آخر زيارة لي إلى البرج، قال لي فينيتو تشاكون، الذي كان يدور في عربة نقل صغيرة تابعة لشركة دام Damm موزعًا صناديق البيرة وكان يتباهى بشارب صغير ويأته يعرف كل بيوت دعارة الحي الصيني وكل بارات الدعارة الراقية في المدينة، أنه رأى سوسانا تغسل الصحون خلف منصة بار العاهرات الذي يملكه دنيس في ريوس روساس؛ وأنها كانت في غاية الود معه ويا لها من فتاة، إنها أشهى من العسل، فجلدها ناعم مثل أمها ولها أكثر المؤخرات التي يمكن أن تتخيلها إثارة، حقًا، رغم أنه لا يدري إن كانت تعمل هناك كساقية فقط أم أنها «تبلع»^(١) أيضًا مثل الأخريات، لكنه ينوي المرور بالبار يوم السبت بالليل ببذلة الجديدة ليتحقق من الأمر - لأن الطفلة فيما يبدو لم تعد تنام في منزلها ...

(١) tragar : كناية عن العمل بالدعارة - م.

- لماذا تحكي لي كل هذا؟ - قاطعته مستاء... من قال لك إن هذا سيهمني؟ ماذا يهمني أنا ماذا تفعل هي.

في ذلك الوقت، حين غارت المنزل نهائياً لتعيش مع عشيقها، كانت سوسانا بالكاد في الثامنة عشرة، أكبر مني بسنة. كانت أمها تشاهد ذاهبة إلى المنزل أو قادمة منه إلى السينما أو إلى الحانة، تزداد تدريجياً هشاشة وتدهوراً، وغالباً ما تكون قد أفرطت في الشراب وتحدث نفسها، وبدا معجزة أن تظل محتفظة بعملها، وبجلدها البالغ الرقة ويذهب شعرها الأشقر. كانت تقول، لمن يريد سماعها، إن سوسانا قد نهبت بحثاً عن والدها وأنهما سرعان ما سيعودان إلى المنزل سوياً. وفي الصيف مرضت فكانت أرملة الكابتن بلاني، النونيا كونشا، تذهب كل يوم إلى البرج لترعاها. حينئذ، ذات يوم لم يستطع أحد تحديده، ولا حتى النونيا كونشا، وينفس الطريقة الصامتة التي كان قد خرج بها من المسرح، ظهر فوركات من جديد واستقر مرة أخرى في البرج وفي حياة السنيورة أنيتا ليخلصها من انحرافاتهما ومن الكحول. كان قد مر على سوسانا أكثر من ستة أشهر خارج المنزل.

ابتداءً من هذه النقطة ليس لدي سوى تعليقات وأقاويل الجيران، لكنني أستطيع تأكيد أنها لا تقل قيمة عن شهادتي. بعد أسبوعين من عودة فوركات، شوهد يترجل من تاكسي أمام بوابة البرج ويعاون سوسانا على الهبوط، بدت واهنة وكانت تحمل حقيبة صغيرة ومعلقاً من الجلد الرخيص مطوياً على ذراعها؛ رأوه بعناية بالغة يحمل الحقيبة ويمسك الفتاة من ذراعها ليدخلا سوياً إلى البرج. كان ذلك صباح يوم سبت من شهر يوليو

وكان السوق يغص بالحركة. لم يُعرف، في البداية، إن كانت سوسانا قد عادت إلى المنزل لتبقى أم أنها تنوي رعاية أمها خلال بضعة أيام فقط، لكن ما بدا مؤكدًا هو أن فوركات تولى شخصيًا مهمة الذهاب والبحث عنها وإقناعها بأن تأتي؛ كذلك قيل أن مباشرة العودة يمكن أن تكون قد اتخذتها الفتاة عندما لم تحتمل الحياة السيئة التي تحياها والمعاملة التي لا بد أن ذلك القواد يعاملها بها: كانت تكفي رؤيتها حين وصلت، شديدة الإنهاك والخجل، رغم أنه يجب الاعتراف لوجه الحقيقة بأنها، حتى لو نظرنا إليها نظرة سيئة ودون أن ننسى ابنة من هي، لم تكن تبدو كعاهرة، فلم تكن مفرط الزينة ولا تلبس مثلهن ولا تظهر شيئًا من جسدها، لم يكن يبدو عليها ذلك؛ بل بدا بالآخرى أنها قد عانت من انتكاسة للمسئ وأنما خارجة من مستشفى، مفزوعة بهالات تحت عينيها وبعض الكدمات في وجهها... على أية حال، في ثاني أيام عودتها إلى الدار، في ساعة متأخرة من مساء الاثنين ٧ يوليو، ظهر دنيس في البرج.

بعد زمن طويل من تلك الليلة، حين كان الشراب ووخز الضمير قد دمرا ذاكرة السنيورة أنيتا، ظلت تصر إصرارًا قاطعًا على توضيح تفاصيل معينة: أنها لم تكن هي التي فتحت له الباب، أنها لم تستقبله أبدًا عن طيب خاطر في منزلها لأنها كانت تعرف أنه مقامر وقاطع طريق، رغم أنها كان يؤلمها أن تراه دائمًا مرورًا بملكه الهواجس، عاجزًا عن أن يغفر لزوجته وينساها، وأنها بالطبع لم تكن لتتخيل أبدًا انحراف طفلتها مع ذلك المنحط ولا طويته السيئة، ولا رغبته في دفعها إلى الانحراف. قالت إن العرص اللعين كان باستطاعته أن يشفي غليله معي، فما أكثر وأفضل الأشياء التي

إرتكبوها معي في هذه الحياة بحيث أن شرمطة أخرى ما كانت لتهم، فقد أصبح جلدي سميكا، لكن لا، فقد كان يعرف جيدا أن هذه الطفلة المريضة هي أغلى ما لدى كيم في هذا العالم... أنها كانت في الفراش مصابة بحمى شديدة وتغرق مثل كتكوت، وهكذا كان فوركات هو الذي فتح الباب، ظاناً بالتاكيد أنها الدونيا كونشا وقد عادت من الحانة بالثلج المجروش؛ كانت سوسانا قد فرغت لتوها من الاستحمام وكانت بالبرنس، وبينما تجفف شعرها بالمنشفة صعدت إلى غرفة فوركات بحثاً عن أسبرين، عندها حدث ما حدث. أنها لم تدرك ذلك بعينها، بل بقلبها: نيس مندفعاً في هياج يصرخ منادياً الطفلة طوال الردهة وحتى القاعة، مثل مجنون، وفوركات يحاول تهدئته، محاولاً التعقل أولاً، ثم متجادلاً وإياه بعنف، متهماً إياه بالغيظ والكراهية دون أساس وبالجبن، حتى تمالك نيس ووصفه بأنه مهرج وطفيلي وهدده بإلقائه مرة أخرى في الشارع ويقتله إذا تدخل بينه وبين سوسانا. قال، سأخذها معي وإن يمتعني حتى الرب. أنها في تلك اللحظة سمعت بقلق ابنتها تهبط السلم بسرعة، فقررت النهوض وارتدت ثوبها وخرجت إلى الردهة، لكنها لم تستطع اللحاق بها، وحينئذ سمعت الطلقتين اللتين دوى صداهما في المنزل بأسره؛ بلغت القاعة فرأت سوسانا والمنشفة ملفوفة حول رأسها وظهرها مستند إلى الحائط، مشلولة وعيناها ثابتتين على المسدس الذي كان فوركات يمسكه ربما لأول مرة في حياته، ورأت نيس يترنح وهو يتجه ليفتح الباب ويخرج إلى الحديقة، حيث خطا ثلاث خطوات ثم سقط على وجهه؛ وأن فوركات خرج عندئذ في أعقابه وفي نفس ذلك الموضع، وأحدى قدميه على آخر درجات السلم، ببطء ومعيلاً

رأسه، بدقة تأملية في اليد التي تقبض على المسدس وفي النظرة الحولاء، أفرغ خزانة المسدس في الجسد الهامد الممدد على الحصباء، بعدها طلب بنفسه الشرطة، وسلم المسدس وتركهم يقيّدونه، وحين أخنوه نظر إلى الطفلة لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، ليس صحيحًا أنه قال لها الآن لم يعد لديك ما تخافينه، ولا اعتني بأمك من أجلي واسلكي سلوكًا حسنًا، فذلك ما اخترعه الناس أو ربما اخترعته أنا نفسي، ومن يدري إن كنت قد حلمت به، قالت السنيورة أنيتا، فقد كنت مرتبكة ومشوشة، وحتى اليوم ما زالت تلك الطلقات المربعة توقظني بالليل، وسأظل أسمعها حتى أموت؛ كذلك لم يودعني بقبلة ولا قال سستلقي من جديد ولا شيء من ذلك، فقد كان يعرف جيدًا ما ينتظره كما أنه لم يكن ليستطيع معاودة الضحك علي بالكلمات الطيبة، كما فعل مرات عديدة... أن فوركات لم يحول للحظة واحدة عينه الزائفة عن ظهر الميت المثقوب بالرصاص، قالت، وأنه لم يعاود فتح فمه، حتى ولا للرد على أسئلة رجال الشرطة أو الشكوى من المعاملة الخشنة التي عاملوه بها...

حكّت الأمر على هذا النحو، انطلاقًا من الرواسب الزلقة لذاكرة راكدة وهي تكافح للتخلص من تخمينات الغريباء ومن تخميناتها الخاصة، كأنها هي الأخرى تتملكها مشاعر وتحيزات تحجب الحقيقة، ولا تنتمي إلى تلك الليلة المشنومة، ولا يربطها شيء مع واقع الأحداث. لكن في مناسبة معينة، بينما كانت تعلق عند منصة بار بيديه على الشفاء النهائي لابنتها وخروجها مؤخرًا من دار الراهبات حيث ظلت محتجزة نحو عام، أغمى عليها وحين أفاقَت بمساعدة صاحب البار وزوج من الزبائن، قالت بلهجة تأملية ومتحيرة

بعض الشيء، كأنها تواصل حوارًا ربما بدأت في الأحلام، أن لا يا سيدي، أن ما يقولونه عن ابنتها ليس أكيدًا، إنها كانت قد شفيت تمامًا من السل حين استسلمت للحب المنتقم لدنيس الهائج، وبن رابطة، أريدت أنه ليس مؤكدًا كذلك أن تكون سوسانا قد دافعت عن نفسها ضد ذلك المنحط بسكين مطبخ، بل فعلت ذلك بمسدس رغم أنها لم تكن قد أمسكت واحدًا في حياتها وأنها هي على وجه الدقة كانت قريبة جدًا بحيث جعلتها الرصاصات صماء... وفتح ذلك الباب لتنويكات جديدة وجامحة للحدث، زعمت إحداها أن الطلقتين الأولى، التي ظلت السنيورة أنيتا تقول دائمًا أنها سمعتهما من الردهة، قد أطلقتها ابنتها، وأن هاتين الرصاصتين كانتا كافيتين للإجهاز على دنيس؛ وأن فوركات على الفور، انتزع من الفتاة المسدس الذي ما زال يتصاعد منه الدخان ليطلق الطلقات الأربع الباقية على ظهر الميت.

يعجبني هذا الحيود، وقد أعجبني منذ اليوم الأول الذي سمعته فيه وظللت أنعميه في قلبي سرًا مع مرور الأعوام. إذ أننا لو فكرنا جيدًا، فمن سوى سوسانا كان يمكنه الإستيلاء على مسدس فوركات، بافتراض أنها كانت في غرفته حين وصل عشيقها يصرخ ويهدد؟ ولم يكن من الطبيعي أن يحمل فوركات المسدس معه حين فتح الباب...

لكن ذلك كان أكثر من مجرد افتراض، كان شعورًا. فعلى هذا النحو، بإعادة قتل الجثة المسجاة في الحديقة لإبراء الطفلة من الذنب، توج الدجال الأحول بجته.

تزوجت أمي أخصائي الأقدام براوليو وأخذنا لنعيش معه في منزله، وهو شقة واسعة ومشمسة في ميدان ليسيبس كان يشارك فيها أخته العانس. كان بها أربع غرف، وحمام، ومطبخ وشرفة خلفية في الطابق الأخير من مبنى سكني حديث الإنشاء. كانت بعيدة بعض الشيء عن ثرينيا - كاميلياس، لكن قريبة من الورشة، التي أذهب إليها الآن بالدراجة، هدية براوليو. كان أخصائي الأقدام رجلاً طويل الأنف معتلاً ومتفائلاً، حنوناً مع أمي وحتى مرحاً، وكان لديه بيفاء يسميه كلارك جيبيل^(١) ويحب الطهو ويفني في الحمام، وأبهج كل هذا حياة أمي؛ لكنه اعتبر أن من واجبه ممارسة دور الأب فلم أسعه يفعل. لم أستطع أن أخذ على محمل الجد ذلك الرجل الضخم بذراعي بوبيي^(٢) والإبتسامة الأريحية، فقد كان سمجاً وهو يحكي عن أشياء ولم أتمكن أبداً من الدخول معه في مناقشة لا تكون تافهة؛ كان يتمتع بموهبة جعل كل شيء يبدو غير جوهري وأحمق، وأول هذه الأشياء أنا: كنا نبدأ في الحديث وبعد خمس دقائق أفاجئ نفسي وأنا أقول حماقات. مع الزمن، كان لا بد لمعاملته البسيطة والصريحة ولتأثيره الشافي أن يذيب غرور صباي فأتعلم أن أحبه، لكن في ذلك الحين عادت ذكرى أبي لتستحوذ علي، رغم أنني لم أعد أفكر في موته وحيداً بعذاب مثلما حين كنت طفلاً؛ كنت أعرف أنه لن يعود أبداً كما لا يمكن توقع أي خبر عن مكانه، لكن جسده الصريع في الخندق والعاصفة الجليدية الغزيرة التي تأخذ في

(١) Clark Gable.

(٢) Popeye.

تغطيته ظلاً موجودين، في الركن الذي ظننته أكثر الأركان يقيناً وأماناً في الذاكرة، حتى حدث شيء ذات يوم جعل الصورة مجردة من العاطفة على غير توقع، كاشفاً عن أصلها المصطنع: ففي ذاك اليوم سألتني أمي، وهي تغلظ إلي بشك عطوف، من أي داهية جئت بذلك الخندق وتلك العاصفة الثلجية الهائلة، تلك الفكرة التي كانت لدي منذ الصغر والتي لم تشأ هي تكذيبها أبداً، لأن ذلك أفضل من لا شيء بالنسبة لطفل بون أي تذكارات عن أبيه، لكنها لم تحدثني أبداً عن شيء من هذا القبيل لأنها في حينه لم تستطع حتى التحقق مما إذا كان أبوك قد مات في الجبهة، قالت، ولا على أي نحو وما إذا كانت تمطر أو يتساقط الجليد أو تشرق الشمس حين حدث ذلك، بحيث أن كل هذا، كما ترى، ليس سوى تهيؤات صنعتها أنت... الحمد لله أن الزمن يحو كل شيء، يا بني، أضافت بابتسامة ملتبسة، لا أدري إن كانت ابتسامة ارتياح أم حزن.

بعد تغيير السكن، ظلت أمي تزور النونيا كونيشا بانتظام وتعاونها بقدر ما تستطيع، ومنها عرفت أن سوسانا ظلت لبعض الوقت تعمل كعامله في محل أزهار بميدان ترييا ثم في محل لعب في شارع فيوردي، وأنها الآن تتبادل مع أمها العمل في شباك تذاكر سينما موندريال. افتوت عدة مرات الذهاب لرؤيتها في السينما، لكن شهوراً مرت قبل أن أحزم أمري. اعتقدت يوماً أنني سأعفى من الخدمة العسكرية لأنني ابن أرملة، لكن بعد عام من زواج أمي تم تجنيدي وتوجيهي إلى شاون، في شمال المغرب، مما أسعدني: فكلما كان أبعد، كلما كان أفضل، سأعبر مضيق جبل طارق وربما قفار الصحراء الكبرى، وسأعرف سيدي إفني وجبال الريف، إفريقيا،

قارة أخرى... أحسست كأنني سأقوم برحلة طويلة إلى نهاية العالم بالضبط في اللحظة التي كنت فيها بحاجة إلى وضع نهاية لأشياء عديدة.

قبل يومين من رحيلي إلى الجزيرة الخضراء ذهبت لوداع فينيتو تشاكون، الذي لم يعد يعمل موزعاً لبيرة دام لأنهم ضبطوه وهو يسرق صناديق البيرة؛ ويعمل الآن صبيّاً لكل الأعمال في ورشة إصلاح سيارات بشارع روس دي أولاتو، غير بعيد عن سينما موندريال. لكنني حين وصلت قالوا لي إنه لم يعد يعمل هناك أيضاً، فقد فصلوه بسبب سرقة بعض الإطارات وفانوس دراجة بخارية.

قلت لنفسني عند خروجي من الجراج إنني كنت أعرف، أن فينيتو هذا مفضوح تماماً، وعلى الفور فكرت ما الفائدة، أنسه، وجاهدت لإقناع نفسي بأن شيئاً مما يمكن أن يحدث للأخوين تشاكون لم يعد له صلة بي ولا يمكن أن يؤثر في، قلت لنفسني ما أجمل أن أحس أخيراً بأنني منفصل عن الحي وعن مشاغله البائسة، وكررت ذلك لنفسني المرة بعد المرة وأنا أسير باتجاه سينما موندريال بتصميم غريب ومتبرئاً خطوة وراء خطوة من الزمن الماضي ومن سراباته، ما أجمل أن أحس أنني قد أصبحت بعيداً وبلا جنور وما أشد راحة ألا تهمني على الإطلاق آمال ذلك الحين، مواهبي الواعدة كرسام والمحبة في النهاية، هذيانات الكابتن بلاي تلك وهو يطالب بالتضامن من أجل طفلة مصدورة ستتنتهي بأن تصبح عاهرة وحنقه وألمه لأنه لا يحصل حتى على عشرين توقيماً، كم أنا محظوظ بإحساسي بالابتعاد المتزايد لذكري أولئك الرجال المغروسين في الطريق العام كأنهم أعمدة نور، بإحساسي بأنني غريب عن ذكري أبي وعن الحبكة الثلجية والقبرية لموته

وعن أخصائي الأقدام المضجر المتزوج بأمي وأيضاً عن المصير الهامشي والإجرامي المتوقع الذي ينتظر الأخوين تشاكون. أي أحبولة هذه، فكرت... لكن كان هذا عبثاً، فلم أستطع أن أصدق كلمة واحدة من تلك الثروة لأنني لم أتمكن من الإحساس بأي شيء، إذ أن تلك المشاعر التي كنت أحاول دفنها هي بالضبط ما كان يدفعني نحو سينما الحي الصغيرة، لأنني لم أكن أعرف بعد حينها أننا برغم نعمتنا ومهما نظر المرء صوب المستقبل، فإن المرء ينمو دائماً صوب الماضي، ربما بحثاً عن الدهشة الأولى. وانتابني فضول مرضي معين عند التفكير في سوسانا، عند تخيلها تجهد لتمحو من عقلها ومن دماغها مهنة ويقايا العاهرة التي تعلمتها بين نراعي ذلك القواد، متسائلاً إن كانت بعد عام من الاحتجاز مع الراهبات قد شفيت من ذلك تماماً مثلما شفيت من السل أم أن وصمة معينة ستظل تلازمها إلى الأبد في نظرتها أو في تعاملها مع الرجال - وقبل كل شيء، هل ستكون قاهرة على سؤالها إن كانت حقاً قد أمسكت بذلك المسدس وكانت هي التي أطلقت الرصاص أولاً...؟..، هذا الفضول إلى جانب حزن غير محدد أخذ يفلت من سيطرتي، ويتنامى كلما اقتربت من المونديال، أراحا في أقل من زفرة تلك الاشتياقات الانتقائية للذاكرة، المفتقرة إلى الأساس بقدر ما هي تعسفية.

وعند دخولي إلى بهو السينما ورؤيتها وهي تشتغل الكروشييه في ذلك الثقب المظلم الذي كان قد ضم أمها أيضاً، تلك النافذة الصغيرة في وسط الجدار المنقوش المليء بالخدوش ومزق الإعلانات، قبل ثوان بالضبط من دفع نفسي إلى التعرف عليها والبدء في تعني ألا أكون موجوداً هناك،

عاودت رؤيتها على الرغم مني تقريباً جالسة في الفراش ومحتضنة ركبتيها البارزتين وقطعها القماشي الأثير، مصفية وعيناها مغلقتان بتفان إلى طنين المدينة الموعودة، طفلة مستغرقة في عادة المسافات البعيدة والأكاذيب، حالمة واثقة في ملاذها الزجاجي الدافئ، في فقاعتها الصغيرة المحظوظة. تبخرت الصورة على الفور؛ فما كان أمامي الآن كان شابة متوردة وممتلئة ببعض الشيء، بنظارات وهيئة متعافية، شعرها مضموم في ذيل حصان وشفاتها بون تلوين. في عمر يربو قليلاً على الثالثة والعشرين، كانت جبهتها لا تزال جميلة وجلدها مشدوداً، لكن لم يتبق أدنى أثر للدفق الوردي والحسي للفم، ذلك الامتلاء المتجهم للشفة العليا وتلففها المريك. منهمكة في شغل الكروشيه وعيناها مطرقتان، بدا أنها لا هي ولا الثقب الذي تحتله في البهو الخالي تربطهما أي رابطة بما حولهما، لا بالمرور في الشارع ولا بالعمارة المتعجلين، ولم تبد حتى واعية بأنها موجودة هناك، غائبة عن كل شيء وربما لا تزال منكفئة على نفسها في تبرئها الصعب مما لا بد أنه حدث منذ زمن ولم يحدث أبداً. وكم من مرة فكرت في الطبيعة البائسة لذكرياتها وكأنها انعكاس لذكرياتي البائسة مثلها تماماً.

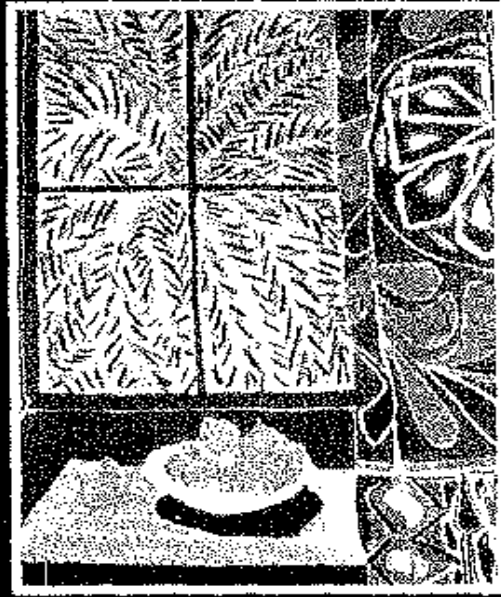
ومثل كيم في تلك الليلة المشؤومة التي نظر فيها إلى المياه الداكنة والمتعبة لنهر الهوانج - بو من المرفأ، أحسست بالمدينة من حولي كأنها ركام من القمامة والخردة، لم أدر ماذا أفعل فأخذت أنظر إلى الصور المعلقة في اللوحات. وبعد برهة من التظاهر بالاهتمام ببعض الوجوه والأشكال التي بدا أنها هناك منذ الأزل والتي لم أكن أنظر إليها في الحقيقة، توجهت نحو شباك التذاكر. بون حاجة إلى أن تراني نهبها شيء

ليس هو حتى ظلي، ربما الحفيف المكتوم لخطواتي، أو الهواء الذي أزاحه جسدي أو مجرد عادة الإحساس بحضور أمام الشباك، فتركت جانباً شغل الكروشييه، وأمسكت بدفتر التذاكر سألت: «كم؟»، دون أن ترفع عينيها، فقلت: «واحدة»، دفعت وعلى الفور فوجئت بأنني داخل السينما تقريباً وأنا أعد نفسي بتحيتها عند خروجي، متحسناً بارتباك الستارة المعترية التي لا تنتهي من طرف إلى الآخر حتى أفلحت في شق طريقي والالتجاء إلى ظلمة القاعة، منكمشاً في أحد مقاعد الصف الأخير وشاعراً بالأسى من نفسي أكثر منها.

خلال برهة طويلة لم أدر بما يدور على الشاشة. فما رأيته يتتابع أمام عيني المرة بعد المرة كان صورة واحدة ترمش متجمدة وساكنة كأنها احتبست في آلة العرض، انعكاساً لضوء أشد وهمية من ضوء فيلم لكنه منقوش في القلب بقوة أكثر مما هو في شبكة العين، وسوف يلزمني إلى الأبد: سفينة بريد بيضاء مثل الثلج تبهر مزدانة في بحار الصين تحت الليل المرصع بالنجوم وفتاة تتمشى على سطحها على ضوء القمر في تشيياو من الحرير مفتوح من الجانبين، النسيم في شعرها وكل جسدها يرتجف من البعد، مبهورة بالبحر الفسيح المتلألئ، بالفضة التي تقرب في حواف الأمواج حتى الأفق، سوسانا تاركة نفسها ليحملها حلمها وذاكرتي برغم القنوط، وانحرافات المثل الأعلى والزمن المتصرم، اليوم مثل الأمس، باتجاه شنفهاي.

شفاه عارية

مادام الإبداع الحق إعادة اكتشاف حرية ودائمة للنفس والعالم. ومادام كل عمل أصيل ينطوي على كسر لتقاليد وإرساء لغيرها، فيجب - في وجه الصعوبات والتحريمات المتزايدة - أن يقال بضم مكشوف. فقدّرهُ أن يكشف ما يؤدُّ الكثيرون ستره. لتتراجع إذن تلك الشفاه المحجبة التي تتعلم من كلماتها حتى قبل أن تقولها. ولتتصدى الشفاه العارية لتَهْجِي حروف حريتها كاسيرة كل قيد لا يمليه المبدع على نفسه. «فالزمار لا يغطي ذقنه» كما يقول المثل. وهذه السلسلة المقترحة «شفاه عارية» تهب نفسها لكل إبداع أراد الانتماء إلى حريته، وامتلك شجاعة هذا الانتماء، ساحة مشاعاً للتجريب والاكتشاف، وخطاً يربط بين فرسانها، ويرسم، بامتداده، المدى الذي يوسعون إليه هذه الحرية المبدعة. فليستخذيها من أراد شعاعاً لإبداعه، بون استئذان، فليست ملكاً لأحد. الحرية تختار من يختارونها. ومن هنا، فعليكم، أيها المبدعون، قراء وكتاباً، يقع عبء أن تكون هذه الرواية بداية لسلسلة أو لا تكون.



خوان مارسيه (١٩٣٣) ، أحد المعم كُتَّاب جيله في إسبانيا ، واحد ثلاثة يتصدرون قائمة أفضل الكُتَّاب على المستوى القومي في نظر النقاد . عمل منذ سن الثالثة عشرة في ورشة ساعات ، ونشر أولى رواياته عام ١٩٦١ .
أما "سحر شتفهي" فحصلت على جائزة النقاد في إسبانيا فور ظهورها عام ١٩٩٣ ، وفي العام التالي حصلت على جائزة أوروبا للأدب التي يقدمها الاتحاد الأوروبي .

في الرواية ، التي تُعدُّ عِيْنَةً للعالم الروائي عند «مارسيه» ، وفي نفس الوقت إعادة نظر في هذا العالم ، يُعيد الكاتب خلق الأجواء الشعبية لبرشلونة بعد الحرب الأهلية- وهو الشغل الشاغل لأغلب رواياته- ويُقدِّم استقصاءً وتمحيصاً مؤلمين لذاكرة المهزومين ببراعةٍ وشاعريةٍ وتعاطف عميقين . .
إنها بكلمات المؤلف «تأملٌ لتلك المثل العليا ، لذلك الأمل في المستقبل ، الذي دَفَعَنَا إلى ما دَفَعَنَا إليه» .

To: www.al-mostafa.com